آر أوستن فريمان

لغز البورتريه الكبير وقصص أخرى

لغز البورتريه الكبير وقصص أخرى

تأليف

آر أوستن فريمان

ترجمة

محمد يحيى

مراجعة

هبة عبد العزيز غانم



لغز البورتريه الكبير وقصص أخرى

آر أوستن فريمان

The Great Portrait Mystery and other Stories

R. Austin Freeman

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: يوسف غازي.

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٢٦٠ ٨

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩١٨
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢١

المحتويات

لغز البورتريه الكبير

الجزء الأول

نستطيع القول إن المعرض الوطني يتحول في أي يوم من الأيام المخصصة لنسخ اللوحات إلى مكان تجمع لنوعيات متباينة من البشر، وهو في ذلك الأمر يفوق حتى غرفة القراءة بالمتحف البريطاني، بينما يتساوى تقريبًا مع مجلس العموم. ويُمثل مشهد المعرض في هذا اليوم مصدر اهتمام دائم للسيد جوزيف فيتلوورث، تمامًا مثلما تفعل اللوحات المنسوخة بواسطة الناسخين المحترِفين، الذين يُطلَق عليهم بشكل فكاهي في المصطلحات الرسمية بين الرسامين؛ الطلاب. ونظرًا إلى أن جوزيف فيتلوورث هو في الأصل رسام ذو نزعة إلى الأساليب القديمة للرسم أكثر من المستقبلية، فإن هذا كان سببًا في فشله المهني. كما تُبرِز الحقيقة اللافتة للنظر في هذه الأيام؛ لأنه عندما يصل الأمر إلى أن يبيع الرسامون القدامى متوسِّطو المستوى لوحاتِهم بأسعار مرتفعة، وأن تُترَك لوحات العباقرة المعاصرين راكدةً في الاستوديوهات ولا تجد من يشتريها، إذن تُصبح الفرصة الوحيدة المتاحة أمام الرسام كي يشتهر هي أن يبتعد قدر الإمكان عن تقليد الأساليب القديمة للرسامين العظماء، الذين يتزايد الطلب على شراء لوحاتهم.

ومِن ثَم فقد وافق فيتلوورث بحماس شديد على وظيفةٍ براتب قليل للغاية في المعرض الوطني حيث يُمكنه على الأقل أن يوجد وسط أشياء وأناس يعشقهم، ومنهم على وجه الدقة امرأةٌ شابة جذابة للغاية، تأتي بصفة منتظمة إلى المعرض لنسخ اللوحات، وخاصة تلك التي تنتمي للمدرسة الفليمشية.

وفي صباح أحد أيام الخميس، سار السيد فيتلوورث ببطء عبر القاعات، وراح يتوقف بين الحين والآخر ليُتابع أعمال الناسخين ويُقيِّمها بكلمات حصيفة أو نقد بَنَّاء. وقد قام

بجولةٍ تفقَّد خلالها أغلب أجزاء المبنى وأوشك على إنهائها، لكنه ذكَّر نفسه بنسخة مثيرة للاهتمام تجري عملية نسخها في غرفة صغيرة منعزلة في طرف المعارض البريطانية؛ لذا توجَّه لمتابعتها هناك. وفي الممر المؤدِّي إلى الغرفة جلس رجل ينسخ بالألوان المائية إحدى اللوحات الصغيرة للرسام كونستابل، وكان عمله رديئًا للغاية لدرجة جعلت فيتلوورث يُشيح بناظِرَيه للجهة المقابلة بتلقائية وهو يمر مسرعًا إلى الغرفة في نهاية الممر. أثار العمل الجاري داخل الغرفة اهتمامه للغاية. فاللوحة الأصلية التي يجري نسخها هي بورتريه جيمس الثاني للسير جودفري نيلر، وقد أثارت النسخة المتميزة إعجابه لدرجة أنه توقف بجوار حامل اللوحة مشدوهًا بالمهارة الفنية التي تنم عنها اللوحة. بينما جلس الفنان الناسخ، الذي نقش اسمه على صندوق الألوان الخاص به، وهو جيلدفورد ددلي، وهو ينظر إلى لوحته المنسوخة واللوحة الأصلية ويخلط بتروٍّ عددًا من الألوان على الباليت.

فقال فيتلوورث: «أرى أنك لم تبدأ العمل بعد.»

فنظر إليه الرسام محدقًا عبر نظارته الضخمة السميكة، وهز رأسه الذي يعلوه شعر أحمر متشابك طويل للغاية.

ثم رد قائلًا: «لا، إني أتفحصها أولًا قبل البدء.»

فسأله فيتلوورث: «هل تظن أن نسختك تحتاج إلى أي عمل إضافي؟ إنها ممتازة كما هي، على الرغم من انخفاض طفيف في درجة اللون.»

فأجابه الفنان مستوضحًا: «ليست أكثر انخفاضًا من الأصل، أليس كذلك؟»

رد فيتلوورث: «بلى، ولكنها ستنخفض خلال عام أو نحوه، عندما تزداد قتامة المادة المستخدمة، وهي أكثر انخفاضًا بكثير من اللوحة الأصلية حين رسمت في البداية.»

أمعن الرسام التفكير، ثم قال: «أميل إلى الاعتقاد بأنك على صواب، إذ كان عليَّ جعل درجة اللون أعلى بدرجة أو اثنتَين؛ لكن الوقت لم يَفُت بعد.» وأضاف بنشاط: «إن العمل لمدة يوم أو نحوه كفيل بمنحها درجة اللون المطلوبة.»

تشكَّك فيتلوورث في كلامه وندم على إبداء هذه الملاحظة؛ إذ إن رفع درجة اللون يعني عمليًّا إعادة تلوين كامل اللوحة مرة أخرى، وهو أمر ينطوي على مخاطرة في مثل هذه الحالة؛ لأن عملية النسخ قد اكتملت وبنجاح كبير. فأراد أن يُقنعه بالعدول عن هذا العمل بلطف، لكن شروع الرسام في عملية التعديل أعفاه من محاولة حثه على التوقف أكثر من ذلك.

ثم قال فيتلوورث: «أرى أن زجاج الحماية ما زال موضوعًا على اللوحة الأصلية. ألا تود أن نخلعه؟»

فأجابه الرسام: «أوه، لا، شكرًا لك، لا يُوجد انعكاس عليه من هنا.»

بدأ فيتلوورث قائلًا: «إن الزجاج يخفض درجة اللون قليلًا»، لكنه توقف فجأة عن الكلام، وظل فمه مفتوحًا بعض الشيء، بينما توقفت يد الفنان، الذي كان قد شرع في العمل، في الهواء بلا حَراك وهي تحمل سكين مزج الألوان. وارتسمت الدهشة على وجهَيهما وهما يستمعان إلى صوت باغتَ آذانَهما؛ ولم تكن الدهشة بلا سبب، إذ انبعث من مكان ما في حرم المبنى صوت لحن مبهج صادر من آلة الأوبوا الموسيقية. ظل فيتلوورث ثابتًا كتمثال لبضع ثوانٍ، مع فمه المفتوح وعينَيه المحدقتَين في عينَي الرسام؛ لكنه تمالك نفسه فجأة، وخرج من الغرفة دون التفوُّه بكلمة. وبعد أن مر بالرجل الذي يرسم بالألوان المائية الجالس في الممر، والذي راح ينظر من فوق كتفه مبتسمًا، دخل إلى بهو المعرض ليجد الطلاب قد تركوا لوحاتهم وتدافعوا نحو الباب؛ فتبعهم ليجد نفسه وسط حشد، يتزايد لحظيًّا، من الناسخين الذين يتدافعون نحو مصدر الموسيقى وقد علت الابتسامة وجوههم جميعًا.

وأخيرًا وجد فيتلوورث عازف الموسيقى داخل الغرفة الفينيسية؛ حيث تجمع حوله حشد كبير وقد وقف في المنتصف بجوار لوحة باكوس وأدريان للرسام تيتيان. كان رجلًا طويلًا ونحيفًا ذا مظهر شاذ غريب الأطوار، يرتدي قبعة مستدقة الطرف من اللباد وعباءة طويلة، ويبدو غير واعٍ تمامًا بجمهوره. وفي اللحظة التي وصل فيها فيتلوورث كان يعزف مقطوعة «كرنفال فينسيا» بإلهام ومهارة مع تنويعات لحنية منمقة، بينما ثبَّت عينَيه على اللوحة وهو يتأملها. فتحكم فيتلوورث في ملامحه بقدر ما استطاع وهو يخوض طريقه وسط الحشد حتى وصل إلى العازف وربت على كتفه برفق.

ثم قال له: «أنا آسف للغاية لمقاطعة عزفك الذي أُقدره حقًّا، لكن أخشى أنه من غير المسموح أن تُواصل العزف هنا.»

نظر العازف الغريب إلى الموظف بنظرة متجهمة بها بعضُ التأنيب، خافضًا نَغْمة العزف؛ ثم بدأ فجأة في عزف مقطوعة أوكتاف ثم افتتح مجموعة تنويعات لحنية جديدة برشاقة مدهشة. فابتسم فيتلوورث ابتسامة حاول أن يجعلها رقيقة، وانتظر بصبر حتى انتهت المعزوفة الرائعة بمقطع منمَّق مذهل؛ ثم كرر اعتراضه المهذب. فأبعد العازف الغريب الآلة الموسيقية عن فمه، وانتظر حتى توقف التصفيق، ثم التفت بثبات نحو فيتلوورث.

وقال: «هل أفهم من موقفك هذا أنك تعترض على عزف الموسيقى في هذا المعرض؟»

رد فيتلوورث بالإيجاب.

فهز العازف الغريب رأسه برصانة؛ ثم قال: «إن هذه تبدو وجهة نظر خاطئة للغاية. إنك بالتأكيد لا تُنكر الصلة الوطيدة بين الفنون الجميلة؟»

ابتسم فيتلوورث ابتسامة تهرب من الرد، فاستأنف العازف الغريب كلامه، وسط همهمات وضحكات تشجيع من الطلاب، وقال:

«أنت لن تُنكر يا سيدي أن الفنون الجميلة المختلفة ما هي إلا أساليبُ متنوعة للإحساس العام بالجمال.»

لم يكن فيتلوورث يُنكر أي شيء؛ لكنه اعترض فقط على عزف آلة الأوبوا داخل المكان.

واصل العازف الغريب كلامه في إصرار، ودون أن يتحرك من مكانه، قائلًا: «ومِن ثَم، ستُقِر بأن كل نوع من أنواع الجمال يُمكن تعزيزه بالعرض والتوضيح عبر نوع آخر من الجمال. ومن جهتي، فأنا أعتبر الموسيقى الملائمة والمحركة للأحاسيس أمرًا ضروريًّا من أجل التقدير الواجب للجمال التصويري.» واختتم حديثه بهذه الكلمات، ثم التفَّ مبتعدًا وتحرك عبر المعرض متبوعًا، مثل زمار هاملين، بجمع غفير من الحضور.

وجد فيتلوورث نفسَه أمام معضلة؛ إذ لا تُوجَد قاعدة صريحة تمنع عزف الآلات الموسيقية في المعرض، كما أن التصرف بحد ذاته لم يكن فيه ما يُخالف القانون؛ علاوة على أن حُجة العازف الغريب، رغم كونها خيالية وغير واقعية، قد سِيقَت بلباقة ومنطقية؛ مما شكَّل صعوبة في التعامل معها. فحافظ على ابتسامته وهو يُحاول تقدير الموقف للوصول إلى قرار سليم، بينما توقَّف العازف الغريب أمام لوحة «صعود سانت أورسولا» للرسام كلود لورين، وعلى الفور بدأ في عزف حزين لمقطوعة «المغادرة إلى سوريا». كانت سخرية الموقف أكبرَ مما يُمكن لفيتلوورث احتمالُه، ولم يستطع استجماع قدرته على الاعتراض مجددًا إلا بعد أن شارفت المقطوعةُ على النهاية؛ وبينما تحرك العازف الغريب مبتعدًا عن اللوحة، أبلغه فيتلوورث اعتراضَه المهذب وحثَّه على التوقف. عاود العازف النظر إلى فيتلوورث بتأنيب مندهش، وراح يحثُّه مجددًا على مراعاة الصلة الوثيقة بين الأنواع المختلفة للجمال، مستشهدًا بعروض الآنسة مود آلن كمثال مألوف وشهير، وبينما أخذ فيتلوورث يقدح زِناد فكره لإيجاد ردٍّ مناسب، توقف العازف أمام بورتريه إليسا بونابرت للرسام جاك لويس ديفيد، وحدَّق فيها بنظرة نارية، ثم انطلق يعزف مقطوعة «مرسيليا».

أحس فيتلوورث بأنه قد أُصيبَ بهيستيريا مع تزايد هتافات الطلاب وجلجلة اللحن العدائي المثير عبر المبنى. ولم يَعُد الاعتراض مجديًا؛ إذ واجهه العازف بالعبوس والنظرات

الغاضبة التي تُطالب المعترِضَ بالصمت. وراح الموظفون المذهولون يُشاهدون الموقف عن بُعد بنظرات منزعجة؛ بينما أخذت أعداد الجمهور في التزايد من لحظة لأخرى. وبعد تقدير مختصر للوحة «الأم السعيدة» للرسام فراجونارد (مع لحن «العذراء في المهد»)، انتقل للمعرض الهولندي، وتوقف أمام لوحة فان أوستاد، ليعزف مقطوعة «الكلب الصغير للرجل الهولندي»، التي أشعلت الأجواءَ في المكان ووضعَت نهاية بشكل عارض للعزف. إذ عند هذه اللحظة، ومن حسن حظ فيتلوورث الذي شعر بارتياح كبير، جاءت سيدة عجوز منفعلة كانت تنسخ إحدى لوحات رمبرانت، وطالبت بالهدوء لأنها لا تستطيع العمل وسط هذا الضجيج المنفِّر. فانتهز فيتلوورث الفرصة ليُوضح للعازف أن المعارض في الوقت الحاضر تمتلئ بالناسخين الذين يُمثل لهم عزفه، رغم أنه قد يكون مبهجًا في مناسبة ملائمة أخرى، مجردَ إلهاء وإعاقة في اللحظة الحاليَّة.

استدار العازف الغريب ورفع قبعته المستدقَّة؛ ثم انحنى للسيدة العجوز وقال: «هذا أمر مختلف تمامًا. إذا كان وجودي يُمثل مصدر إزعاج، فلا يسَعني إلا أن أنصرف متمنيًا لك صباحًا سعيدًا جدًّا.»

وأتبعَ جملته بانحناءة أخرى، مع حركة أنيقة بقبعته، ثم استدار، وضبط قطعة الفم في آلته الموسيقية وابتعد بخفة نحو بهو المدخل، وهو يعزف مقطوعة «الفتاة التي تركتها ورائي».

مر وقت ليس بالقصير قبل أن تستقر المعارض مرة أخرى. بينما اجتمع الطلاب في مجموعات، وناقشوا بشغف أمر العازف الغريب الرائع، وأُمطِر فيتلوورث، وهو ينتقل من مجموعة إلى أخرى، بسيل من الأسئلة لا حصر له. وكان وقت الغَداء قد اقترب عندما وجد نفسه مرة أخرى بجوار الغرفة المعزولة حيث يجري العمل على نسخ البورتريه، وقد لاحظ، أثناء مروره عبر الممر، أن رسَّام الألوان المائية قد غادر بالفعل. ثم وجد السيد ددلي يُحدق بسخط من خلال نظارته الكبيرة في الصورة الموجودة على حامله، وأظهرت له نظرة واحدة عليها أن هناك سببًا وجيهًا للاستياء.

«ما رأيك فيها؟» سأله الرسام وهو ينظر بعين الشك.

مطَّ فيتلوورث شفتَيه قائلًا: «للأسف، أنت لم تُحسِنها. لقد أصبحت درجة اللون أعلى بالتأكيد ولكن التشابه قد تأثر، وتبدو اللوحة برُمَّتها رديئةً ومرقَّعة.»

حدَّق ددلي عابسًا في اللوحة وأومأ برأسه قائلًا: «للأسف أنت على حق، لقد أتلفتها؛ هذه هي الحقيقة الواضحة.»

وافقه فيتلوورث الرأيَ قائلًا: «من المؤكَّد أنك لم تُحسنها، وإن جاز لي أن أُقدِّم النصح، فإنني أرى أن تُزيل الألوان التي وضعتها على اللوحة هذا الصباح، وتعتبر أنها قد اكتملت».

نهض الرسام وتفحَّص عمله بعصبية وهو يقول: «أنت محق تمامًا، وسأتبع نصيحتك.» ثم أغلق لوح الألوان الخاص به وبدأ بسرعة في حزم مواده، بينما وقف فيتلوورث وهو يُحدق بأسفٍ في اللوحة التالفة. وبعد أن انتهى ددلي من تعبئة صندوقه وحافظة الفرش، شرع في تأمين اللوحة، التي أُعِدت بدقة شديدة لنقل آمن، حيث ثُبتت بواسطة ماسكات في قاع صندوق مُعَد لحفظ اللوحات، بينما يعمل غطاؤه المنزلق على حماية السطح الرطب للوحة.

فسأله فيتلوورث: «هل ستأخذها معك؟» بينما واصل الرسام وضع الغطاء في المجرى المخصَّص وثبَّت أحزمة الحمل.

ثم رد قائلًا: «نعم، سآخذها إلى المنزل ولن أعبث بها مرة أخرى بعد أن أُنظف هذه الفوضى.»

وبعد أن أغلق حاملَ اللوحات وحَزَمه، التقط صندوق ألوانه الثقيلَ، وحافظةَ الفرش وحقيبة جلدية أخرى، فعرض عليه فيتلوورث، الذي رآه مثقَلًا بحقائبه، أن يحمل الصندوق الذي يحتوي على اللوحة؛ وهكذا سارا معًا إلى بهو المدخل، حيث سلَّم فيتلوورث الصندوق إلى صاحبه، متمنيًا له التوفيق في جهوده لمحو الآثار المؤسفة للتعديلات التي قام بها في الصباح.

وفي اليوم التالي؛ حين قاربت الساعة الحادية عشرة قبل الظهر، وقف فيتلوورث بجوار حامل اللوحات الخاص بالآنسة كاثرين هايد لإجراء محادثة خاصة لبضع دقائق. وهو لم يسمح لنفسه في كثير من الأحيان بهذه الرفاهية؛ لأنه اتفق معها على أنه من الأفضل أن تظل علاقتهما داخل المبنى في إطار مهني. لكن كل قاعدة لها استثناءات، وإلى جانب ذلك، بما أن كاثرين لم تكن حاضرة في الصباح السابق، فقد رأى أنه يجب إخبارها عن عازف الموسيقى الغريب. كان فيتلوورث وسط سردٍ مفعَم بالحيوية للحادث، عندما اقترب منهما أحد الموظَّفين بينما تعلو وجهه سيماءُ الغموض.

قال الموظف: «عذرًا سيدي، لكن شخصًا يُدعى السيد ددلي قد حضر ليستكمل العمل على لوحته، لكننا لم نستطع العثور عليها.»

قطَّب فيتلوورث جبينه وهو يُغمغم: «ددلي، ددلي؛ أليس هو ذلك الـ... نعم، بالطبع.» وفي تلك اللحظة دخل في أعقاب الموظف شخصٌ أحمرُ الشعر يرتدي نظاراتٍ كبيرة، فقال

له فيتلوورث: «هل كنت تسأل عن لوحتك، يا سيد ددلي؟» فأجاب الرسام بأنه فعل. ضحك فيتلوورث وهو يقول: «لكن يا سيدي العزيز، أنت أخذتها معك صباح أمس.»

حدَّق الرسام فيه بدهشة قائلًا: «أنا لم أكن هنا صباح أمس.»

حدق فيه فيتلوورث في ذهول صامت لبضع لحظات. ثم صاحَ بنفادِ صبر:

«أوه، هذا غير معقول يا سيد ددلي؛ لا يُمكن أن تكون قد نسيت، لقد كنت تعمل في اللوحة طوال الصباح، وساعدتك بنفسي على حملها إلى بهو المدخل.»

هز الرسام رأسه نافيًا وهو يقول: «لقد كنت أعمل طوال يوم أمس في معرض اللوحات الوطني. لا بد أنك قد ساعدت شخصًا آخر في إخراج لوحتي.»

انتفض فيتلوورث وهو يشعر برجفة ذعر مبهَم. كان مظهر الرسام مميزًا لدرجة أنه لا يُمكن لفيتلوورث أن يُخطئ في تمييزه. ومع ذلك انتابَه شعورٌ غير مريح بأن هذا لم يكن الرجلَ نفسَه. إن لديه نفسَ الشعر الطويل الأحمر ونفس النظارات الضخمة، لكن الوجه لم يكن تمامًا مثل وجه الرجل الذي تحدث إليه أمس، وبدا الصوت والأسلوب مختلفَين بشكل ملحوظ. ومرة أخرى، خيم رعب مبهم وبارد على قلبه.

لكنه قال: «هل نذهب لفحص سجل الحضور؟» فوافق الرسام متحمِّسًا وذهبا مسرعَين.

قال فيتلوورث واضعًا إصبعه على الصفحة التي سجلت حضور أمس: «إن اسمك هو جيلدفورد ددلي، حسبما أذكر.»

أجاب ددلي: «نعم، لكن هذا ليس خطَّ يدي.»

راح فيتلوورث يُفكر بعمق وهو في حالة تقترب من الذعر.

ثم قال: «للأسف هناك شيء خاطئ؛ لكن من الأفضل أن نذهب إلى معرض اللوحات ونتحقَّق من أقوالك.»

أسرعا معًا وسارا حول ميدان ساحة سانت مارتن، ودخلا معرض اللوحات، حيث أثبت تحقيقٌ قصير جدًّا أن السيد ددلي كان موجودًا فيه طوال اليوم السابق.

غرق فيتلوورث في عرق بارد. من الواضح إذن أنه قد وقعَت عمليةُ احتيال؛ وهو احتيالٌ مدروس للغاية؛ إذ من بين أمور أخرى، من المؤكد أن بطاقة الحضور قد زُوِّرَت. ولكن ماذا عساه يكون الهدف من وراء هذا الاحتيال؟ إن الحصول على نسخة، مهما كانت جودتها، أمر لا يستحقُّ مثل هذه الخطط المحكَمة والمدروسة بعناية. نظر فيتلوورث والرسام بعضهما إلى بعض، وبنفس الشك الرهيب في عقلَيهما خرجا من معرض اللوحات معًا وذهبا مسرعَين لتحري الأمر.

عندما دخل فيتلوورث الغرفة الصغيرة المعزولة التي كانددلي المزيف يعمل داخلها في اليوم السابق، استردَّ أنفاسه وشعر بارتياح. لأنه على الأقل، كانت اللوحة الأصلية موجودةً هناك ومعلَّقة في إطارها بأمان. لكن ارتياحه لم يَدُم طويلًا؛ لأن ددلي، الذي تبعه عن كثب، سار نحو اللوحة، وبعد نظرة متفحصة سريعة، التفت إليه مندهشًا وهو يقول:

«إن هذه هي نسختي، وليست اللوحة الأصلية.»

شعر فيتلوورث بكل رعبه يُهاجمه من جديد، ومع ذلك بدا هذا الأمر الفظيع مستحيلًا.

فصاح قائلًا: «كيف يُمكن أن يحدث هذا؟ إن قماش اللوحة لم يُصَب بأذًى، والإطار مثبَّت بمساميرَ على الحائط.»

أجاب ددلي: «لا أعرف شيئًا عن ذلك؛ كل ما أعرفه هو أن هذه هي نسختي.»

أخذ فيتلوورث يُحدق بنظرة متحيرة من خلال الزجاج، وبينما هو يتفحص اللوحة عن قرب أكثر، شعر بشك متزايد وأن الرسام على حق. لقد قُلِّدت عملية التلوين وقُلِّد سطح اللوحة الأصلية بدقة ومهارة شديدتَين، ولكن مهلًا … وهنا التفت فيتلوورث بحدَّة إلى أحد الموظفين، الذي كان قد تبعهم إلى الغرفة.

ثم قال له: «اذهب وأحضر مفك المسامير، واجلب رجلًا آخر معك.»

ذهب الموظف مسرعًا، ثم عاد على الفور برفقة عامل يحمل مفكَّ المسامير. كان إطار الصورة، على عكس بعض الأطر الأخرى في المعرض، مزودًا بشرائحَ نُحاسية مثبتة بمسامير على قواعد خشبية قوية داخل الحائط. وبتوجيهٍ من فيتلوورث، شرع العامل في فك إحدى الشرائح بينما أمسك مساعدُه إطار اللوحة. راقب فيتلوورث بصبرٍ نافدٍ مِفكَّ المسامير وهو يدور حوالي اثنتَي عشرةَ دورة، إلى أن توقف الرجل، ونظر إليه وهو يقول: «هناك شيء غريب في هذا المسمار يا سيدي.»

فقال فيتلوورث: «يبدو أنه يلف على نحو جيد.»

قال الرجل: «نعم يلف على نحو جيد، لكنه لا يخرج من مكانه. فلنُجرب مسمارًا آخر.»

وقد فعل ذلك بالفعل، لكن المسمار الثانيَ لم يخرج من مكانه أيضًا. ثم حدث شيء مثير للدهشة. إذ عندما تراجع العامل إلى الوراء لتوجيه نظرة متحيرة إلى الشرائح، لا بد أن مساعده قد سحب الإطار قليلًا، لأنه بدأ ينفصل بشكل واضح عن الحائط. أسقط العامل مفك المسامير وأمسك الإطار الذي، مع سَحبةٍ أخرى، انخلع عن الحائط، بينما المسامير الأربعة ما زالت في الشرائح، لكنها مفكوكة.

أطلق فيتلوورث صرخة يأس؛ إذ إن نظرة واحدة على الجزء الخلفي من قماش اللوحة الجديد تمامًا قطعت الشك باليقين وأكدت عملية السرقة، كما أوضحت نظرةٌ أخرى على المسامير نوع الأساليب التي استخدمها السارق. لكن بالنسبة لددلي، الذي لم يكن على علم بأحداث اليوم السابق، مثَّلَت القضية برُمَّتها لغزًا عميقًا.

حيث قال: «لا أفهم على الإطلاق كيف تمكَّنوا من ذلك، إلا إذا دخلوا في الليل.»

قال فيتلوورث: «سأُخبرك عن ذلك حالًا، ولكن هلَّا أقرضتنا نسختك في الوقت الحاليِّ لبضعة أيام لو سمحت، وسنُعيد تثبيت الإطار كما كان.» وأضاف مخاطبًا الموظفين: «إذا أمكن، أرجو ألا تنبسا ببِنْت شَفة عن هذا الأمر في الوقت الحالي.»

عندما وُضِعت اللوحة كما كانت من قبل وغادر الرجال الغرفة، قدَّم فيتلوورث للرسام سردًا موجزًا لأحداث اليوم السابق، حيث استمع إليه ددلي بعناية.

ثم قال: «لقد فهمت الخطة بشكل عام، لكن ما لم أفهمه هو كيف تمكَّن هذا الرجل من القيام بكل شيء في مثل هذا الوقت القصير، بينما يتنقل الناس في قاعات المعرض أيضًا.»

قال فيتلوورث: «أعتقد أن الخطة واضحة بما فيه الكفاية، انظر، إن التبادل الفعليَّ للوحات لا يحتاج إلا إلى أقلَّ من دقيقة. وقد أُعِدَّ كل شيء بعناية مسبقًا. من المؤكد أن اللصوص قد أتوا إلى هنا في الأيام السابقة حاملين المسامير المزيفة في جيوبهم، ومن السهل عليهم فكُّ مسمار واحد في كل مرة ودفعُ مسمار وهمي في مكانه. وبالنسبة لخلع قماش اللوحة من الإطار، يُمكن لرجلَين القيامُ بذلك بسهولة في غضون دقيقة أو دقيقتَين، بمجرد سحب المسامير المزيفة من مكانها، إذا كان هناك مراقبٌ تابع لهم يقف في الممر. كما أن عدد مَن يأتون إلى هذه الغرفة قليل نسبيًّا، كما تعلم.»

واعترض ددلي قائلًا: «لكن هذا سيحتاج إلى ثلاثة رجال على الأقل.»

أجاب فيتلوورث: «بالضبط، وأعتقد أنه كان هناك ثلاثة رجال؛ أحدهم هو عازف الأوبوا؛ ودوره في الخطة هو جذب الجميع بعيدًا عن مسرح الأحداث، ولا أشعر بأي شك في أن الرسام صاحب الألوان المائية هو فرد آخر منهم؛ فهو المراقب الذي جلس في الممر ليُتابع الموقف بينما أجرى الرجل الثالث عملية تبديل اللوحات.»

قال ددلي: «لقد فهمت، وبعد التبديل وضع بعض الألوان الزيتية على اللوحة الأصلية، وبسَط بعض الألوان، ثم وضع بعض اللمسات على الخطوط الرئيسية.»

أومأ فيتلوورث برأسه قائلًا: «نعم، هذا بالتأكيد ما قد فعله؛ وكان من السهل إلى حدٍّ ما لأن اللوحة في حالة جيدة ولم تكن هناك شقوق لتغطيتها».

قال ددلي متفقًا معه في الرأي: «نعم بالفعل، بالفعل. لكن، على الرغم من كل شيء، لا بد أن ذلك السارق هو رسام ماهر يُجيد التعامل مع الألوان والفرشاة.»

وافقه فيتلوورث قائلًا: «نعم بكل تأكيد، وهذا يُشير إلى سؤال مهم جدًّا: من الواضح أن هذا الرجل يعرفك جيدًا، كما ثبت من الدقة التي قلَّدك بها. وهو يعرف بالضبط ما كنت تفعله، وقبل وقت طويل؛ لأنها بالقطع خُطة معدة مسبقًا ومدروسة بعناية. علاوة على ذلك، فالمقلد هو رسام يتمتع ببعض المهارة، وهو يُشبهك إلى حد ما في هيئته. والآن، سيد ددلي، هل يُمكنك التفكيرُ في أي شخص يُمكن أن ينطبق عليه هذا الوصف؟»

فكَّر الرسام للحظة، فسأله فيتلوورث فجأة: «مَن الذي طلب منك نسخ هذه اللوحة؟»

أجاب ددلي: «هذه النسخة، والنسخة التي كنت أقوم بها في المعرض المجاور؛ طلبهما مني رجلٌ أمريكي، يُدعى ستراوس، يُقيم في فندق سافوي.»

فقال فيتلوورث: «صف لي السيد ستراوس.»

«إنه رجل طويل ونحيل، يُشبه إلى حدٍّ ما صور أبراهام لنكولن.»

غمغم فيتلوورث، وقد استدعى هيئة عازف الأوبوا في مخيلته، قائلًا: «آه، كيف تعرفت على السيد ستراوس؟»

«لقد قدَّم نفسه لي قبل شهر أو نحو ذلك، عندما كنت أقوم بالنسخ في لوكسمبورج.» ثم أضاف ددلي، مع وميض مفاجئ من الذكريات: «إنه هو من اقترح عليَّ استخدام ذلك الصندوق الممتاز لحماية اللوحات. كان لديه صندوق من أجل نسخة صنعتها في باريس، ثم قدم لي صندوقَين آخَرين لهاتَين النسختَين.»

فكر فيتلوورث بعمق. إن تفاصيل خطة هذا الاحتيال الذكي تزداد وضوحًا أكثرَ فأكثر. ومن الواضح أنه سيُصبح من الضروري إجراءُ تحريات حول السيد ستراوس، في غضون ذلك، يجب إبلاغ مدير المعرض بالكارثة؛ وهي مهمة رهيبة، لذا فمن أجل تنفيذها، استعد فيتلوورث بقلب منقبض وشكوك في أن أيامه في العمل أصبحت معدودة.

خيَّم جو غير معتاد من الاكتئاب في ذلك المساء على الشقة المتواضعة الخاصة بالآنسة كاثرين هايد؛ لأن فيتلوورث قد روى للتوِّ، بتفاصيلَ دقيقة، وصوتٍ جنائزي خفيض، التاريخَ المروع للسرقة.

وفي الختام، تمتم قائلًا: «إنها قضية شائنة. لقد استقبل المدير الأمر بشكل جيد للغاية، مع أخذ كل شيء في الاعتبار، ولكن، بالطبع، ينبغي أن أترك عملي.»

فسألته كاثرين: «هل طلب منك ذلك؟»

«لا، لكنك تعرفين نوع العواء الذي سيُثار عندما يُصبح الأمر معروفًا. سيكون الأمر مزعجًا بشدة بالنسبة إليه، وأقل ما يُمكنني فعله هو أن أتحمل اللوم الكامل، نظرًا لأنني قد حملت اللوحة للخارج بالفعل. ينبغي لي أن أُقدم استقالتي وينبغي له أن يقبلها. وما سأفعله بعد ذلك أو كيف سأكسب رزقي، ذلك يعلمه الله وحده.»

قالت كاثرين: «إنه أمر مروع بالنسبة إليك، مع كل مواهبك وإنجازاتك أيضًا.»

وافقها فيتلوورث قائلًا: «إنه أمر صعب، فقد بدا أن هناك فرصة لأن نُصبح قادرين على الزواج بعد كل هذه السنوات. لذا أفترض أنه ينبغي لي أن أحلَّكِ من الارتباط بي يا كاتي، الآن بعد أن أصبح مستقبلنا بلا أمل.»

سألته ببساطة: «لماذا؟ أنا لا أرغب في أي شخص غيرك، وأنت تعلم هذا؛ وبالنسبة إلى حريتي، حسنًا، أنا حرة في أن أُصبح عانسًا الآن إذا لم تتزوَّجني. لكننا لن نفقد الأمل. ربما يتم العثور على اللوحة في نهاية الأمر، وعندئذٍ لن تُضطَر إلى الاستقالة، هل هي لوحة قيمة للغاية؟»

قال فيتلوورث: «إن الأمر أسوأ من ذلك.» «إنها لوحة تمَّت استعارتها من مالِكيها، وهي لا تُقدَّر بثمن لديهم لأسباب عاطفية.»

بدَت كاثرين مهتمة، ولأنها حريصة على تشتيت انتباه حبيبها عن موضوع مصابهم الشخصي، فقد طلبت المزيد من التفاصيل.

قال فيتلوورث: «إن هذه اللوحة لها تاريخ مثير للاهتمام؛ حيث رسمها نيلر في عام ١٦٨٨، وقِصَّتُها هي أن الملك كان جالسًا بالفعل أمام الرسام؛ عندما وصله مرسال الحرب وأبلغه أن أمير أورانج قد هاجم تورباي. وكان الملك ينوي إهداء ذلك البورتريه لصديقه صامويل ببيس الذي يرتبط به بشدة، وعلى الرغم من التوتر الذي أحدثَته الأخبار السيئة، فقد أمر الملك أن يستأنف نيلر رسم البورتريه حتى لا يُخيب أمل صديقه القديم وخادمه المخلص.»

فسألته كاثرين: «وهل حصل ببيس على اللوحة؟»

«نعم، وما هو أكثر من ذلك، أنها لا تزال في حوزة الأسرة حتى يومِنا هذا، أو على الأقل، ظلت كذلك حتى سُرِقت. لذلك فإنه بصرف النظر عن قيمتها الجوهرية كلوحة، فهي ذات قيمة خاصة لدى العائلة. ليت هؤلاء الهمج قد سرَقوا أي لوحة أخرى في المعرض، حتى لو كانت لوحة مادونا لرافاييل.»

سألت كاثرين: «أليس هناك أي دليل على الإطلاق يُرشدنا إلى هُوية اللص؟»

أجابها فيتلوورث: «كان هناك دليل واحد، لكنه لم يَعُد مجديًا؛ وهو رجل أمريكي، يُدعى ستراوس، هو من طلب نسخ اللوحة. وقد بحثنا عنه في فندق سافوي، لكنه اختفى، ولا أحد يعرف من أين أتى أو إلى أين ذهب. وهو بلا شك أحد اللصوص، لكن يبدو أنه قد تلاشى في الهواء.»

قالت كاثرين: «أوه، حسنًا، أُؤكد لك أن الشرطة ستقبض عليه قريبًا، وأنه بالتأكيد يحرص على العناية باللوحة.» وبهذه النبوءة المفعمة بالأمل أنهيَا النقاش في الموضوع، رغم أن اللوحة المفقودة ظلت عالقة في ذهنَيهما كخلفية قاتمة لكل الأفكار الأخرى.

بينما كان فيتلوورث في طريقه إلى المعرض في صباح اليوم التالي، أخذ فيتلوورث يُفكر، للمرة المائة، في الإجراء الأكثرِ حكمةً الذي يُمكنه اتخاذُه. هل يجب أن يكتب خطابًا رسميًّا ليُقدم من خلاله استقالته، أم يتخذ إجراءً أقل حدة وغير نهائي بتقديم الاستقالة شفهيًّا؟ لم يكن قد حسم أمره بعد عندما دخل عبر البوابة وبدأ يصعد السلم؛ لكنه توصل إلى قرار عندما وصل إلى درجة السلم الثالثة من الأعلى، في نفس اللحظة التي اصطدم فيها مع أحد السعاة الذي كان يصعد السلم أيضًا وهو يحمل طردًا من الورق ذا لون بني. لقد قرر أن يستقيل، في المقام الأول، وعلى أي حال، استقالة شفهية ويرى كيف سيكون رد الفعل.

وبعد أن اتخذ هذا القرار، شرع دون مزيد من التأخير في تنفيذه.

وعلى ما يبدو أن المدير قد ناقش الأمر باستفاضة مع أمين المعرض، وقد توقعا هذا التصرف. إذ قال الأول: «حسنًا يا فيتلوورث، إن القرار ليس لي وحدي. لو أنه كان كذلك، كنت سأقول … من أرسل هذا يا جينكينز؟» وجه السؤال إلى موظف أحضر للتو طردًا من الورق ذا لون بني، موجهًا بالاسم إلى المدير.

كان الرد: «لا أعرف، يا سيدي السير جون.» واستأنف قائلًا: «لقد أحضره أحد السعاة. وقال إنه أيضًا لا يعرف؛ ثم انصرف.»

أومأ المدير برأسه، وعندما خرج الرجل فحص الطرد بدقة وكذلك ملصق العنوان المكتوب على الآلة الكاتبة. وتابع كلامه: «إن القرار ليس لي وحدي، فيجب أن أقول … الآن، إني أتعجب؛ ماذا يحوي هذا الطرد؟» ثم قلب الطرد المستطيل المسطح، مرارًا وتَكرارًا، وأخيرًا، التقط سكين المكتب، وقطع به خيط الطرد. وهو يُكرر كلامه: «فيجب أن أقول، إذا كان القرار قراري أنا وحدي، وهو بالطبع ليس كذلك، فإنني أقول … إنه صندوق. أنا

لم أطلب أي صندوق. إنني أتعجب ما هو.» وهنا جذب الورقة وفتح الصندوق؛ فأطلق فيتلوورث صيحة اندهاش.

«ما هذا يا فيتلوورث؟» سأله السير جون؛ لكن فيتلوورث لم يردَّ عليه، وانحنى عبر الطاولة، وسحب الغطاء المنزلق للصندوق بسرعة. ثم ساد صمت مطبق ذاهل على الغرفة؛ إذ أطلت من الصندوق ملامحُ جيمس الثاني المألوفة.

صاح السير جون: «حسنًا، إن هذه هي القضية الأكثر إثارة للدهشة على الإطلاق.» ثم أضاف بشك، وهو يفك مشابك اللوحة ويرفعها خارج الصندوق: «أعتقد أنها سليمة تمامًا. إنهم محتالون بارعون بشكل غير مألوف؛ ومع ذلك، أعتقد أنه ليس هناك شك في أن هذه هي اللوحة الأصلية. لكنني أتعجب لماذا أعادوها، بعد أن بذلوا كل هذا العناء لسرقتها؟»

أخذ الرجال الثلاثة يفحصون قماش اللوحة بتمعن بحثًا عن أي علامة تغيير أو استبدال. لكن لم يكن هناك شيء؛ إذ لم يتأثر سطح اللوحة مطلقًا بسبب ما حدث لها من تغييرات مؤخرًا.

وعلَّق السيد برنارد قائلًا: «يبدو أنهم تعاملوا مع اللوحة بعناية، لا يُمكن لأحد أن يُلاحظ مطلقًا أنها قد طُلِيَت بطلاء جديد ثم أُزيل الطلاء مرة أخرى.»

وافقه السير جون قائلًا: «لا، لم يترك الطلاء أي أثر. لا بد أنهم استخدموا زيتًا يجف ببطء وأزالوه على الفور. ولكن ...» استدرك الرجل وهو يقلب اللوحة، «لقد نزعوا قماش اللوحة عن الإطار الخشبي. هل تُلاحظون؟» ثم أمسك باللوحة تجاه الشخصَين الآخَرَين اللذَين تفحَّصاها عن قرب.

قال فيتلوورث، بعد أن تفحص جوانب قماش اللوحة: «يبدو لي، يا سير جون، أنه قد نُزِع من جانب واحد فقط. فالمسامير في الجانب العلوي والجانبَين الأيمن والأيسر لم تُنتزَع.»

نظر المدير إلى اللوحة مرة أخرى ثم قال: «أنت محقٌّ تمامًا يا فيتلوورث، لقد نُزِع قماش اللوحة من الإطار الخشبي عند الجانب السفلي فقط؛ وما هو أكثر من ذلك، أنهم قد نزعوا الضِّلَع السفليَّة من الإطار الخشبي واستبدلوا بها ضلعًا خشبية أخرى. هل ترى هذا؟ إن القطعة المستبدلة هي من الخشب القديم، ولكنها مختلفة عن الثلاثة الآخرين، ويُمكنك أن تُميز بوضوح السطح الجديد الذي نتج عن قطع الحواف. إنه شيء مذهل للغاية. ماذا تستنتج من هذا يا برنارد؟»

لم يستطع السيد برنارد أن يستنتج شيئًا وقد قال ذلك. ثم أضاف: «إن الأمر برُمته هو لغز تام بالنسبة إليَّ؛ ولكن ربما يكونون قد أتلَفوا ضِلَع الإطار القديمةَ واضطُروا إلى استبدالها، لكنني لا أفهم سبب رغبتهم في فك قماش اللوحة من الأساس.»

قال السير جون: «ولا أنا كذلك، لكن الشيء المهم هو أننا استعَدْنا اللوحة دون أن تتلف، ونظرًا لذلك، فربما ترغب في إعادة النظر في استقالتك يا فيتلوورث.»

أجاب الأخير: «لا أعتقد أنني سأفعل، يا سيدي السير جون؛ فالقضية معروفة للعديد من الناس ولا بد أن يكون هناك نوعٌ من التحقيق.»

رد عليه المدير قائلًا: «ربما أنت على حق، على أي حال، سوف نعرض الأمر على مجلس الأمناء وننتظر قراره. بالطبع، إن القرار ليس لي وحدي؛ لذا، في الوقت الحالي، يجب أن أقبل استقالتك.»

الجزء الثاني

ربما كان من حسن الحظ أن يوم السبت هو يوم مخصص للجمهور في معظم المعارض، وبالتالي فهو يوم عطلة لناسخي اللوحات؛ وعلى أي حال لم يكن هناك عمل في هذا الصباح الكارثي للآنسة كاثرين. وفي غضون بضع دقائق من وصول فيتلوورث إلى المعرض، كانت تقف بانتظاره أسفل عمود نيلسون كي يُخبرها بالتقرير الذي وعدها به حول مسار الأحداث. وبعد مغادرته غرفة المدير، توجَّه مباشرة إلى مكان لقاء محبوبته، حيث استقبلَته بابتسامة مشرقة ويدٍ صغيرة ممدودة، ثم توجَّها معًا نحو قاعة وايتهول.

فسألته كاثرين: «حسنًا، ماذا حدث؟»

أجاب فيتلوورث: «لقد عرضت الاستقالة.»

قالت: «وبالطبع رفض السير جون الفكرة؟»

فصاح قائلًا: «أوه، أتمزحين؟ لم يفعل على الإطلاق. لكنه قال لو أن القرار كان قراره وحده، كان سوف …»

«ماذا؟»

«لا أعرف على وجه التحديد، لكن الخبر الجيد هو أن اللوحة قد عادت.»

صاحت كاثرين: «أوه، خبر عظيم! لكن إن كانت قد عادت، فلِمَ بحق السماء ينبغي أن تستقيل؟»

«ستفهمين إذا أخبرتك كيف عادت.» وهنا وصف لها فيتلوورث العودة الغامضة للوحة والأمر الأكثر غموضًا وهو استبدال ضِلَع الإطار الخشبي.

قالت كاثرين بإصرار: «لكنني ما زلت لا أفهم سببَ استقالتك.»

قال فيتلوورث: «إذن، سأشرح لك. عليك أن تُدركي أن كل ما يُهم السير جون وبرنارد هو اللوحة، كمجرد لوحة، ومن وجهة النظر هذه، فإن ضلع الإطار الخشبي هي مجرد ضلع إطار خشبي ولا شيء آخر. لكن هناك نقطة واحدة قد غفلا عنها؛ على الأقل، هذا ما أظنه. هذه اللوحة ليست مجردَ لوحة: إنها تراث عائلة عريقة.»

سألَت كاثرين: «ولكن ما علاقة ذلك بالأمر؟»

«إن أفضل إجابة على هذا السؤال، يا حبيبتي، هو سؤال آخر. ماذا أراد هؤلاء الرجال من ضلع الإطار الخشبي القديمة؟»

«حسنًا، ماذا أرادوا؟»

أجاب فيتلوورث: «لا أعرف، ولكن بمجرد أن رأيت تلك الضلعَ وقد استُبدِلت، أدركت أن هناك سرًّا خفيًّا وراء هذه السرقة. تأملي في الحقائق يا كاتي. أولًا ستُدركين أن هؤلاء الرجال ليسوا لصوصًا عاديين، لأنهم لم يُعيدوا اللوحة فحسب، ولكن من الواضح أنهم حرَصوا بشدة على عدم إلحاق الضرر بها؛ وهذا ليس تصرفَ لصٍّ عادي، لا يأبهُ مطلقًا لمدى الضرر الذي يتسبب فيه. ثانيًا، ستُلاحظين أن هؤلاء الرجال أرادوا، تحديدًا، الضلعَ السفلية من الإطار الخشبي لقماش اللوحة، وقد أرادوه بشدة لدرجة أنهم كانوا على استعداد للوقوع في مشكلة كبيرة للحصول عليه مهما كلَّفهم الأمر. بعد ذلك، ستُدركين أنهم رجال يتمتعون بذكاء فائق للغاية. واحد منهم رسام ماهر، والآخر موسيقي خبير، وواحد منهم، على الأقل، هو شخص يتمتع ببراعة كبيرة. والآن، فكِّري في اللوحة نفسِها. لقد رُسِمَت للملك عندما بدأت الثورة بالفعل وكان من المقرَّر أن يتم تسليمها إلى عهدة رجل هو الصديق المخلص للملك، رجل ذي ولاء مطلق وحكم وحكمة صائبة، رجل خبير بأمور الحياة، ومن المؤكد أنه لن يتم توريطه في أيٍّ من المشاكل التي تحملها الأيام القادمة. ماذا يكشف لك هذا؟»

فأجابت مع هزة بسيطة لرأسها: «لا يكشف لي أي شيء؛ فماذا يكشف لك أنت؟»

أجاب قائلًا: «حسنًا، ستتفقين معي على أنه بالنسبة إلى قطعة صغيرة وثمينة، فإن ضلع إطار اللوحة القيمة ستُوفِّر مكانًا مثاليًّا للإخفاء؛ ومع رؤية أن ثلاثة رجال من الواضح أنهم ليسوا حمقى قد واجهوا مشاكل هائلة للحصول على هذه الضِّلع، فأنا أميل إلى افتراض أنها قد استُخدِمت لهذا الغرض.»

صاحت كاثرين: «حقًّا يا جو! يا لها من فكرة خيالية مبهجة! إنك تتبع نهجًا ميكيافيليًّا للغاية لتُفكر في ذلك! هلَّا نذهب إلى المتنزه لفترة قصيرة!»

وافق فيتلوورث، ونظرًا لأنهما قد وصلا الآن إلى بوابات هورس جاردز، مرُّوا عبرها، بينما يُراقبهم خفية الحارسُ المبهرج، الذي وقف، مثل طير استوائي رائع، ليحرس المدخل الذي يُشبه النفق. سار العاشقان بهدوء عبر الساحة الكبيرة المغطَّاة بالحصى، وبمجرد مرورهما عبر البوابة الصغيرة إلى داخل المتنزَّه، عاودا النقاش مرة أخرى. حيث كانت كاثرين هي التي تحدَّثَت أولًا: «هل لديك أي تخمين حول ما كان مخفيًّا في داخل ضلع الإطار؟»

أجاب فيتلوورث: «لا، ليس لديَّ، ولن يُجديَ التخمين نفعًا. ولكن أعتقد أن الأمر واضح للغاية: لا بد أن هؤلاء الرجال لديهم بعض المعلومات المؤكدة تمامًا، وبما أنهم لم يتمكَّنوا من الحصول عليها من اللوحة، فلا بد أنهم حصلوا عليها من مكان آخر؛ والسؤال هو من أين حصَلوا عليها؟»

سألته كاثرين: «هل من الممكن أن أحدًا قد أخبرهم؟»

«لا، بالتأكيد لا؛ لأنه إذا كان أي شخص قد عرَف مكان الإخفاء، لكان الشيء المخفي قد أُخِذ منذ فترة طويلة. يبدو أن الاستنتاج الوحيد الممكن هو أنه يوجد دليل مكتوب ليُرشِد عن مكان الإخفاء، ولكن لم يُعثَر عليه حتى الآن.»

قالت كاثرين: «فهمت، أنت تقصد أنه موجود وسط بعض أوراق العائلة القديمة.»

قال فيتلوورث: «من المحتمل، لكنني لا أعتقد ذلك. أتعلمين، أيًّا كان مكان وجود الدليل، فقد تمكن هؤلاء الرجال من الحصول على معلومةٍ ما تُوصلهم إليه. والآن، أظن أنهم ليسوا أفرادًا من العائلة، لأنهم لو كانوا كذلك، لأمكنهم الحصول على ضلع الإطار عندما كانت اللوحة موجودة في المجموعة الخاصة بدلًا من الانتظار حتى تُعرَض في معرض عام. لذلك يبدو أن الدليل الذي شاهدوه، يوجد في مكان ما يُمكن للجمهور الوصول إليه. وإذا كان في متناول الجمهور، عجبًا، أتعلمين، يا كاتي العزيزة، فإنه بالتأكيد يُمكننا نحن أيضًا أن نصل إليه.»

وافقته كاثرين قائلة: «نعم، أفترض ذلك بالتأكيد؛ لو أننا فقط استطعنا معرفة المكان الذي نبحث فيه عنه. ولكن ربما فكر حبيبي جوزيف فيتلوورث الميكافيلي في ذلك، أيضًا.»

أجاب فيتلوورث: «لم يكن لديَّ الكثيرُ من الوقت للتفكير في ذلك على الإطلاق، ولكن هناك مكان واحد محتمل يخطر ببالي، وربما هو الأكثر احتمالية: إنه كلِّيتي القديمة.»

«في كامبريدج؟»

«نعم، كلية ماجدالين. إنها نفس الكلية التي تخرج فيها ببيس، أتعلمين، لقد أوصى بأن تُوهَب مكتبته الخاصة بعد وفاته لتُوضَع في الكلية؛ التي تضم ليس فقط يومياته الشهيرة، ولكن عددًا كبيرًا من المذكرات المكتوبة بخط يده حول الشئون البحرية والسياسية، وكذلك المطبوعات ومجموعات من اللوحات القديمة. ومن المحتمل جدًّا أن يكون الدليل أو الوثيقة التي نفترض وجودها من بين الأوراق الموجودة في مكتبة ببيس؛ ولكن إذا كان الأمر كذلك، فهناك عقبة واحدة صغيرة يجب التغلب عليها.»

«وما هي؟»

«عجبًا، ألا تتذكرين أن صامويل ببيس ذلك الرجل الحكيم والمتكتم كانت لديه طريقة لكتابة مذكراته الخاصة بنظام الترميز، والتي من الواضح أنه استخدمها من أجل الأمن أكثر من الإيجاز؛ ولما كان الأمر كذلك، فقد نكون متأكدين تمامًا من أن وثيقتنا الافتراضية مكتوبة بنظام الترميز، أيضًا. وهذه عقبة جدية، على الرغم من أنني أتخيل أن النظام الذي استخدمه لم يكن معقدًا للغاية. لذا يتحتم عليَّ أن أدرس نظام ريتش للترميز.»

صفَّقت كاثرين بيدَيها وهي تصيح: «نظام ريتش! إنه أمر مفرح! هل نسيت أنني خبيرة في نظام ريتش للترميز؟»

قال فيتلوورث: «لم أكن أعرف ذلك مطلقًا.»

«أوه، لكنني متأكدة من أنني أخبرتك. عندما كنت أعمل على نسخ الرسومات والمخطوطات المكتوبة بخط اليد في المتحف البريطاني، حصلت على مهمة لعمل نسخة طبق الأصل من مجلد مكتوب بنظام ريتش للترميز. وبالطبع، كان من الضروري أن أتعلم ذلك النظام وإلا فسأُخطئ في تفسير الحروف، لذلك تعلمت ذلك من كتيب قديم، وبحلول الوقت الذي أنجزت فيه مهمتي أصبحت ماهرة إلى حد ما. أتعلم، إنه حقًّا بسيط للغاية مقارنة بالأنظمة الحديثة مثل نظام بيتمان.»

نظر فيتلوورث إلى كاثرين بدهشة تمتزج بالإعجاب وهو يقول: «يا لك من سيدة صغيرة ذكية! لقد جاءت مهارتك في وقت مناسب أيضًا! هل تعتقدين أن الأمر سيستغرق وقتًا طويلًا كي تُعلميني؟»

فسألته: «ماذا تنوي أن تفعل؟»

«أنوي الذَّهاب إلى كلية ماجدالين، والاطلاع على جميع وثائق ببيس الخاصة بفترة الثورة، مع الانتباه بشكل خاص لأي وثيقة مكتوبة بنظام الترميز. ليس من المحتمل أن

يكون هناك الكثير منها، إذ إن ببيس العجوز المسكين قد عانى من ضعف البصر، لدرجة أنه اضطُرَّ إلى التخلي عن الاحتفاظ بمذكرات مكتوبة بنظام الترميز بعد عام ١٦٧٠.»

أخذت كاثرين تُفكر بجدية، وعندما جلسا على مقعد فارغ في مسار منعزل داخل الحديقة، لفت يدها حول ذراعه بطريقة تنم عن الاقتناع والإطراء.

«إن لديَّ اقتراحًا جريئًا بعض الشيء، يا جو. أنت بالطبع يُمكنك تعلمُ نظام ريتش للترميز دون أي صعوبة. ولكن الأمر سيستغرق بعض الوقت وقدرًا كبيرًا من التعب، في حين أنني أُتقنه بالفعل ولديَّ خبرة كبيرة في نسخ الأحرف وقراءتها. إذن، لماذا لا تأخذني معك إلى كامبريدج وتسمح لي بفك ترميز الأوراق ذات الرموز؟»

كان فيتلوورث يتفحص طرَف حذائه باهتمام، وهو يسترجع في ذهنه الصفات الغريبة لأنثى أسطورية تحمل اسم جراندي؛ بينما راحت كاثرين، وهي تسترقُ نظرة حذرة إليه، تفك رموز ملامحه التي هي أسهل من نظام ريتش.

فقالت كاثرين مقترَحًا لفك الترميز: «ماجي فليندرز ستُساعدني، أنا واثقة. إنها تشغل وظيفة جيدة في نيونهام، ونحن أصدقاء قدامى.»

صفا وجه فيتلوورث، ثم قال: «إن هذا يُخلصنا من عقبة واحدة، أما العقبة الأخرى فيجب أن أتغلب عليها بأفضل ما أستطيع.»

قالت كاثرين: «هل تقصد التكلفة التي يتطلبها التحقيق؟»

«نعم. أتعلمين، ليس لديَّ أدنى شك في أن شيئًا ذا قيمة كبيرة قد سُرِق، وسُرِق بسبب حماقتي، وإذا كان من الممكن استردادُ هذا الشيء، فإن واجبي هو استعادته حتى لو أنفقت من أجل ذلك آخِرَ نصف بنس أملكه.»

قالت كاثرين: «نعم، أنا أتفق معك تمامًا، باستثناء أمر حماقتك، فهو أمر غير صحيح؛ لأن المدير نفسه كان سينخدع بالطبع إذا كان في مكانك. لذلك سأقترح عليك اقتراحًا آخر. فأنا حريصة على استرجاع هذا الشيء مثلما تحرص أنت؛ وفي واقع الأمر، أنا أعتبر أن نقودي هي نقودك. والآن، إن لديَّ مبلغًا صغيرًا من المال أدَّخره للطوارئ التي لا يبدو من المحتمل أن تحدث في الوقت الحالي، وأودُّ أن أستثمر بعضًا منه في مهمتنا المشتركة.»

لا داعي للقول إن فيتلوورث اعترض بشدة. كما أنه لا داعي للقول إن كاثرين قد رفضت اعتراضاته بشدة؛ لذا لم ينهضا من فوق المقعد، إلا بعد أن كانت قد أقنعته تمامًا. وكما قال الشاعر: «إن للرجل إرادتَه، لكن للمرأة أسلوبها.» وهكذا أصبحت الرحلة الاستكشافية المشتركة إلى كامبريدج أمرًا واقعًا مقبولًا.

الجزء الثالث

لم يستدعِ الأمر خدمات الآنسة فليندرز في النهاية؛ إذ إن صديقًا قديمًا لفيتلوورث، وهو مدرس وزميل في الكلية، تزوج واستقرَّ في كامبريدج، كان لديه سكن في منزله يتسع لرفيقَين مولَعَين بالدراسة بجدِّية، كما أنه كان على استعداد لتزويدهم بمكتب صغير لإجراء أبحاثهم فيه.

وهكذا، ومع استرضاء السيدة جراندي بشروط مفيدة للغاية، استقر الرفيقان المذكوران أعلاه بمسكنهما في منزل السيد آرثر وينتون، مدرس الفنون، وحصلا على إذن عميد الكلية، الذي منحه أمين المكتبة الخاصة بالسيد ببيس؛ وبدأ التحقيق الكبير.

وفى صباح يوم ثلاثاء، صحوٍ ومشمس، انطلق فيتلوورث في سعيه. حيث حمل معه، بالإضافة إلى دفتر ملاحظات صغير الحجم، كاميرا صغيرة ذات هيكل خشبي، استعارها من السيد وينتون، الذي كان مصوِّرًا خبيرًا وقد اقترح اقتراحًا ممتازًا بضرورة تصوير أي وثائق محتملة من أجل دراستها بهدوء في المنزل، والاحتفاظ بنُسَخ منها بشكل دائم للرجوع إليها لاحقًا. لذلك بدأ فيتلوورث بحثه حاملًا الكاميرا في يده والأمل في قلبه، متخيلًا نفسه وقد عثر بالفعل على ذلك الشيء (الذي يُفترَض أنه ثمين) ذي الطبيعة المجهولة والذي لم يكن أي شخص غيره يتوقَّع وجوده؛ وأعاده لمالكه الذي لا يعلم شيئًا عن الأمر. سيُصبح إنجازًا عظيمًا. وبذلك يستعيد نقوده بالكامل، ويُعاد تعيينه في منصبه غير المربح على الإطلاق.

كان أول تيار بارد يعصف بحماسه المتقد ناتجًا عن كم الوثائق الموضوعة تحت تصرفه؛ إذ كانت كمية هائلة. فبصرف النظر عن المطبوعات والرسومات والخرائط ومجموعات الشعر، التي لا يُمكن تجاهلُ أيٍّ منها تمامًا — لأنه حتى القصائد قد تحتوي على تلميح مخفي — كان هناك قدرٌ هائل من الأوراق المتنوعة، التي يجب فحصها قبل استبعاد أيٍّ منها. وبينما كان يُحدق في المجموعة بفزع متزايد، أدرك لأول مرة كم الغموض الرهيب الذي يُحيط بمسعاه. ما هي طبيعة ذاك الشيء الذي يبحث عنه في النهاية؟ إن السؤال نفسَه ينمُّ عن إجابة أشدَّ غموضًا. لم يكن لديه سوى نقطتَين ثابتتَين؛ الثورة والبورتريه الذي رسمه نيلر. كان يجهل تمامًا العلاقة بينهما، وبالتالي قد يفقد الدليل بسهولة حتى لو كان تحت عينَيه.

كانت المذكرات الشهيرة التي استبعدها، بعد نظرة موجزة تتسم بالفضول والإعجاب، بسبب أن آخر تدوين حزين فيها حدث في الثالث من مايو ١٦٦٩، أي قبل فترة طويلة

من الأيام العاصفة عندما تسبب العناد الكاثوليكي لدى جيمس في كارثة حتمية. كما يُمكن استبعاد الأوراق المؤرَّخة الأخرى أيضًا؛ ولكن عندما تم القيام بكل ما هو ممكن بهذه الطريقة، كانت الوثائق المتبقية للدراسة لا تزال مروعة في حجمها الضخم. استنفدَت عمليةُ الفحص المبدئي وقت اليوم الأول بالكامل، وكانت النتيجة الرئيسية لها هي الإحباط الشديد. تبع ذلك أسبوعان من العمل الشاق الدقيق، الذي تضمَّن دراسة دقيقة لعدد لا يُحصَى من الوثائق حول كل موضوع محتمَل، مع جهود غير مثمرة لاستخراج بعض المعلومات منها التي قد يكون لها صلةٌ باللوحة، حتى ولو بشكل غير مباشر.

واستمر يومًا بعد يوم في العودة إلى كاثرين بنفس التقرير المحبط عن الفشل التام. وعلى الرغم من أنها كانت ترفع من معنوياته بفعل أملها المشرق، إلا أنه مع استمرار البحث وتناقص رأس المال المشترك، تناقص معه تفاؤله. لقد كان مشروعًا أكبر مما خطط له؛ إذ تتطلب كمية الوثائق والإجراءات المصاحبة لفحص الآثار الثمينة وقتًا وجهدًا يتجاوز حساباته تمامًا. كما أن هناك عنصرًا محبطًا آخر، لم يقل عنه شيئًا لكاثرين في الوقت الحاضر. فمع مرور الأيام دون أي إشارة إلى أي دليل، بدأ شكٌّ رهيب يتسلل إلى ذهنه. افترض أن الأمر برُمَّته كان وهمًا! وأن استبدال ضلع الإطار الخشبي كان بسبب حادث عارض، وأنه كان يبحث عن شيء لا وجود له إلا في خياله. عندها سيذهب سُدًى كلُّ هذا البحث والوقت والمال المدخَر للطوارئ. كانت فكرة مروِّعة؛ وبينما أخذت تُهاجمه مرارًا وتكرارًا على فترات متكررة بشكل متزايد، غرق قلبه وأصبح المستقبل مظلمًا ويائسًا.

وفي اليوم الخامس عشر، اخترق أولُ شعاع خافت من الأمل كآبةَ يأسه المتزايد؛ إذ إنه في ذلك اليوم، وسط مجموعة من الأوراق غير المصنفة، اكتشف شيئًا يدعو على الأقل إلى الاستفسار. ويتألَّف الاكتشاف من ثلاث أوراق صغيرة، اقتُطِعت بشكل واضح من دفتر مذكرات صغير للجيب، حجم كلٍّ منها حوالي أربع بوصات في اثنتَين ونصف، وكلها مغطاة بكتابة ذات حروف صغيرة للغاية ذات طابع غريب وغير منسق، فأدرك فيتلوورث على الفور أنه نوع من الترميز. لم يكن هناك ما يُشير إلى التاريخ، وعند تقديم طلب استفسار إلى أمين المكتبة، أُبلِغ فيتلوورث أنه لا يوجد شيء معروف عن الأوراق الصغيرة باستثناء أنها تخص ببيس، ومن المؤكد أنها بخط يده. كما لم يتمَّ فكُّ ترميز النص الموجود عليها مطلقًا من قبل، على الرغم من قيام العديد من الأشخاص — وأحدهم قام بذلك منذ فترة وجيزة — بفحصها؛ وكان من رأي أمين المكتبة أنه من غير المحتمل أن يتمكَّن أحد من فك الترميز أبدًا، لأن الكتابة صغيرة جدًّا ومهتزة للغاية ومكتوبة بخط سيئ، لدرجة أنها بدَت عمليًّا غير قابلة للفك.

كان تقرير أمين المكتبة، في ظاهر الأمر، محبطًا. لكن بالنسبة إلى فيتلوورث، فإن عدم وضوح الكتابة أعطاها اهتمامًا إضافيًّا، وموحيًا، كما حدث في الفترة الأخيرة عندما أصبح استخدام الترميز صعبًا. وبِناءً على طلبه، تم فحص اليوميات للمقارنة بين أسلوب الكتابة اليدوية. وعند مقارنة الجزء الأول من المجلدات الستة بالقائمة، كان من الواضح أن هناك تغييرًا في طبيعة النص، على الرغم من أن التدوين الأخير، حيث يُسجل ببيس إخفاقه في الإبصار بوضوح، كان أكثر وضوحًا وأفضل كتابةً من الخربشة المتناهية الصغر على هذه الأوراق الثلاثة المقتطعة. وهو ما كان مُرضيًا للغاية، بشرط ألا يكون عدم وضوحها تامًّا لدرجة تجعل فك الترميز مستحيلًا تمامًا.

وبعد أن حصل على إذن لتصوير الأوراق الثلاث فوتوغرافيًّا — كلٌّ منها مكتوب على جانب واحد فقط — صوَّر فيتلوورث ثلاث صور، وبعد ذلك، علَّق بحثَه ليوم واحد، ثم انطلق إلى المنزل مفعمًا بالإثارة والأمل.

كان قد اقترب من المنزل عندما قابلته كاثرين، وقد خمنت من عودته المبكرة أن شيئًا ما قد حدث، فسألته بلهفة: «هل حصلت عليه يا جو؟»

ابتسم فيتلوورث. ثم أجاب: «لقد حصلت على وثيقة كُتِبت بنظام الترميز.»

سألت كاثرين: «هل تعتقد أنها قد تُنبئ بأي شيء عن اللوحة؟» وأضافت وهي تضحك: «إن حماستي تجعلني أتحدَّث بلا معنًى. بالطبع، يجب أن أفك الترميز لأعرف ما تُنبئ به.»

قال فيتلوورث: «نعم، عليك أن تفعلي؛ وأتمنى أن تستمتعي بالمهمة. إنها خربشة مخيفة؛ سيئة للغاية لدرجة أنه لم يتمكن أحد من فك ترميزها حتى الآن.» ثم أضاف مع نظرة واعية لها: «لقد قال لي أمين المكتبة إنه قبل ثلاثة أشهر فقط، قضى باحثٌ أكاديمي أمريكي، حصل على إذن لتصفُّح المجموعة، أكثرَ من أسبوع في محاولة فك رموزها بمساعدة عدسة صانع ساعات، ثم استسلم وتركها في النهاية. إذن يا عزيزتي اعلمي أن أمامك مهمة دقيقة جدًّا جدًّا.»

نظرت إليه كاثرين بتفكير، وقالت: «هذا لا يبدو مشجعًا للغاية.» ثم، بعد فترة تأملَت خلالها بعمق، وقد عقدَت جبينها الناعم عادة لتبرز بعض التجاعيد الدالة على التفكير العميق، نظرَت فجأةً إلى الأعلى: «أفترض يا جو، أنه لم يستفد شيئًا منها في النهاية.»

ضحك فيتلوورث بلطف ثم قال: «كنت أنتظر ذلك، أنت تعتقدين أن الأكاديمي الأمريكي قد يكون رجلًا ذوَّاقًا للموسيقى. أتوقع أنك على حق وآمُل أن تكوني كذلك؛ لأن

ذلك سيُثبت أننا حقًّا على نفس طريق أصدقائنا؛ لكننا سنكون قادرين على الحكم بشكل أفضل عندما تُعطينا عينة من مهاراتك. إذ سنُصبح في موقف صعب إن لم تتمكني من فك ترميز هذا الشيء.»

رفضت كاثرين التفكير في تلك الاحتمالية الأخيرة، وقاوم الرفيقان إغراء تناول الشاي، واتجها مباشرة إلى غرفة السيد وينتون المظلمة من أجل طبع الصور الفوتوغرافية. وبالفعل طبعت الصور الثلاث بدون عوائق، وأثناء تجفيف اثنتَين في الرف، أخذا الصورة الثالثة إلى النافذة للفحص.

وبينما كانت كاثرين واقفة عند نافذة التظهير، وهي تحمل الفيلم السلبي الرطب نحو الأعلى، قال فيتلوورث: «حسنًا، ما رأيك في ذلك؟»

لم تردَّ كاثرين عليه لبضع ثوانٍ، لكنها استمرت في التحديق في الخطوط المعقَّدة على الخلفية السوداء مع عبوس يتعمق تدريجيًّا.

فأجابت بعد مرور وقت طويل: «إنها كتابة صغيرة جدًّا وغير واضحة بشكل مخيف.»

قال فيتلوورث: «نعم، كنت أخشى أن يُصبح الأمر كذلك، ولكن هل يُمكنك تفسير أي شيء من، ممم ... مغزًى، أو ... أو ... ما تُشير إليه، في الواقع؟»

ساد الصمت لبرهة؛ ثم صاحت كاثرين، وهي تنظر إليه بشكل مأساوي في عينَيه: «عزيزي جو، أنا لا أستطيع أن أفهم كلمة واحدة. إنها طلاسم مطلَقة.»

ساد الصمت لفترة أخرى، ثم غمغم فيتلوورث في نهايتها بكلمة «موسى!»

لم يستطيعا الصبر وانتظار التجفيف الطبيعي للأفلام السلبية للصور واحدًا تلو الآخر، لذا غمرا الألواح في خليط الميثيل والإيثيل، وبعد تجفيفها، طبعاها بسرعة على ورق بروميد لامع، ومع وجود المطبوعات أمامهما على طاولة بجانب نافذة المكتب، انكبت كاثرين الحزينة على العمل مستعينة بعدسة الجيب الخاصة بفيتلوورث وبعبوس شديد.

مرت خمس دقائق؛ وتحرك فيتلوورث بهدوء شديد، ولكن بانزعاج وقلق، في أرجاء الغرفة على أطراف أصابعه، مجبرًا نفسه تارة على الجلوس على حافة كرسي، ويجبره حماسه تارة أخرى على النهوض والذهاب على أطراف أصابعه إلى آخر. وبعد فترة طويلة، لم يعد قادرًا على تمالك نفسه، فسأل بصوت خافت: «هل هي معقدة جدًّا يا كاتي؟»

وضعت كاثرين العدسة والتفت نحوه بيأس.

صاحت قائلة: «إنه أمر معقد للغاية يا جو، فأنا ببساطة لا أستطيع تفسير أي شيء منه.»

فقال فيتلوورث: «ربما كُتِبت بنظام ترميز مختلف عن نظام ريتش.»

«أوه، إنها بنظام ريتش بالفعل. أستطيع أن أجزم بأنها كُتِبت بهذا النظام، فقد استطعتُ فك ترميز كلمة «مع» واثنَين من «ال»، أما البقية فتبدو كأنها مجرد خربشة.»

قفز فيتلوورث من الكرسي الذي جلس عليه قرابة عشر ثوانٍ وهو يقول: «أوه، استمري، إن كنت قد استطعتِ أن تُفسري هذا القدر، فيُمكنك تفسير البقية. علينا فقط أن نُنظم عملنا بشكل منهجي. وأفضل طريقة هي وضع علامة على كل كلمة استطعتِ فكَّ ترميزها وكتابتها على قطعة من الورق. هذه هي أفضل طريقة عمل من خلال صورة لا يهم إتلافها.»

قالت كاثرين: «أنا لا أفهم ما تعنيه.»

أجابها قائلًا: «الطريقة التي أقترحها هي كما يلي؛ أولًا نُميز الصور الثلاثَ بالأحرف أ، ب، ج. ثم نُرقم أسطر كلٍّ منها، ونُجهز ثلاث ورقات ونُميزها بنفس الحروف ونرقِّمها بالطريقة نفسها. وبعد ذلك، عندما تقومين بفك ترميز كلمة، فلننقل مثلًا في الصورة أ، سطر ٦، اكتبيها على الورقة أ، في السطر السادس وعلى الجزء المناسب من هذا السطر؛ وهكذا. هل يُمكنني مساعدتك في عمل هذا؟»

وافقته كاثرين وتركته يساعدها؛ لذا، سحب كرسيًّا إلى الطاولة وشرع في إعداد ثلاث ورقات بالطريقة التي اقترحها ووضع علامات تمييز على الصور.

ويبدو أن هناك سرًّا ما في أسلوب العمل المنهج يُلهم المرء بالثقة؛ إذ أصبحت كاثرين أكثرَ تركيزًا على الفور، وعندما تم وضع الاثنَين «ال» و«مع» في أماكنها المناسبة، شعرت أن هذه هي الانطلاقة الفعلية وعادت إلى مهمتها بروح متجددة.

وسرعان ما أعلنت أنها استطاعت تفسير كلمة «له»، في نهاية السطر ١، في الصفحة ب، والكلمة الأولى في السطر التالي هي كلمة طويلة تنتهي بالمقطع «لة».

اقترح عليها فيتلوورث: «ألا يُمكن أن تكون «جلالة»، حسبما أظن.»

صاحت كاثرين: «نعم، بالطبع هي كذلك، وهناك كلمة تنتهي بالمقطع «ضاء»، وأخرى تنتهي بالمقطع «عة».»

قال فيتلوورث مخمِّنًا: «القاعة البيضاء؟» وبمزيد من الفحص اتضح بالفعل أن الكلمة هي القاعة البيضاء. كان الإجراء التالي هو البحثَ عن تَكرار هذه الكلمات؛ فاكتشفا تَكرار كلمتَي «صاحب الجلالة» ستَّ مرات في المجموع، و«القاعة البيضاء» مرتَين.

قال فيتلوورث: «الآن جربي الكلمات المجاورة لكلمة «صاحب الجلالة»، خذي تلك الموجودة في الصفحة ب؛ لدينا جملة «صاحب الجلالة في القاعة البيضاء». والآن، ماذا يوجد قبل ذلك؟»

«هناك كلمة «أنا»، ثم كلمة «أهجم» أو «أرفق».»

غمغم فيتلوورث: ««أنا أهاجم صاحب الجلالة»، هذا لا يبدو صحيحًا. هل يُمكن أن تكون الكلمة «أَحضَر»؟»

«نعم، أعتقد أنها كذلك، وهكذا يجب أن تكون الكلمة التي تسبقها هي «دعوة». ها نحن نتقدم بشكل رائع. فلنُجرب كلمة «صاحب الجلالة» في الصفحة أ. يبدو أن السطر الخامس يبدأ كما يلي: «بالنسبة إلى» كلمةٍ ما «صاحب الجلالة قد» كلمة ما «الخاصة به» والآن. ما الذي فعله جلالته؟ أوه، فهمت «كتب» (لقد كتب صاحب الجلالة ... الخاصة به).»

اقترح فيتلوورث: «التعليمات؟»

«لا، وليست «أمنيات»، وليست ... أوه، فهمت، إنها كلمة «أوامر»، والكلمات التالية هي: «في كامل في» كلمة ما «والتي هي» كلمة ما «لي في صندوق» كلمة ما «صغير». والآن، لنرَ ما إذا كان بإمكاننا استكمال هذه الجملة. «بالنسبة إلى» كلمة ما، «فقد كتب صاحب الجلالة الملك الأوامر الخاصة به»؛ إذن، بالنسبة إلى ماذا؟ يبدو أنها كلمة تبدأ بحرف «ت».»

اقترح فيتلوورث: «توفير؟» وعندما هزت كاثرين رأسها نافية؛ اقترح «تمهيد»، وأخيرًا «تصرف».

«لا، إنها ليست «تصرف». إنها «توزيع». «بالنسبة إلى توزيع ملكيتها، فقد كتب صاحب الجلالة الملك الأوامر الخاصة به كاملة في ورقة والتي» كلمة ما «لي في صندوق» كلمة ما «صغير» والذي ...»

«أعطاه، أرسله، قدَّمه، أظهره، عرضه ...»

««سلمه»، هذه هي الكلمة الصحيحة. «سلمه لي في صندوق» كلمة ما «صغير».»

«خشبي، عاجي، جلدي، فضي ...»

صاحت كاثرين مبتهجة: «ذهبي، «صندوق ذهبي صغير»، وتستمر الجملة: «الصندوق المذكور» كلمة ما «ب» كلمة ما «جلالته»، كلمة ما، «وقد أمرني بوضع الصندوق في مكان آمن و» تبدو الكلمة وكأنها «سري». سأقرؤها بسهولة أكبر الآن. دعنا نعُد إلى ذلك «الصندوق». «بختم جلالته» كلمة ما، على ما أعتقد.»

«ختم خاص، ربما.»

«نعم، بالطبع. ثم تقرأ: «الصندوق المذكور مختوم بختم جلالته الخاص، وقد أمرني بوضع الصندوق في مكان آمن وسري.» هذا رائع يا جو. سنتمكَّن من تفسيرها رغم كل شيء، ويُمكنك أن ترى بالفعل أننا على المسار الصحيح.»

«نعم؛ ويُمكننا أن نرى كيف سار هؤلاء السادة الآخرون على المسار الصحيح. ولكن بما أنكِ أصبحتِ أكثر تمكنًا من تفسير الكتابة، ألن يكون من الجيد الآن محاولةُ البدء من البداية والمضي قدمًا؟»

«ربما. ولكن السؤال هو: في أي الورقات توجد البداية؟»

«إن أفضل طريقة لحل هذه العقبة هي كتابة السطر الأول من كل صفحة. ألا تعتقدين ذلك يا كاتي؟»

«نعم، بالطبع؛ وسأبدأ بالورقة «أ». والآن، يبدو أن السطر الأول يُقرَأ: «لقد أمرني أن أحمل» لا، إنها ليست «أحمل»؛ أعتقد أنها «أنقل»، «أنقلها إلى السير» أندرو، على ما أعتقد «السير أندرو هايد».»

عند هذه النقطة، وضعت كاثرين العدسة واستدارت لتُحدق في فيتلوورث بتعبير فضولي للغاية ينم عن الدهشة والحيرة.

قال: «إنه يحمل نفس اسم عائلتك يا كاتي؛ ربما هو أحد أجدادك.»

«نعم يا جو، بالفعل. فقط، في هذه الحالة سيكون «السير أندرياس». وفحصت الورقة مرة أخرى من خلال العدسة لفترة طويلة؛ ثم صاحت مبتهجة: إن الكلمة بالفعل هي «أندرياس». دعنا نرَ كيف يستمر الأمر: «إلى السير أندرياس هايد، ابن عم سيدي كلاريندون» نعم، هذا هو الرجل «الذي سيُودعها في مكان آمن في أحد منازله في كينت». أتساءل عما إذا كان يعني اللوحة!»

قال فيتلوورث: «سنرى الآن، ولكن في الوقت نفسه من الواضح أن هذه ليست الورقة الأولى. ألقِ نظرة على الورقة «ج».»

كاثرين نقلت انتباهها، وكذلك حماستها، إلى الورقة الأخيرة؛ ولكن بعد فحص مطول هزت رأسها.

قالت: «هذه ليست الأولى، لأن السطر الأول يبدأ بالكلمات «قد أنهى العمل». إذن يجب أن تكون الورقة «ب» هي الأولى. دعنا نُجرب ذلك.» ثم أحضرت العدسة لتركز على الكلمات الافتتاحية للورقة «ب»، ولكن بعد فحص قصير صاحت بخيبة أمل.

«أوه يا جو، كم هذا محير! هذه ليست الأولى أيضًا! هناك صفحة مفقودة. سيتعين عليك العودة إلى المكتبة ومعرفة ما إذا كان يُمكنك العثور عليها.»

قال فيتلوورث: «إنها مشكلة إلى حد ما، لكنني أعتقد، يا عزيزتي كاتي، أنه من الأفضل أن نعمل على ما لدينا حيث يجب فك ترميز هذه الورقات على أي حال، وعندئذٍ نُصبح قادرين على تحديد مقدار ما هو مفقود. دعينا نحصل على السطر الأول من الورقة «ب».»

التقطت كاثرين العدسة واستأنفت مهمتها وهي محبطة، وراحت تقرأ محتويات الورقة «ب» ببطء، مع توقفات عديدة لتفسير الكلمات الصعبة.

«… أرسل إليَّ رسول يأمرني بالمثول بين يدَي جلالته في القاعة البيضاء. فذهبت من فوري ووجدت الملك في معرض ماتيد، يتحدث مع جمع متنوع من الضباط والنبلاء. وبعدما قبَّلت يده تحدث إليَّ بصراحة حول شئون القوات البحرية، ولكن بعد فترة قصيرة، دعاني إلى خلوته، حيث فتح الأمر الذي استدعاني من أجله. فعلى ما يبدو أنه قد نما إلى علمه بعض الشائعات عن أن بعض النبلاء والأساقفة — ويظن حتى أن من بينهم رئيس الأساقفة — قد دعَوا أمير أورانج؛ وهو ما أدانه باعتباره عملًا شائنًا ومخزيًا ينم عن الخيانة. والآن، وهو يتذكر المصير التعيس الذي حل بأخيه الملك الراحل ووالدهما الملك، سيتخذ بعض التدابير لتفادي خطر اقتياده إلى المنفى، لا قدر الله. وبعد ذلك تحدث بلطف شديد عن صداقتنا الطويلة، وكان من دواعي سروره أن يذكر بإعزاز خدمتي المخلصة وحكمتي في خدمة البحرية، ثم استرسل إلى الأمر الذي بين أيدينا. فتحدث أولًا عن السير ويليام فيبس الذي أحضر سفينته «جيمس وماري» …»

كانت تلك هي نهاية الورقة «ب»، وبينما أرادت كاثرين بشغف أن تفحص الصفحتَين الأُخريَين اللتَين تم فك ترميزهما بالفعل، ترقرقت عيناها بالدموع.

فصاحت بصوت يائس: «أوه! يا عزيزي جو! يا لها من خيبة أمل مروعة! ألا ترى؟ إن الكلام ليس مسترسلًا في الأوراق على الإطلاق. هذه مجرد أوراق غير متتالية.»

قال فيتلوورث: «بالفعل، يبدو أنها مقتطَعة من سياق ما. ومع ذلك، من الأفضل أن نستمر. وكما تبين أن الورقة «ج» على ما يبدو تُشير إلى اختتام الأمر، أيًّا كان، فيُمكننا أن نأخذ كذلك الورقة «أ» بعدها. حافظي على شجاعتك أيتها الآنسة الصغيرة. ربما أتمكن من العثور على الصفحات المفقودة في المكتبة. أما الآن، ما الذي تحمله لنا الصفحة «أ»؟»

عادت كاثرين مرة أخرى إلى تركيز جهدها على مهمتها، فمسحَت عينَيها كإجراء أوَّلي؛ وببطء ومع العديد من التوقفات من أجل الصراع مع كلمة معقَّدة غيرِ قابلة للتفسير تقريبًا، استطاعت ترجمة الخربشة المعقدة إلى كلمات عادية جيدة ومقروءة.

«… أمرني أن أنقلها إلى السير أندرياس هايد، ابن عم سيدي كلاريندون، الذي من المقرر أن يُودِعَها في مكان آمن في أحد منازله في كينت. أما بالنسبة إلى توزيع ملكيتها، فقد كتب جلالة الملك أوامره بالكامل في ورقة سلمها لي في صندوق ذهبي صغير، والصندوق المذكور مختوم بختم جلالته الخاص، وقد أمرني بحفظ هذا الصندوق في مكان آمن وسري، وألَّا أُخبر أحدًا بهذا الأمر، ولا حتى السير أندرياس نفسه، إلا بعد وفاة صاحب الجلالة وكذلك أمير ويلز «إن أطال الله في عمري كل هذا الوقت» إلا إذا ارتأيت، وفق تقديري، أنه من المستحسن فعلُ ذلك. وأن عليَّ أيضًا أن أقوم ببعض الترتيبات الخاصة بتسليم الورقة المذكورة في حالة وفاتي.

عندما عدت إلى المنزل، فكرت مليًّا في المكان الذي يجب أن أحفظ فيه الصندوق الذهبي، وحاليًّا أُفكر في لوحة بورتريه الملك التي يرسمها السير جودفري الآن والتي يعتزم جلالة الملك منحي إياها، وقد تراءى لي أن الإطار الخشبي الذي ثُبِّت عليه قماش اللوحة يُمكن أن يُصبح مكانًا آمنًا للإخفاء. لم أتوانَ في الذَّهاب إلى السير أندرياس في منزله بمقاطعة لي في كينت، والذي تحدث إليه الملك بالفعل حول الأمر، وتسليمه في يده المذكور …»

إلى هنا انتهت الصفحة، وبعد أن كتبت الكلمة الأخيرة، مرت فترة وجيزة من الصمت التام، ثم انفجرت كاثرين في البكاء.

ربَّت فيتلوورث على يدها مواسيًا. ثم قال بنبرة هادئة: «هدِّئي من روعك، يا عزيزتي كاتي؛ لن نبكي بشأن ذلك، على الرغم من أنه أمر محبط للغاية. لقد قمتِ بعمل رائع؛ ونحن بالفعل نجمع الكثير من المعلومات.»

«ولكن ما الذي أعطاه للسير أندرياس؟ لا يُمكن أن تكون اللوحة؛ لأنه لم يحصل عليها آنذاك.»

«لا، بالقطع لم يحصل عليها. دعينا نُفسِّر الورقة «ج». هذه قطعة قصيرة جدًّا وتشبه إلى حد ما نهاية السجل.»

مرة أخرى، جففت كاثرين عينَيها وأمسكت العدسة بيدها؛ وشرعت ببطء — ولكنه بطء أقلُّ من ذي قبل — في فك الترميز.

«… أتممت المهمة، وقد ساعدني المد، إذ أخذت قاربًا إلى القاعة البيضاء وهناك أبلغت جلالة الملك بما قمت به، لكنني لم أقل شيئًا عن اللوحة، فقد فكرت أن السر سيُصبح في أمان أكثر إن لم أُخبر به أحدًا سوى نفسي.

إنها مهمة ثقيلة وتُقلقني إلى حد ما؛ وفي الواقع، أنا لا أثق في خطة الملك التي تتسم بالكثير من السرية، وتترك الكثير في يد رجل واحد، على الرغم من أن هذا الرجل، كما يعلم الله، صادق النية ويأمُل في خدمة جلالة الملك في كل الأحوال، خاصة في هذا الوقت العصيب. لكنني سأفعل ما أمرني به، وإذا أراد الله أن تفشل هذه المهمة، على الأقل لن يصير ذلك بسبب تقصير من جانبي.»

بعدما كتبت كاثرين الكلمة الأخيرة، أغلقت العدسة وأعادتها إلى فيتلوورث وهي تصيح: «هذه هي! إنها بالتأكيد نهاية السجل ونحن محقُّون فيما ظنناه من قبل حول ما قدمه للسير أندرياس. أما أنت فعليك العودة إلى المكتبة غدًا والبحث عن الأوراق الناقصة.»

رفع فيتلوورث إصبعه محذرًا وهو يقول: «الآن عليك يا كاتي ألا تُصبحي شخصًا صغيرًا غيرَ صبور وغير منطقي. من المرجح للغاية أن الأوراق الناقصة قد اختفت تمامًا؛ لذلك، قبل أن نقضيَ وقتًا ثمينًا في البحث عنها، دعينا نُفكر فيما حصلنا عليه من هذه الأوراق التي بحوزتنا.

أولًا: نعلم أن ضِلع الإطار الخشبي المفقودةَ تحتوي على صندوق ذهبي صغير به وثيقة مهمة. وهذه نقطة رائعة قد توصلنا إليها؛ نقطة رائعة جدًّا يا كاتي؛ لأنه، لو تذكرين، كان مجرد تخمين حول ما إذا كان هناك أي شيء على الإطلاق في الإطار الخشبي؛ إلى أن تمكَّنتِ من فك ترميز هذه الأوراق.

ثم توصلنا إلى أن ببيس قد سلَّم إلى السير أندرياس شيئًا من الواضح أنه ذو قيمة كبيرة. نحن لا نعرف ما هو هذا الشيء، لكننا نعرف مكان إيداعه. على الأقل سنعرف إذا تَمكنَّا من تحديد مكان منازل السير أندرياس في كينت.»

قالت كاثرين: «يُمكنني أن أخبرك بذلك.»

صاح فيتلوورث وهو يُحدق بها مندهشًا: «حقًّا!»

أجابت مزهوَّة: «نعم، يُمكنني إخبارك بكل شيء عنه. يبدو أنك تنسى أنني أنتمي لعائلة هايد. إن السير أندرياس كان كبيرَ فرعنا من العائلة، وأنا أعرف كل شيء عنه. لقد كنا مجرد عائلة من الريفيين العاديين، على عكس أقاربنا العظماء، عائلة كلاريندون وعائلة روشيستر، لكنَّ لدينا سجلاتٍ عائليةً كاملة تمامًا، وقد درستها بالتفصيل. كان للسير أندرياس ثلاثة منازل؛ واحد في مقاطعة لي بالقرب من لندن، وواحد في سنودلاند، بالقرب من ميدستون، ومنزل ثالث، مكان صغير يُسمَّى بارثولوميو جرانج، في جزيرة ثانيت. وقد قُتِل السير أندرياس، الذي كان كاثوليكيًّا، في معركة بوين، ويبدو أن الأسرة

قد أصبحت فقيرة إلى حد كبير بعد فترة وجيزة، لأن ابنه، ماثيو هايد، قد باع المنزلَين في لي وسنودلاند وهاجر إلى نيو إنجلاند.»

«وماذا حدث لهذَين المنزلَين؟»

«أعتقد أنهما قد هُدِما وأُعيد بناؤهما. على أي حال، لقد خرجا من العائلة. حسنًا، ظل ماثيو في نيو إنجلاند حتى بداية عهد الملكة آن — عام ١٧٠٣، على ما أعتقد — ثم أبحر عائدًا للوطن في سفينة تجارية تُسمَّى هارفست مون. التي أبحرت من ميناء بوسطن في ديسمبر عام ١٧٠٣، ولم يُسمَع عنها مرة أخرى، ولا بالطبع عن ماثيو هايد؛ إذ غرقا معًا. أما الممتلكات — أي القليل الذي تبقى منها — فقد ذهبَت إلى ابنه روبرت الذي بقي في إنجلترا.»

أخذ فيتلوورث يُفكر في هذه الحقائق صامتًا لبعض الوقت، وهو يعبث شاردًا بالأوراق. ثم تحدث بعد فترة.

«أعتقد أنه يُمكننا تخمين ما حدث. لقد احتفظ ببيس بمستشاره الخاص طوال فترة حكم ويليام الهولندي، ولكن عندما اعتلت آن العرش (بالمناسبة، لقد كانت ابنة آن هايد، وهي من نفس عائلتك) نظر إلى الإرث على أنه محسوم، ولأنه قد أصبح رجلًا عجوزًا، اعتقد أن الوقت قد حان لإبلاغ ماثيو بوجود الوثيقة المخبَّأة في اللوحة والشيء الآخر الذي سلمه إلى عهدة السير أندرياس. وأتخيل أنه أرسل رسولًا إلى ماثيو برسالة مختومة تحتوي على هذه المعلومات، فأبحر ماثيو على الفور إلى إنجلترا وفُقِد في البحر؛ وأنه قبل وصول خبر تحطُّم السفينة إلى هذا البلد، كان ببيس نفسُه قد مات (تُوفِّي في الحادي والعشرين من مايو، عام ١٧٠٤) وهكذا ضاع السر، وهو ما كان صامويل ببيس العجوز الحكيم يخشى حدوثه.»

ذكَّرَته كاثرين قائلة: «لكن السر لم يفقد تمامًا؛ لأنه يبدو أن هذا «الأكاديمي الأمريكي» العبقري يتعقب المسار الصحيح للعثور عليه؛ والسؤال هو كيف لنا أن نسير على نفس المسار؟»

سألها فيتلوورث: «هل تعرفين من يملك المنزل الثالث، بارثولوميو جرانج؟»

أجابت كاثرين: «نعم، أنا أملكه.»

صاح فيتلوورث، وهو يُحدق بها غير مصدق: «حقًّا!»

«نعم. كنت أظن أنك تعرف. إن والدي هو آخر ذكَر من هذا الفرع من العائلة وأنا في الواقع آخرُ وريثة. والمنزل الصغير في ثانيت هو كل ما تبقى من ممتلكات العائلة، وإيجاره هو مصدر دخلي الوحيد إلى جانب عملي في نسخ اللوحات.»

«إذن يُمكنك الدخول إليه؟»

«بالطبع يُمكنني ذلك. ينتهي عقد الإيجار الحاليُّ في العام المقبل، وهو أمر مؤسف؛ لأن الإيجار الذي أحصل عليه سيتوقف بعد ذلك، وسأُضطَرُّ إلى دفع أجر مدبرة المنزل، وهي خادمة قديمة لعائلتنا. لذلك يُمكنني أن أطلب بسهولة إجراءَ مسح للمبنى. ولكن ما الفائدة التي ستعود علينا؟ فليس لدينا دليل على إخفاء «الشيء» الغامض هناك، وحتى لو كان لدينا، فنحن لا نعرف ما هو أو أين هو مخفي.»

«بالفعل يا عزيزتي، هذا صحيح تمامًا. لكنك نسيت أننا نبحث عن ثلاثة رجال يعتقدون على الأرجح (وربما لسببٍ وجيه) أن لديهم دليلًا؛ ومن المؤكد تقريبًا أن الصندوق الذهبي المسروق بحوزتهم. إذا كان بارثولوميو جرانج هو المنزل الوحيد المتبقي في العائلة، فسوف يبحث هؤلاء السادة بلا شك هناك أولًا؛ وإذا لم نكن قد تأخَّرنا، فسنجدهم هناك؛ وإذا لم نتمكَّن من جعلِهم يتخلَّون عن الأمر بطريقة سلمية فسأُبلغ الشرطة كي تُلقِيَ القبض عليهم بتهمة سرقة اللوحة. إذن تذكَّري أن الصندوق الذهبي هو هدفنا المباشر؛ وأن بقية التحقيق يُمكن أن تنتظر.»

سألته كاثرين، بينما تصاعدَ تدفُّقٌ من الإثارة الممتعة إلى خدها: «وماذا تنوي أن تفعل بعد ذلك؟»

«أقترح أن تُرسلي رسالة إلى المستأجر الخاص بك الليلة، وأن نتوجَّه إلى المدينة صباح الغد، ومن هناك ننتقل مباشرة إلى ثانيت. ويُمكننا التحدثُ حول التفاصيل أثناء ذَهابنا.»

حدَّقَت كاثرين في حبيبها بإعجاب، ثم صاحت: «يا لك من ماهر يا جو!»

ضحك فيتلوورث قائلًا: «ربما عليَّ أن أظن كذلك! فلولا معرفتي الخبيرةُ بنظام ترميز ريتش والطريقة الدقيقة التي فككت بها ترميز ذلك …»

صاحت كاثرين: «أوه، استمر، أيها المخادع القديم!» ولم يبدُ عليها أيُّ مشاعرِ رفض للثناء الموجَّه إليها، فاستمر بأسلوب رمزي مرحٍ في ثنائه.

الجزء الرابع

تتمتع جزيرة ثانيت بسحر غريب خاص لا يزال قائمًا حتى يومنا هذا، على الرغم من الجهود الناجحة للغاية التي يبذلها البناة للقضاء عليه. ومنذ عدة سنوات — في وقت هذه الأحداث، على سبيل المثال — قبل ظهور الضواحي القبيحة لتشويهها، ساد المنطقةَ الشمالية الشرقية من الجزيرة جوٌّ لطيف من العُزلة أخفى وراءه قُربَها من مارجيت

المزدحمة وبرودستيرز المزدهرة. كانت هذه هي المنطقة التي تدور فيها أحداثُ مهمة مغامِرينا، وبعد أن استيقظا مبكِّرَين مع العصافير وكانا محظوظَين في مسألة مواعيد القطارات، وصلا إليها في وقت مبكر جدًّا من النهار.

صاح فيتلوورث: «آه!» وهو يستنشق هواء البحر بفرحِ مَن هرب من هواء لندن الملوث، بعد أن تركا ضواحيَ مارجيت خلفهم، وشقَّا طريقهما على طول الطريق الواسع بالقرب من حافة الجرف؛ ثم استرسل قائلًا: «لقد كان جدك الفاضل محقًّا في إبقائه على هذا المنزل يا كاتي. فأنا نفسي أتمنى العيش هنا. بالمناسبة، أفترض أن مستأجرة منزلك لن تعترض على أن نُلقِيَ نظرة على المنزل؟»

«ليس بإمكانها الاعتراض؛ وحتى لو كان، فهي لن تفعل. إنها شخص لطيف للغاية، وهي أرملة لها ابنتان. وقد أخبرتها عنك في رسالتي لها، وأننا نُريد أن نرى ما يجب فعله بالمنزل إذا لم يُجدد عقد الإيجار. كما ذكرت لها أنك رسام ومهتم جدًّا بالبيوت العريقة؛ وهو أمر صحيح تمامًا، أليس كذلك؟»

«بالتأكيد يا عزيزتي. لكنني الآن مهتم أكثر بكثير فقط بثلاثة رجال بارعين وصندوق ذهبي صغير.»

قالت كاثرين: «سيكون الأمر مخيِّبًا للآمال جدًّا إذا لم يكونوا هنا بعد كل ذلك.»

«سيكون الأمر مخيِّبًا أكثرَ إذا كانوا قد أتَوا إلى هنا ثم غادروا بالفعل. هذا هو ما أخشاه. لقد بدَءوا بحثهم قبلنا بفترة طويلة.»

«هذا صحيح؛ لكن لم يكن بإمكانهم تفتيشُ المنزل دون موافقة السيدة ماثيوز؛ المستأجرة. لكننا سنعرف قريبًا كل شيء؛ هذا هو المنزل، إنه يقع وسط تلك الأشجار.»

حفزتهما رؤية هدفهما على تسريع خطواتهما. وسرعان ما وصلا إلى جدار مرتفع من الحجر الصوَّان يُحيط بحديقة كثيفة الأشجار، فدارا حوله حتى وصلا إلى بوابة على الجانب المواجه للأرض وليس للبحر. فدخلا من البوابة، وسارا عبر ممر نبتت فيه الأعشاب، إلى أن أصبحا أمام المنزل، وهو مبنًى صغير من الحجر الصوَّان والطوب، مع الجملونات الفلمنكية المنحنية الجذابة التي تُميز هذا الجزء من العالم.

صاح فيتلوورث: «يا له من منزل قديم مبهج!» واستمر في التحديق بإعجاب في المبنى الخلَّاب بزواياه التي نحتها الزمن، فتحولت حدَّتها إلى استدارة خفيفة، كما اكتسَت جدرانه بالطحالب ونباتات الأشنة والمخلدة.

وأضاف، وهو يُلقي نظرة سريعة على لوحة موضوعة فوق الشرفة؛ مدوَّن عليها تاريخ بناء المنزل: «عام ألف وستمائة وواحد وثلاثين، لقد فهمت، إذن فقد كان منزلًا جديدًا تقريبًا عندما امتلكه السير أندرياس.»

ثم قرع الجرس، ففُتِح الباب على الفور تقريبًا من قِبَل خادمة وقور متوسطة العمر، ومن الواضح أنها كانت تتوقع وصولهما، حيث استقبلت كاثرين بترحاب وألقَت نظرة فاحصة على فيتلوورث.

قالت الخادمة: «أنا آسفة يا آنسة كيت، لأن السيدة ماثيوز ليست في المنزل. كان عليها أن تأخذ الفتيات إلى المدينة هذا الصباح، ولن تعود قبل أسبوع أو أكثر؛ لكنها تركت كل المفاتيح من أجلك، وكذلك هذه الرسالة الصغيرة، كما قالت إن عليكِ التصرفَ بحرية وفِعلَ ما يحلو لكِ. وبالمناسبة، هناك ثلاثة من السادة يتفحصون المنزل، لكنهم لن يُشكلوا أي عائق في طريقك.»

وعند سماع الجملة الأخيرة، أضاءت عينا فيتلوورث ببريق عدائي، ونظر إلى كاثرين: «هل تعرفين من هم هؤلاء السادة الثلاثة يا راتشيل، ولماذا يتفحَّصون المنزل؟»

«لقد سمعت السيدة ماثيوز تقول إنهم مهندسون معماريون يا سيدي، أيًّا كان ما يعنيه ذلك. لكنهم مهتمون بالمنزل للغاية. وهم يتفحصون المكان منذ أكثرَ من أسبوع، حيث يرسمون رسومات تخطيطية للغرف والسلالم، ومخطَّطات الأرض، كما ينقرون على الجدران، ويُفتشون المداخن. لم أرَ مثل هذه الإجراءات من قبل. لقد أمضَوا يومَين كاملَين في الأقبية، يرسمون رسومات تخطيطية، رغم أن ما يُمكن رؤيته في قبو من الطوب العادي يدهشني يا سيدي. لقد تفحصوا جميع الجدران وهم ينقرون عليها بمطرقة، وأرادوا حتى أن ينزعوا جزءًا من الأرضية، لكن، بالطبع، أخبرتهم السيدة ماثيوز أنها لا تستطيع السماح بذلك دون إذن مالكة المنزل. ربما ترغبين في مقابلتهم يا آنستي.»

سألتها كاثرين: «هل هم هنا الآن؟»

«أحدهم موجود هنا الآن؛ السيد سيمبسون. إنه في قاعة استقبال المستشار، يرسم رسومات تخطيطية للأعمال الخشبية.»

نظرت كاثرين إلى فيتلوورث الذي قال: «أعتقد أنه من الأفضل أن نرى السيد سيمبسون.» قادتهم الخادمة عبر ممر طويل إلى جَناح بعيد من المبنى، حيث توقفت عند باب ضخم وأدارت المقبض.

صاحت الخادمة: «عجبًا، لقد أغلق الباب على نفسه من الداخل!» ثم أضافت هامسة وهي تطرق على الباب بقبضة حاسمة: «يا له من وقح!»

لم تُثِر الطرقات أي استجابة، ولم يكن هناك أي صوت إجابة من الداخل حتى عندما تكررت وعزَّزَت القرع بصوت عالٍ باستخدام عصا فيتلوورث. أنصتت راتشيل عبر ثقب المفتاح، لكنها لم تسمع شيئًا، فصاحت بانزعاج:

«حسنًا، أنا متأكدة! إنه أمر غير لائق عندما يجرؤ الغرباء على احتجاز الناس خارج غرفهم.»

قال فيتلوورث: «لكن الشيء الغريب هو أنه لا يبدو أن هناك أيَّ شخص بالداخل. هل يُمكننا الرؤية من خلال أيٍّ من النوافذ؟»

أجابت راتشيل: «أوه، نعم يا سيدي. إن النافذة تُطِل على حديقة المستشار، وهي حديقة صغيرة محاطة بسياج من أشجار السرو. إذا أتيت معي فسوف أُريك إياها؛ على الرغم من أن ... بالطبع، الآنسة كيت تعرف الطريق.»

وبينما تبعوا الخادمة إلى الحديقة، سأل فيتلوورث: «لماذا تُسمَّى هذه الغرفة بقاعة استقبال المستشار؟»

أجابت كاثرين: «لقد سُمِّيَت على اسم اللورد المبجَّل كلاريندون، عميد الأسرة، كما تعلم، حيث اعتاد القدوم إلى هنا أحيانًا للراحة والهدوء، وكان يُقيم بهذا الجناح المنفصل عن باقي المنزل والملحق به حديقة خاصة. وها هي الحديقة، وهذه هي نافذة القاعة، ولحسن الحظ ليست مغلقة».

كانت النافذة العتيقة الطراز والمطلية بالرَّصاص مفتوحةً قليلًا؛ لذا تمكنَت راتشيل من الوصول إليها وفتح المزلاج. وبعد أن فتحتها على مصراعَيها، قالت:

«لا يوجد أحد في الغرفة، لكن مزلاج الباب مغلق. لا بد أنه قد خرج من النافذة. يا له من تصرف مثير للدهشة. ولماذا لم يخرج من الباب، أتمنى أن أعرف السبب؟»

اقترح فيتلوورث: «ربما لم يُرِد أن يُعطل أحدٌ عملَه، أرى أن لديه لوحةً كبيرة على حامل. ومع ذلك، سأقفز عبر النافذة وأفتح الباب، بينما تعودان للداخل.»

قفز بسهولة عبر النافذة، وبعد أن فتح مزلاج الباب ألقى نظرة فضولية على ترتيبات سيمبسون الغائب. فعلى حامل اللوحات، كانت هناك لوحة رسم كبيرة مغطاة بورقة ترشيح من نوع واتمان، التي يُوجد عليها محاولة أولية لرسم رف المدفأة المنحوت. وبجوارها طاولة وضع عليها قلمًا أو اثنَين من أقلام الرصاص، وباليت ألوان مائية، وإناءً من الماء، وممحاة، وعددًا من الفرش. إن الرسم — أو ما تم منه — قد صُنِع بخبرة، ولكنه يستغرق، على الأكثر، نصف ساعة من العمل.

وبينما دخلت راتشيل وكاثرين القاعة، سأل فيتلوورث: «كم من الوقت أمضى السيد سيمبسون في هذه الغرفة؟»

«لقد جاء السادة الثلاثة إلى هنا أمس وقاموا برسم بعض الرسومات، لكن السيد سيمبسون أحضر أغراضه هذا الصباح. وقد أتى في حوالي الساعة التاسعة، وعند الساعة الحادية عشرة والنصف أتى إليَّ للحصول على إناء من الماء.»

تأمل فيتلوورث الرسم وهو يُفكر مليًّا.

ثم قال بعد فترة وهو ينظر إلى كاثرين: «حسنًا، أعتقد أنه يُمكننا تدبرُ أمرنا بدون السيد سيمبسون. وبما أننا هنا، يُمكننا أن نبدأ بحثنا بهذه الغرفة. ألا تعتقدين ذلك؟»

وافقته كاثرين. وعندما أوضحت لراتشيل المضيافة أنهما قد تناولا الغداء في القطار، قالت الخادمة:

«إذن سأترككما الآن. إذا كنتما تُريدان أي شيء، فما عليكِ إلا أن تدقِّي الجرس. إنها غرفة عتيقة، ولكنْ بها جرس كهربائي. وإذا كان بإمكاني تقديم اقتراح، فسيكون من الأفضل إغلاق النافذة، كي يتعيَّن على السيد سيمبسون أن يأتيَ من الباب بطريقة مناسبة ولائقة.»

بمجرد رحيلها، نظر فيتلوورث وكاثرين إلى بعضهما البعض بتمعن، بينما صاحت هي: «يا له من أمر غير عادي يا جو. هل تعتقد حقًّا أنه خرج من النافذة؟»

«أشك في ذلك كثيرًا يا كاتي. ولكن، على أي حال، سوف نُنفذ اقتراح الآنسة راتشيل، ونتأكد من أنه لن يعود عبر النافذة؛ وبعد ذلك سنُلقي نظرة فاحصة على القاعة.»

أغلق النافذة وثبَّت مزلاجها، ووقف برهة يتفحص القاعة. كانت عبارة عن جناح صغير، ومؤثثة بخمسة كراسيَّ منحوتة من خشب الجوز، وخزانة من خشب البلوط، ومائدة ثقيلة مع مساند أقدام سميكة وأرجل ضخمة منحوتة على شكل ثمرة البطيخ تنتمي لأسلوب تلك الفترة، كما توجد مدفأة عريضة ذات رف منحوت بأناقة، وتحتوي على باب يبدو أنه لخزانة مدمجة. كانت هذه هي المعالم البناءة الوحيدة التي تَلفت النظر داخل القاعة، باستثناء ألواح التبطين الخشبية، التي امتدت على جميع الجدران.

قال فيتلوورث: «من الواضح أن هناك شيئًا غريبًا في تصرفات السيد سيمبسون، وهو أمر كنَّا نتوقعه، وفقًا لراتشيل، لقد كان في هذه الغرفة من الساعة التاسعة صباحًا حتى الساعة الحادية عشرة والنصف على الأقل. إذن، ماذا كان يفعل؟ لم يكن يرسم. إذا نظرت إلى العمل على لوحته، فستُدركين أن أنت أو أنا كان بإمكاننا رسم ذلك في عشر دقائق. لكن طريقته تُظهر أنه ليس غبيًّا. ثم في الحادية عشرة والنصف، ذهب إلى المطبخ للحصول على

إناء من المياه. ما هو الأمر الذي أراد هذه المياهَ من أجله؟ هو لم يكن سيُلوِّن رسمه. لقد بدأ فقط في التخطيط الأوَّلي لرسمه، ورف المدفأة هذا يحتاج إلى العمل طوال يوم كامل للانتهاء من رسمه.»

قالت كاثرين: «نعم، هذا أمر مريب إلى حد ما. يبدو أنه ذهب إلى هناك ليرى ماذا يفعل الخدم.»

«نعم. أو ليتظاهر بأنه يعمل قبل أن يُغلق على نفسه الباب من الداخل. قد يُشير ذلك إلى أنه قد توصل بالفعل إلى اكتشاف. أتساءل، بالمناسبة، ماذا لديه في تلك الحقيبة. هل سيكون من غير اللائق أن أفتحها؟»

وسواءٌ كان الأمر غير لائق أم لا، فقد فعله، وعندما فتح غطاء حقيبة الرسم الكبيرة، التي كانت معلقة بحزامها على ظهر الكرسي، اقتربت كاثرين ونظرت إلى الداخل.

ثم قالت: «إنها أدوات غريبة بالنسبة إلى رسام ألوان مائية.» بينما أخرج فيتلوورث منها حقيبة أدوات جلدية مطوية.

قال فيتلوورث: «غريبة للغاية، إذن هذا هو: ما يصفه تجار الخردوات بأنه طفاشة الأبواب، والسيد سايكس يُسميه عتلة. ولماذا يحمل لفة الحبال هذه؟ إنها حبال رفيعة — ما يُسميه البحارة «حبل تحديد العمق»، على ما أعتقد — لكنها حبال غليظة جدًّا بالنسبة إلى رسام، وهناك الكثير منها. يبدو أن هناك حوالي اثنتَي عشرة ياردة. ولكن دعينا من هذا! إذ لا فائدة من النظر إلى أدواته؛ فنحن نعرف ما الذي يبحث عنه السيد سيمبسون. والسؤال الآن: أين السيد سيمبسون؟»

قالت كاثرين: «أظن أنه لا يُمكن أن يكون في تلك الخزانة؟»

تقدم فيتلوورث وحاول فتحها بالمفتاح الموضوع داخل قفلها. لكنه قال: «إنها مغلقة، وهو بالتأكيد لم يحبس نفسه بداخلها ويترك المفتاح بالخارج. أتساءل عما إذا كان هناك أي شيء يُمكن رؤيته في المدخنة. إن هذه المداخن القديمة العريضة تُعَد أماكنَ مفضلة للاختباء.»

أزاح فيتلوورث من طريقه الشبكة الحديدية القديمة التي تحمي المدفأة من عبث الكلب، وانحنى تحت عتبتها ووقف داخل المدخنة الفسيحة. كان من الواضح أن أنبوبها غير مستقيم، لأنه لم يكن هناك ضوء من الأعلى، ولأن القليل جدًّا من الضوء ينعكس من الأرضية، وكان التجويف في ظلام دامس تقريبًا. فأشعل عود ثقاب، وبمساعدة ضوئه الضعيف، راح يفحص ذلك الجزء من الداخل الذي يقع في نطاق الرؤية. ولكن أثناء فحصه عن كثب، لم يرَ سوى السطح الأسود لطوب المدخنة. ومع ذلك، فكر في أن أماكن الإخفاء

لا يصح أن تكون واضحةً للعيان بسهولة، لذا فقد انحنى، كي يصل إلى حامل الحطب المعدني، والتقط قضيب إذكاء النار.

ضحكت كاثرين قائلة: «أنت لن تضربه بهذا القضيب، يا جو، أليس كذلك؟» ثم فتحت الخزانة، ووقفت وهي تُمسك الباب المفتوح بيدها. فطمأنها فيتلوورث حول نواياه، وهو ينحني تحت العتبة ويقف مرة أخرى داخل المدخنة المظلمة. وبعد أن أشعل عود ثقاب آخر، بدأ بشكل منظم في النقر على قطع الطوب، وراح يُقارن بين الأصوات الصادرة عن النقرات المتتالية لقضيب المدفأة، ويُلاحظ المقاومة والشعور بالصلابة. لكن النتيجة لم تكن مشجعة أكثر من نتيجة فحص بالعين؛ إذ أظهرت «المقارنة بين الأصوات» اتساقًا مخيبًا للآمال، وكان الإحساس بالمقاومة المنقولة عبر القضيب هو أنه جدار من الطوب الصلب للغاية.

لقد استمر في الفحص لعدة دقائق، وتركز انتباهه على الكتلة غير المستجيبة من الطوب، وذلك عندما روَّعه صوت باب يُغلَق بعنف. فتوقف وأصغى السمع، وبعد فترة وجيزة، تناهى إلى سمعه صوتُ صرخة مكتومة وقرع على جسم خشبي مجوف. فانحنى على الفور ليستطلع الأمر، وقد أزعج عينَيه الضوءُ الذي لم يعتد عليه خارج المدخنة، وبعد أن نظر في المكان أطلق صرخة دهشة.

إذ وجد القاعة خالية.

قفز عبر المدفأة، وعندما وضع قدمه على أرضية القاعة تكررت الصرخة المكتومة بصوت مألوف، واستطاع تمييز كلمة «جو!» بينما استمر القرع على الجسم الخشبي، الذي اتضح أنه الخِزانة؛ حيث كانت هي مصدر انبعاث الصوت. فتقدم نحوها وأمسك بالمفتاح وسحبه بقوة، لكن الباب لم يُفتَح. أدار فيتلوورث المفتاح داخل القفل، فانفتح الباب، وخرجت كاثرين وهي تضحك من قلبها، بدون أدنى اضطراب.

صاحت قائلة: «أوه يا عزيزي جو! هذا الباب الحقير أصابني بالخوف. أعتقد أنه ممسوس بشيطان. بدا لي أنه أوقعني في فخ بذكاء وحقد مقصود.»

قال فيتلوورث: «أخبريني بما حدث بالضبط، كيف دخلتِ هناك؟»

«لقد خطوتُ على قدمي ودخلت الخزانة، بالطبع، أيها السخيف. اسمع، أثناء قيامك بالتفتيش في المدخنة، وقفت هنا والباب مفتوح، أنظر إلى كل تلك الأشياء المبعثرة على الرفوف. ثم لمحت عيني تلك الجرة القديمة الرائعة على الرف العلوي، فخطوت داخل الخزانة لأُنزِلها من على الرف؛ ولكن ما إن خطوت داخلها حتى ارتد ذلك الباب البائس،

وانغلق القفل الحقير، ووجدت نفسي مثل فأر في المصيدة. إنها رحمة من الله أنك كنت قريبًا كي تسمع استغاثتي.»

«نعم إنها كذلك بالفعل. ولكن الآن بعد أن أخرجتك، أعتقد أننا سنُلقي نظرة جيدة على هذا الفخ. إنه ترتيب غريب لخزانة. فبها قفل زنبركي، ولاحظي أيضًا أن المفصلات النُّحاسية القوية ذات نمط منحرف لجعل الباب يُغلق ذاتيًّا. ولا أرى أي سبب وجيه لذلك.»

«بالفعل، وهذا ما كنت أُفكر فيه عندما كنت بالداخل. فمن المفترض إبقاء الناس خارج الخزانة، وليس حبسهم داخلها.»

«بالضبط. لذا سنُحافظ على هذا الباب مفتوحًا وندعمه بواسطة كرسي، ثم نفحص هذه الخزانة المتفردة بدقة.»

فتح فيتلوورث الباب على مصراعَيه، وبعد أن ثبته في هذا الوضع بواسطة كرسي ذي مسند، بدأ في الفحص، وأخذ الباب نفسه كأول عنصر. بعد أن جرب القفل وفحص الجزء الخارجي، مرر عينَيه بدقة على السطح الداخلي، ثم اكتشف شيئًا. إذ وجد بالقرب من قمة الباب رقعة صغيرة مربعة من الخشب تخضع للضغط، وعند الضغط ينزلق مسمار القفل للخلف وينفتح الباب من الداخل.

صاح فيتلوورث: «ها! أرأيت يا كاتي، أستطيع أن أكتشف الحيل الماكرة. هل ترين؟ إنه مفتاح داخلي. والآن السؤال هو؛ لماذا صُنِعت هذه الحيلة؟»

«عجبًا، من الواضح أنها لتمكين الشخص الذي قد يُحبَس بالداخل من السماح لنفسه بالخروج. إنه مكان للاختباء يا جو. ألا ترى؟ الهارب الذي تمت ملاحقته عن كثب يُمكن أن يخطو داخل الخزانة فينغلق الباب خلفه. ثم يأتي المطاردون ويسحبون المفتاح، ويقولون، كما فعلت أنت، إن الرجل لا يستطيع أن يحبس نفسه داخل الخزانة ويترك المفتاح بالخارج. ثم يذهبون بعيدًا.»

ابتسم فيتلوورث وهز رأسه، ثم قال: «إنه استنتاج جيد يا فتاتي العزيزة، ولكن افترضي أن من بين المطاردين مَن لديه الفضول، مثل كاتي، لإدارة المفتاح وفتح الباب؟ عندها لن يُفلِح الاختباء. لا يا عزيزتي، أعتقد أنه من المؤكد عمليًّا أن هناك مخرجًا سريًّا من هذه الخِزانة. لأنه في هذه الحالة سيفتح المطارد الفضولي الباب ليجد الخزانة فارغة، وعندئذٍ سيكون المفتاح الخارجي مقنعًا للغاية. دعينا نتحرَّ الأمر.»

خطا فيتلوورث داخل الخزانة التي يبلغ عمقها حوالي أربعة أقدام والتي كان ظهرها مشغولًا بخمسة رفوف ضخمة ولكنها ضيقة إلى حد ما، ونظر حوله بفضول. كانت

الأجزاء الداخلية بالكامل — الجوانب والأرضية والسقف — مبطنة بألواح من خشب البلوط الصلب، وعلى الرفوف وُضِعت أشياء متنوعة، بدا من مظهرها أنها قد تراكمت ببطء على مدى سنوات. وقد وجَّه فيتلوورث انتباهه بشكل خاص إلى هذه الرفوف، ومثله فعلت كاثرين.

قال فيتلوورث: «لاحظي معي أن جميع الرفوف ممتلئة بشكل أو بآخر بما يُمكن أن تُسميه «فوضى»، باستثناء الرف الثاني من الأعلى، الذي تم تنظيفه بشكل واضح، ومنذ فترة قريبة أيضًا، وهو ما يتضح من آثار الغبار. كما أن اللوح الخلفي به مساحة فارغة خلفه.»

ولإثبات ذلك، أعطى ضربة أو اثنتَين من الضربات الصاخبة على الظهر الأجوف؛ ولكن عند الضربة الثالثة توقف واستدار بحماس إلى كاثرين.

«لقد ضربناها — حرفيًّا — يا كيت. هل ترَين؟ لقد بدأ هذا اللوح في الاستجابة. إنه باب مفصلي، تم إخفاء مفصلاته بواسطة الرفوف. سنعثر قريبًا على السيد سيمبسون.»

عندما مدت كاثرين رأسها للأمام لتتفحص الخِزانة، أعطى فيتلوورث دفعة قوية على اللوح المتحرك، مما دفعه للخلف عدة بوصات. وعلى الفور، تبع ذلك صوت عالٍ وهديرٌ مُدوٍّ، وبدأت الخزانة بأكملها في الهبوط بسرعة. فتشبث فيتلوورث بالرف في هلع ليُحافظ على توازنه، بينما أطلقت كاثرين صيحة انزعاج، وانحنَت على حافة بئر المصعد وهي تنظر إلى أسفل كما لو كانت متحجرة، نحو رفيقها المتلاشي.

استمرت الخزانة في الهبوط لحوالي عشر أقدام. ثم توقفت، وفي نفس اللحظة، سقط القاع لأسفل، وهو يتأرجح مثل باب مصيدة على مفصلات غير مرئية. وقد كان من الجيد لفيتلوورث أنه احتفظ بقبضته على الرف، وإلا كان سينحدر إلى أسفل البئر المظلم الممتد من تحته، الذي لا يُمكن تقدير عمقه. وهكذا، فقد كاد أن يُفلت قبضته غير الآمنة، وهو الآن معلَّق من يدَيه، بينما تركل قدماه الهواء؛ وهي وضعية مستحيلة لأكثرَ من دقيقة واحدة، وقد أدرك ذلك في الحال بسبب إجهاد أصابعه. ومع ذلك، بعد بعض التحسس الحذر بقدم واحدة، تمكن من العثور على الرف السفلي، وعندما ثبَّت قدمَيه بشكل آمن على هذا الرف، خفف الضغط على يدَيه وتمكن من تفحُّص المكان. ومِن ثَم نظر إلى الأعلى، ورأى أن النصف الخلفي فقط من سقف الخزانة قد هبط، بحيث كان هناك مسافةُ قدمَين فوقه، يُمكن من خلالها أن يرى وجه كاثرين المنزعج وهي تمد عنقها نحو حافة البئر كي تراه.

صاحت كاثرين بصوت مرعوب: «ماذا أفعل كي أُساعدك يا جو؟»

أجابها: «أحضري حبل سيمبسون من حقيبته وارمي أحدَ طرفَيه نحوي واربِطي الطرف الآخر بإحكام في ساق المائدة.»

اختفى وجهها، وبينما جاءه صوت الحركة المتسرعة من الأعلى، نظر فيتلوورث من فوق كتفه على جانب البئر الذي كان مرئيًّا له؛ والذي يُمثل السطح الأملس للحجر الجيري الذي حُفِرت البئر فيه، وفي منتصفها فجوة غير عميقة مزودة بحلقات حديدية ضخمة، تُشكِّل سلمًا ثابتًا، والذي يبدو أنه يُتيح الوصول إلى قاع البئر. فنظر بتمعن إلى تلك الدرجات الصلبة الصدئة، وفكر فيما إذا كان بإمكانه الوصول إليها والإمساك بها، لكن قبضته كانت غير آمنة للسماح له بفعل ذلك مع وجود تلك الحفرة المظلمة الرهيبة، ذات العمق المجهول، الممتدة تحته. لم يكن هناك شيء ليفعله سوى التمسك بالرف، رغم أن أصابعه تُؤلمه بسبب التوتر وبدأت عضلاته ترتجف مع الإجهاد المستمر. حدَّق في الفتحة الضيقة، واستمع بفارغ الصبر للأصوات من الأعلى التي تُخبره عن جهود كاثرين السريعة لإنقاذه؛ وبينما كان يستمع، جاء إلى أذنَيه صوت آخر — من أسفل — صوت مقبور أجوف يتردد صداه بغرابة من جوانب البئر.

قال صاحب الصوت: «أهذا أنت يا وارن؟»

أجابه فيتلوورث: «حسنًا، سننزل إليك عما قليل. هل أنت مصاب؟»

«أجل، لقد انكسر كاحلي، على ما أعتقد. لكن لا تستعجل. كن حذرًا وأنت تهبط.»

كان فيتلوورث على وشك الرد، عندما ظهر وجه كاثرين مرة أخرى عند الفتحة بالأعلى وهي تقول: «هذا هو الحبل يا جو، لقد ربطته بقوة بساق المائدة، وسأُمسك به أيضًا. هيا التقطه.»

وبينما كان الحبل ينحدر عبر البئر أحدث الجزء المعدني المربوط في طرفه جلجلة صاخبة، وراحت كاثرين تُؤرجحه ببراعة تجاه فيتلوورث الذي أمسكه بيد واحدة، وحمَّل عليه قدر استطاعته على أمل أن ترتفع الخزانة، التي تخففت جزئيًّا من وزنه. لكن القوة التي يُمكن أن يبذلها بيد واحدة لم تكن كافية لذلك. وحاول السحب قدر استطاعته، لكن الخزانة بقيت ثابتة.

بعد أن اكتشف أن الأمر سيظل كذلك، وأن الجهود المتكررة كانت فقط تستنفد قواه، قرر المخاطرة بإمساك الحبل بكلتا يدَيه؛ ولكن في اللحظة التي أفلت فيها قبضته من الرف العلوي، تأرجح مباشرة فوق البئر، وبدأت قدماه بالانزلاق من الرف السفلي. وفي لحظة أخرى كان سيتدلَّى بحرية فوق الهوة العميقة، إلا إذا انقطع الحبل الرفيع؛ لكن الآن، وبينما هو يتأرجح بالقرب من السلم، تشبث بيد واحدة في إحدى الدرجات الحديدية. وبعد أن

أحكم قبضته عليها، أصبح قادرًا، دون صعوبة، على القفز إلى السلم، وعندما سحب قدمَيه من فوق الرف أخيرًا، بدأت الخزانة في الصعود محدثة ضجة عالية.

وقف فيتلوورث على السلم ناظرًا إلى الخزانة المتراجعة وإلى وجه كاثرين القلق، ومتسائلًا عما سيحدث بعد ذلك. وسرعان ما اقتنع فضوله. عندما اقتربت الخزانة من قمة البئر، بدأت أرضيتها في الارتفاع، وكانت ستُغلَق تمامًا لولا الحبلُ الذي انحشر فيها، تاركًا شقًّا ضيقًا خرج من خلاله بصيصٌ من الضوء. لقد كان مأزقًا حرجًا، ولم يكن فيتلوورث يعلم ماذا يجب عليه أن يفعل؛ ولكن، بينما هو يفكر، جاءه صوت كاثرين من خلال الشق.

«هل أنت بخير يا جو؟»

«نعم.»

فأضافت: «إن من الأفضل لك النزولَ إلى مسافة أعمق، وأن تبتعد عن طريق الخزانة؛ إذ إنها تهبط مرة أخرى.»

نزل فيتلوورث بسرعة لبضع درجات على السلم الحديدي لتجنب اصطدام الخزانة برأسه ثم توقف متسائلًا كيف قررت كاثرين إرسال الخزانة لأسفل مجددًا. وقبل أن يصل إلى أي استنتاج، سحبت هي الحبل بمهارة، وراحت الخزانة تُصدر صوتًا صاخبًا بينما تهبط لأسفل، ولكن بشكل أبطأ هذه المرة، كما لو كانت قد فحصت بطريقة ما. وعندما هبطت لمسافة بضع أقدام، بدأت الأرضية في السقوط بسبب عدم رفعها بما يكفي لتصل إلى مزلاجها؛ بسبب الحبل غالبًا. فنظر فيتلوورث إلى الأعلى واندهش لرؤيته كاثرين وهي تتشبث بالداخل. ثم وصلت الخزانة إلى قاع مسارها واستقرت، فصعد السلم حتى أصبح في مواجهة الخزانة ثم التفت بقلق. لكن وضع كاثرين كان أكثر أمانًا مقارنة بما حدث له؛ لأنها كانت تُمسك بإحدى يدَيها مشجبًا نُحاسيًّا ضخمًا مثبتًا على جانب الخزانة، بينما تُمسك بالأخرى الحبل الذي مررته حول خُطَّاف قوي مثبت بالقرب من الأرضية — على ما يبدو لهذا الغرض بالذات — ثم حول المشجب؛ وهكذا تمكنت بسهولة من التحكم في هبوط الخِزانة. على أي حال، لم يكن فيتلوورث قادرًا على رؤية هذه الترتيبات وسط الضوء الخافت الذي ساد البئر، ومع تذكر الصعوبات التي واجهها، نظر إلى كاثرين ببعض الذعر.

ثم سألها: «إني أتعجب، كيف سنتمكن من إرجاعك إلى الأعلى مرة أخرى يا كاتي؟»

أجابته: «عجبًا، كل ما عليك هو فقط أن تصعد على السلم وتسحب الحبل. لقد قمت بتثبيته بقوة في هذا الخطاف.»

صعد فيتلوورث بضع درجات ببطء وسحب الحبل بحذر، فتحركَت الخزانة لمسافة بوصة أو اثنتَين إلى أعلى، ومِن ثَم بدأ في الصعود سريعًا على السلم. وبينما هو يشق طريقه للأعلى نحو القاعة، سمع صدى صوت أجوف يأتي من الأسفل ويتردد مستعطفًا.

«لا تتأخر في جلب المساعدة لي يا وارين.»

صاحت كاثرين: «يا إلهي! إني أتعجب، صوت من هذا؟»

قال فيتلوورث: «صه! هذا هو صاحبنا سيمبسون.» ثم رفع صوته وصاح: «سننزل إليك بأسرع ما يُمكن.» واستمر في صعوده إلى أعلى السلم.

وبمجرد أن وصل إلى الأرضية الصلبة للقاعة، أمسك بالحبل وبدأ في سحبه بحذر؛ ومع ازدياد الشد، بدأت السلسلة البرونزية الكبيرة التي تتعلق بها الخزانة تلف على عجلة البكرة وهي تُجلجِل. وفي بضع ثوانٍ ظهرت الخزانة نفسها في الفتحة؛ وعندما أصبحت أرضية الخزانة عند نفس مستوى أرضية القاعة توقفت، وأعلنت طقطقةٌ مزدوجة أن المزلاجَين — الأول الذي يدعم الخزانة نفسَها والآخر الذي يُثبت أرضيتها — قد انزلقا داخل محبسَيهما. وعندئذٍ اختبرَت كاثرين ثباتَ الأرضية بحذر شديد، ثم تخلت عن المشجب وخرجت إلى القاعة.

قال فيتلوورث وهو يُساعدها في الخروج: «حسنًا، أنا فخور بكِ يا كاتي. لقد قمتِ بمجازفة بُطولية للغاية عندما هبطتِ لتُنقذيني على هذا النحو؛ وقد تمكنتِ من ذلك بمهارة. لقد اكتسبت مهارات متميزة من الإبحار مع والدك على متن اليخت الخاص به.»

تلقت كاثرين هذا الثناء برضا هادئ، لكن من الواضح أن عقلها كان منشغلًا بالصوت الغامض الذي كان يستجديهما من داخل البئر العميقة، حيث سألت بقلق:

«كيف سننتشل هذا المسكين من الأسفل يا جو؟»

أجاب فيتلوورث: «سنُفكر في طريقة ما سريعًا، وفي غضون ذلك، سنُعيد الحبل إلى مكانه ونُرتب كل شيء كما كان بينما نتباحث الأمور.»

أصرَّت كاثرين قائلة: «لكن لا يُمكننا تركُ ذلك البائس هناك في تلك الحفرة الرهيبة. ألا يُمكننا انتشاله الآن؟»

«أعتقد أنه سيُضطر إلى البقاء هناك حتى نُقرر ما يجب القيام به. إذ سنحتاج لبعض الأجهزة الإضافية، وربما بعض المساعدة. لكن اسمعي!»

لف الحبل بسرعة وأعاده إلى حقيبة سيمبسون، عندما انفتح الباب وعادت راتشيل إلى الظهور.

قالت راتشيل: «من فضلك يا سيدتي، لقد أتى السيد فيرس والسيد تانر، للبحث عن السيد سيمبسون. فأخبرتهم بما حدث، وأنك قد وصلتِ إلى هنا. هل تودين مقابلتهم يا سيدتي؟ إنهم قلقون للغاية على السيد سيمبسون.»

وبمجرد أن أكملَت حديثها، سُمِعت خُطًى في الممر ودخل الرجلان دون انتظار الإذن بدخولهما، حيث قدَّمتهما راتشيل، بحدة نوعًا ما، ثم غادرت القاعة. نظر فيتلوورث إلى الغريبَين بفضول ولم يجد صعوبة في التعرف عليهما إذ كان أحدهما هو من تنكَّر في شخصية عازف الأوبوا، والآخر في شخصية الناسخ بالألوان المائية على التوالي، بينما كان من الواضح أن أيًّا منهما لم يتعرف على فيتلوورث. كان كلٌّ منهما في حالة تعصب شديد، وخاصة الموسيقي، الذي بدأ بمخاطبة فيتلوورث.

«هذا أمر مثير جدًّا للقلق والحيرة يا سيدي. إذ يبدو أن صديقنا سيمبسون قد تلاشى تمامًا.»

أجاب فيتلوورث: «نعم، والأمر الأكثر إثارة للدهشة، الذي لا أستطيع تخيله هو لماذا خرج من النافذة.»

سأله الموسيقي: «هل أنت متأكد تمامًا من أنه فعل ذلك؟»

أجابه فيتلوورث: «حسنًا، إنه ليس هنا، كما ترى، ولم يكن بإمكانه الخروجُ من الباب بعد أن أغلقه من الداخل، لذلك لا بد أنه غادر القاعة عبر النافذة، إلا إذا كان قد صعد عبر المدخنة».

وهنا تلقى فيتلوورث نظرة عاتبة من كاثرين، بينما واصل الموسيقيُّ، الذي تم تقديمه على أنه السيد فيرس، حديثه مرة أخرى: «لا يسَعُني إلا التفكيرُ في أنه يجب أن يكون في مكان ما في المبنى. هل تُمانع لو بحثنا عنه؟»

فكر فيتلوورث للحظة وفي النهاية قرر أن يُغامر ويغتنم الفرصة، فقال: «أعتقد، ربما، قد تكون على حق يا سيد وارين ...»

حدَّق الرجلان وقد فُوجِئا بشكل واضح، فقاطعه الموسيقي: «اسمي فيرس يا سيدي.»

قال فيتلوورث: «حسنًا، سيد فيرس، إذن أعتقد أنه من الأفضل أن يكون لدينا تفسير، إذ إن أنشطتنا تتداخل إلى حد ما. وأنا أتصرف بالنيابة عن الآنسة هايد، مالكة هذا المنزل.»

سأله السيد فيرس: «ولكن ما علاقة ذلك بنا؟»

«أعتقد أنك ستفهم عندما أشرح لك عملي، الذي يرتبط بممتلكات معينة للآنسة هايد، وهي على وجه التحديد، صندوق ذهبي صغير، يحتوي على وثائق معينة، ذات صلة ببعض ممتلكاتها الأخرى.»

لبضع ثوانٍ، حدَّق الرجلان في فيتلوورث بدهشة صامتة؛ ثم سأل فيرس بتردد: «ولكن ما علاقة هذا بنا؟»

قال فيتلوورث بنفاد صبر: «أوه، دعك من المراوغة يا سيدي، لا فائدة من مواصلة هذا التظاهر. نحن نعلم أنك أخذت الصندوق وأنه بحوزتك في هذه اللحظة.»

نظر الرجلان، اللذان بدا عليهما الذهول التام، إلى بعضهما البعض بسرعة، وسأل فيرس: «هل أفهم من كلامك أن هذا الصندوق، الذي تتحدث عنه، هو ملك لهذه السيدة؟»

أجاب فيتلوورث: «بلا أدنى شك، إن هذه هي الآنسة كاثرين هايد، الوريثة الوحيدة الباقية على قيد الحياة من نسل السير أندرياس هايد، والتي أعتقد أن اسمها مألوف لديك.»

صاح السيد فيرس: «لا تقل هذا! لم يكن لدي أيُّ معلومات عن وجود أحفاد على قيد الحياة. ربما تسمحون لي وصديقي بالتشاور معًا بشأن هذه المسألة.»

كان فيتلوورث مستعدًّا تمامًا للموافقة على ذلك، لكنه لم يكن ينوي تركهما وحدهما في القاعة. لذا، اقترح عليهما حديقة المستشار كمكان منعزل حيث يُمكنهما التحدث بشكل مريح، وشرع في إخراجهما من الباب الجانبي. وعند عودته إلى القاعة، وجد كاثرين وقد فتحت باب الخزانة، ووقفَت تستمع باهتمام لأي أصوات قد تأتي عبر الأرضية.

ثم صاحت: «يا لك من بائس متحجر المشاعر يا جو! كيف تجلس هناك بهدوء لتُناقش أمر ذلك الصندوق التافه، في حين أن السيد سيمبسون المسكين ربما يموت في قاع ذتلك البئر الرهيبة.»

احتجَّ فيتلوورث قائلًا: «عزيزتي كيت، نحن لم نضعه هناك. سوف يُنتشَل في أسرع وقت ممكن، ولكن، في الوقت نفسه، يُعَد هذا مساعدة قيِّمة لتدعيم مفاوضاتنا.»

صُدِمت كاثرين من قسوته وحثته على إنقاذ الرجل على الفور، لكن فيتلوورث لم يتأثر بعتابها، وراح يُراقب الرجلَين من خلال النافذة بهدوء، بينما كانا يسيران على عشب الحديقة الصغيرة، إذ كان من الواضح أنهما قد انخرطا في نقاش قلق. كانت المناقشة، مع ذلك، قصيرة إلى حد ما، حيث استدارا في غضون دقيقتَين تقريبًا، وقد بدا عليهما أنهما قد حسما أمرهما، ثم سارا بسرعة نحو الباب الجانبي.

قال فيتلوورث حين غابا عن ناظرَيه، ثم سمع الباب الجانبي يُفتَح: «لم يُمضيا وقتًا طويلًا، أتساءل ما الذي قررا القيام به؟ لا يُمكنهم الآن على الإطلاق إنكار أنهما قد حصلا على الصندوق.»

كان فيتلوورث على حق. إذ بمجرد أن دخل الرجلان إلى القاعة، بدأ السيد فيرس مناقشة الأمر بطريقة صريحة وعملية.

حيث قال: «نود منك أن تُخبرنا يا سيدي، بما تعرفه بالضبط عن هذا الأمر، وماذا تُريد منا أن نفعل.»

قال فيتلوورث: «بالنسبة إلى ما نعرفه، أقول إننا نعرف كل شيء. فقد حصلتم على الصندوق، المختوم بختم الملك جيمس الذي يحتوي على وثيقة مهمة، بمهارة شديدة — يجب أن أعترف لكم بذلك — من المعرض الوطني قبل سبعة عشر يومًا، وقد أتيتم إلى هنا للبحث عن الملكية التي أُودِعت لدى السير أندرياس هايد. وبالنسبة إلى ما نُريد، فنحن ببساطة نرغب في إعادة الصندوق إلى مالكته.»

جلس السيد فيرس على كرسي كبير ذي مسند وقد لامست أطراف أصابعه بعضها بعضًا، ووجَّه انتباهه نحو فيتلوورث.

ثم قال: «الآن، انتبه لما أقول، إن هذا الصندوق لم يكن أبدًا في حوزة الآنسة هايد، وأعتقد أن لا أحد كان يعلم بوجوده، أو بوجود الملكية الأخرى التي ذكرتَها أنت؛ والتي أظن أنك لا تعرف، حتى هذه اللحظة، ما هي هذه الملكية وأين أُخفِيَت.»

قال فيتلوورث بسفسطة نوعًا ما: «أنت مخطئ في ظنك؛ فنحن نعرف بالتحديد أين أُخفِيَت، بل أكثر مما تعرف أنت حسبما أعتقد؛ لكن بالتأكيد، كل هذا غير ذي صلة بجوهر الموضوع. فالملكية تخص الآنسة هايد وهذا هو جوهر الموضوع. وأنت لا تُشكِّك في لقبها، أليس كذلك؟»

«لا يا سيدي، نحن لا نفعل. وكي أكون صريحًا معك تمامًا، فإن موقفنا هو: لقد اكتشفنا أثر هذه الملكية بالصدفة، وقد تكوَّن لدينا انطباعٌ أنها بدون مالك، لذا بذلنا كل جهودنا للعثور عليها، ويُمكنني أن أُخبرك بأننا قد أنفقنا الكثير من الوقت والمال والمشقة في سبيل تحديد مكانها. والآن، اتضح أن هذا ليس كنزًا مجهولَ الملكية على الإطلاق؛ وأن هناك مالكًا شرعيًّا على قيد الحياة؛ وقد ناقشت الأمر مع صديقي تانر، وقررنا أننا، شخصيًّا، مستعدان للتنازل عن مطالبتنا بشروط معينة، لكن بالطبع لا يُمكننا اتخاذ قرار فيما يخص السيد سيمبسون، ولا يُمكننا التصرف دون موافقته.»

سأله فيتلوورث: «وما هي شروطك؟»

«يجب أن نستردَّ ما أنفقنا، كما نريد إذنًا للبحث عن صديقنا في هذا المبنى.»

قال فيتلوورث: «إنها شروط منطقية، وفيما يخص ممتلكات السير أندرياس، فأنا على استعداد للموافقة؛ لكن يجب أن أشترط أن تُسلِّمنا الصندوق ومحتوياته على الفور. أظن أنها معك على الأرجح.»

قال فيرس: «لا، ليست معنا، بإمكاننا أن نُحضرها، ولكن، أولًا وقبل كل شيء، نُريد البحث عن سيمبسون. إن أمر العثور عليه عاجل وضروري، لأن الاحتمال الأقرب هو أنه قد حُبِس في غرفة سرية مزعجة ولا يُمكنه الخروج.»

قال فيتلوورث: «أنت محق تمامًا، وأنا أعرف مكانه بالتحديد، وسأعقد معك صفقة تبادلية. أنت تُحضر الصندوق ومحتوياته، وأنا أُحضر السيد سيمبسون.»

سأله فيرس: «وإذا افترضنا أننا غير موافقين؟»

«عندها أخشى أننا سنُضطر إلى الاحتفاظ بالسيد سيمبسون كضمان.»

تجعَّد الوجه الطويل المضحك للسيد فيرس بابتسامة قاتمة، وهو ينظر باستفسار إلى رفيقه.

وهو يسأله: «ما رأيك في ذلك؟»

رفع السيد تانر حاجبَيه وقال: «يبدو لي يا وارين، أن هذا السيد قد وضعنا في موقف حرج. وأظن أنه يجب علينا الموافقة.»

نهض السيد فيرس ونظر إلى ساعته.

ثم قال: «سوف يستغرق الأمر منا أكثر من ساعة لإحضار هذا الصندوق. فماذا ستفعل إذا عدنا إلى هنا بعد ساعة ونصف؟»

قال فيتلوورث: «عندئذٍ، أعتقد أنه يُمكننا أن نعد بأنك ستجد السيد سيمبسون هنا عند عودتك.»

بعد الاتفاق على هذه الصفقة التبادلية، غادر السيدان، حيث اصطحبهما فيتلوورث وكاثرين إلى الباب الأمامي.

وبعد أن اختفيا في الطريق، التفت فيتلوورث إلى كاثرين:

«والآن يا عزيزتي، إلى أعمال الإنقاذ. أعتقد أنه سيتعيَّن علينا أن نثق في راتشيل؛ لأننا نحتاج إلى مساعدتها.»

وفي الواقع، كانت راشيل كامنة في الخلفية، بعد أن اشتمَّت نوعًا من الغموض، فأخبرها فيتلوورث على الفور عن الظروف التي كان من الضروري لها أن تعرفها؛ حيث شعرت بسعادة غامرة وامتنانٍ شديد.

قالت: «وهكذا، الآن، هذه عاقبة التطفل والعبث في منازل الآخرين. لكن كيف ستنتشله يا سيدي؟»

قال فيتلوورث: «يجب أن يتم سحبُه برافعة، على ما أعتقد، هل لديك هنا حبل متين وطويل؟»

لقد طرح السؤال وهو ليس لديه أي أمل في وجود الحبل، فالحبل المتين ليس من الأدوات المنزلية الشائعة؛ لكن راتشيل أجابت على الفور: «هناك حبل جيد يا سيدي، إذا أمكنك إزالته من الرافعة.»

قال فيتلوورث: «أعتقد أننا سنتمكَّن من ذلك، ومِن ثَم نُريد بعض الأوزان، نحو قنطارَين إجمالًا.»

مثَّل هذا الأمر صعوبة أكبر، إلى أن جاءت إلى كاثرين الفكرة المضيئة المتمثلة في ملء كيسَين من الأكياس الصغيرة بالتراب، وهكذا حلَّت المشكلة تمامًا.

في غضون بضع دقائق، جمعوا هذه الأدوات مع مصباح، وحملوها إلى قاعة المستشار، ثم أغلقوا الباب، وشرعوا في العمل على الفور. أولًا، فتح باب الخزانة بشكل دائم حيث دُعِّم بواسطة كرسي؛ ثم وضع فيتلوورث كيسَين صغيرَين، لكنهما ثقيلان وممتلئان بالتراب على الرف السفلي، وهكذا أصبحت الخزانة فيها ثقل الآن، فوضع سن عصا المشي الخاصة به على اللوح المتحرك في الخلف، ثم دفع دفعة قوية. وعلى الفور تصاعد الصوت المجلجل وهبطت الخزانة في البئر، مثل المصعد البدائي، ومع نزول السلسلة البرونزية الضخمة بكامل طولها، ارتفع ثقل التوازن الحجري الضخم على الجانب. وكما حدث في المرة الأولى، توقفت الخزانة على عمق عشرة أقدام، وسقطت أرضيتها مثل فخ المشنقة. كان الإجراء التالي هو إضاءة المصباح وربطه في أحد طرفَي الحبل — وتثبيت الطرف الآخر، كما حدث من قبل، بربطه في ساق المائدة — حيث أنزله فيتلوورث بعناية داخل البئر حتى عمق حوالي خمس وعشرين قدمًا. وبعد ذلك، ونظرًا لأن ضوءه ما زال لا يُظهر شيئًا سوى جدران البئر، وكان المنظر محجوبًا إلى حد ما من قبل الخزانة، فقد قرر فيتلوورث النزول والاستكشاف.

قالت كاثرين: «أفترض أن السلم بحالة جيدة؟»

أجاب: «يبدو أن الأمر كذلك، إن الدرجات صَدِئة، لكنها تبدو صلبة وقوية تمامًا، وثقي بأني سأكون حذرًا للغاية.»

وهكذا، وقف على حافة الهاوية وبدأ ينزل ببطء، بينما تُراقبه المرأتان بقلق من الأعلى، وهو يختبر كل درجة بحذر بقدمه قبل أن يُلقي بثقله عليها. وأثناء مروره بالخزانة المعلقة، جاءه صوت سيمبسون من الأسفل متسائلًا:

«هل هذا أنت يا وارين؟»

أجابه فيتلوورث: «لا.» واستمر في النزول.

فسأل سيمبسون: «هل أنت بيل؟»

أجاب فيتلوورث مرة أخرى بالنفي، لكنه سجل الاسم في ذاكرته. وأثناء مروره بالمصباح، رأى أنه قد توقف على ارتفاع ستة أقدام أو سبعة من قاع البئر، الذي كان مغطًّى بكومة كبيرة من الخِرَق القديمة والقش والأغصان المتعفنة، التي أُلقِيَت على ما يبدو من قِبل شخص يتسم بالإنسانية للتخفيف من حدة آثار السقوط العرَضي. وفي أحد الجوانب كان هناك مدخل ضيق، منحوت في الحجر الجيري، ينفتح على درجات سلم، وعلى الدرجة العلوية جلس رجل يُحاول معالجة إصابة قدمه العارية.

كان لقاءً غريبًا. حيث انعكس ضوء المصباح على جدران التجويف الضيق، مما جعل الرجلَين مرئيَّين بوضوح لبعضهما البعض، وقد عرَفه فيتلوورث على الفور. و«ميَّزه» دون صعوبة، لكن من الواضح أن الآخر كان في حيرة.

قال الرجل وهو ينظر إلى فيتلوورث متفحصًا: «أظن أني قد رأيتك من قبل، ولكن ترى؛ أين التقيت بك؟»

أجاب فيتلوورث: «في المعرض الوطني.» وبينما ارتسم على وجه الرجل تعبيرٌ لا لبس فيه ينم عن التحفز، أضاف: «لم آتِ بنوايا معادية. سنتحدث عن أعمالنا الصغيرة لاحقًا؛ في الوقت الحاضر علينا التفكير في كيفية إخراجك من هذه البئر.»

قال سيمبسون: «أخشى أنني لا أستطيع تسلق السلم.»

أجاب فيتلوورث: «بالطبع لا يُمكنك ذلك، علينا أن نسحبك لأعلى. ولكن إذا ربطتك في طرف الحبل، يُمكنك مساعدتُنا في ذلك عن طريق سحب نفسك بيدَيك. ما رأيك؟»

اعتقد سيمبسون أن الخطة ستنجح على نحو جيد، فشرع فيتلوورث على الفور في تنفيذها. أولًا، نادى على كاثرين لإنزال الحبل أكثر من هذا بمقدار اثنتَي عشرة قدمًا. وبعد ذلك، قام بفك المصباح من طرف الحبل، وصنع به عقدة مقوسة جيدة الحجم، وثبَّتها حول فخِذَي سيمبسون.

ثم قال: «وهكذا، سأصعد الآن وأُساعدهم على الرفع، وعندما أُنادي عليك، أمسك بالسلم واجلس في حلقة الحبل. وأثناء قيامنا بالسحب، يجب أن ترفع نفسك على السلم، وكن حذرًا حتى لا تُصدَم قدمك المصابة، التي يجب أن نُعالجها بمجرد أن ننتشلك من هنا.»

قال سيمبسون: «هذا نبلٌ منك.» لكن فيتلوورث، اعتبر أن هذا لم يكن وقتًا مناسبًا للمجاملات، فبدأ في الصعود مرة أخرى على السلم. وعندما صعد إلى أرضية القاعة، شرح الترتيبات بإيجاز لمساعِدتَيه، وبعد ذلك، صاح ليُنبه الرجل المحتجز داخل البئر، ثم بدأ

الثلاثة في سحب الحبل بثبات. ربما هي تجرِبة غير مريحة لسيمبسون، لكن الخطة كانت فعَّالة للغاية، وفي غضون دقيقة أو نحو ذلك ظهر الأسير في الجزء العلوي من البئر، وتم مساعدته برفق على الحافة الخطرة.

وبينما كان يقف على قدم واحدة بمساعدة فيتلوورث، حدَّق في الغرفة بارتباك، وسأل: «أين الآخرون؟ أعني وارن وبيل.»

أجاب فيتلوورث: «لقد ذهبا إلى مارجيت، لكنهم سيعودون قريبًا. في غضون ذلك، إذا استطاعت السيدة راتشيل أن تُوفر لنا غرفة نوم، فستتمكَّن من الحصول على بعض الراحة بينما نستدعي طبيبًا.»

قالت راتشيل: «هناك غرفة نوم إضافية فوق هذه القاعة، ولأنها مرتبة على نحو جيد، يُمكننا اصطحاب السيد سيمبسون إلى هناك في الحال، وبعد ذلك يُمكن للصبي أن ينطلق على دراجته ويُحضر الدكتور فينلي.»

قال سيمبسون: «بالطبع، إنه لأمر ينم عن نبل شديد منكم جميعًا أن تتحملوا الكثير من المتاعب من أجلي. إنه أكثر مما أستحق، بعد ...» ثم توقف لينظر بريبة إلى راتشيل، التي، من جانبها، بدَت بلا تعبير كلوحة منحوتة تنم عن النبل والعطاء، بينما تقف صامتة.

قال فيتلوورث: «في الوقت الحاضر، سنقصر اهتمامنا على قدمك. وبعد العناية بها، ووصول أصدقائك، يُمكننا مناقشة الأمور الأخرى.»

وبمجرد أن استقر سيمبسون بشكل مريح في غرفة النوم المريحة ذات الطراز القديم، مع وضع منديل مبلل على كاحله، عاد الجمع إلى قاعة المستشار.

سألت كاثرين: «حسنًا، ما هو الشيء التالي الذي يجب عمله؟»

قال فيتلوورث: «الشيء التالي هو القيام ببعض الاستكشاف لحسابنا الخاص. من الواضح أن هناك غرفة أو نفقًا في أسفل البئر، وأنا أقترح النزول لمعرفة ما بداخلها.»

قالت كاثرين: «إذن سأنزل معك أنا أيضًا.»

احتجت راتشيل بشدة على هذا. وصاحت قائلة: «من الأفضل ألا تفعلي هذا يا آنستي، لنفترض أنك سقطت عن السلم!»

أضافت كاثرين وهي تحاول إقناع فيتلوورث: «لن أفترض أيَّ شيء من هذا القبيل يا راتشيل. ستدعني أنزل، أليس كذلك يا جو؟»

أجاب فيتلوورث: «ليس لديَّ مانع، إنه سلم سهل للغاية. لكننا نُريد من راتشيل أن تحرس مدخل الخزانة، لأننا لا نريد إزعاجًا من هذَين السيدَين الطيبَين؛ لذا فإنه يجب

إبلاغ الخادمة بأن عليها، إذا وصلا قبل أن ننتهي من استكشافاتنا، أن تصطحبهما إلى غرفة السيد سيمبسون، وتُبلغهما بأنَّ عليهما أن ينتظرانا هناك.»

تلقت راتشيل — التي كانت رافضة، لكنها مطيعة — التعليماتِ بالموافقة على مضض، وبعد أن نفذتها وأغلقت الباب من الداخل، أخذت مكانها على حافة البئر مع تعبير ينم عن تشاؤم عميق. أولًا، أُنزِل الحبل إلى موضعه السابق، وعندما ثبت فيتلوورث نفسه به، أمسك السلم ونزل بضع درجات؛ ثم أمسكت كاثرين بالحبل أيضًا بينما أمسكتها راتشيل بقلق، وتقدمت الخطوات الأولى المحفوفة بالمخاطر.

قالت كاثرين: «إنها حقًّا آمنة وسهلة يا راتشيل.» بينما تتشبث بعناد بالقضبان الصدئة وتهبط بحذر درجة تلو الأخرى؛ ومع هذا الحرص، شعرت الخادمة الوفية بالارتياح إلى حد ما، رغم أنها استمرت في مشاهدة اختفاء سيدتها الشابة في أعماق البئر بوجه علَته أمارات الخوف.

استغرق نزول السلم أكثر من دقيقة بقليل، وبعد أن وصلت كاثرين إلى قاع البئر أبلغت راتشيل بذلك حتى يطمئن قلبها.

قالت كاثرين، بينما كان فيتلوورث يحمل المصباح: «أفترض أنك لم ترَ شيئًا يدل على «الشيء» الغامض الذي نبحث عنه عندما كنت هنا من قبل؟»

أجابها: «لا، لكننا سنجده معًا يا كاتي؛ على الأقل، آمُل ذلك. احذري من درجات السلم تلك.»

ثم نزلا على درجات السلم شديدة الانحدار، المحاطة بفطريات رطبة ولزجة، ودخلا ممرًّا ضيقًا، يلفُّه الظلام، وتنحدر أرضيته بزاوية حادة. فرفع فيتلوورث المصباح لأعلى، وألقى بضوئه على الجدران المخضرَّة الرطبة والسقف المقبَّب الخشن. كان هناك شيء مثير للإعجاب بشكل غريب في منظر هذا النفق القديم، الذي ربما لم يدخله الضوء لعدة قرون، لكنه يلمع الآن من ضوء المصباح الخافت. لم تكن النباتات المخيفة التي تكسو الجدران هي فقط ما يدل على مرور زمن طويل منذ أن وطئت قدمُ إنسان هذا الممر، بل كان هناك بعض الأقماع الكلسية المتدلية من نتوءات على السقف، والكتل المخروطية المتلألئة التي بدأت تنبثق من الأرض. ولم يكن هناك أي آثار للزوار، باستثناء أنه في مكان واحد، تحت عباءة النباتات التي تُغطي أحد الجدران، يُمكن رؤية بعض الأحرف الأولى غير الواضحة مع رسمة قلب وتاريخ يُشير إلى عام ١٥٩٤. تقدم المستكشفان ببطء وهما يهبطان النفق المنحدر، ونزلا على درجات السلم التي تفصل بينها من آنٍ لآخر مساطبُ والتي وُضِعت

عند نقاط يتغير فيها اتجاه النفق، وحتى الآن لم يعثرا على أي دليل يُشير لوجود شيء مخفي أو مكان للإخفاء. وبعد مسافة طويلة، وأثناء نزولهم على درجات سلم آخر، وصلا إلى جزء من النفق طويل ومستقيم دون التواءات، وظهرت في نهايته بقعة لامعة من الضوء البارد الأزرق مقارنة بالضوء الأصفر للمصباح، بما يدل على أنه ضوء النهار. فسارعا إلى الأمام، وعبرا بوابة خشبية ضخمة سقطت من الخلف على مفصلاتها المهترئة، ووصلا إلى جدار مبني بغير حِرفية من الحجر الجيري ليسد النفق. كانت بقعة الضوء تنبعث من فتحةٍ سقط منها أحد الأحجار أو تناثر، ولم يجد فيتلوورث صعوبة في التسلق والنظر عبر الفتحة.

سألته كاثرين، عندما ظهرت ابتسامة باهتة على وجهه: «لماذا تبتسم يا جو؟»

كان رده هو النزول ومساعدتها على أن تحل محله. كان مشهدًا غريبًا للغاية رأته وهي تُطِل من خلال الفتحة؛ وسر غرابته هو التناقض مع جوِّ هذا النفق القديم الكئيب، الذي يلفه ظلام القبور والمفعم بالغموض وذكريات جيل مات ونُسِي منذ زمن طويل. لقد رأت كهفًا بحريًّا مع أرضية من الرمال تتناثر عليها الأعشاب، والشاطئ اللامع في الخلفية، وبالقرب من مدخله، وقف اثنان من العشاق العصريِّين؛ حيث ينحت الرجل الأحرف الأولى من اسمَيهما بجدية داخل قلب واضح للغاية، بينما وقفت المرأة بجانبه وهي تُشجعه بصيحات الإعجاب.

قال فيتلوورث، بينما نزلت كاثرين من أعلى الحائط: «إذن، إن العالم ما زال لعوبًا في أيامنا كما كان في عام ١٥٩٤. ولكن، مع ذلك، يبدو أننا قد وصلنا لنهاية استكشافاتنا، وما زال «الشيء» الغامض غير معروف. الآن، أتمنى لو أنني لم أتعامل مع وارن بكل هذا الصلف.»

قالت كاثرين: «لكن من المؤكد أنه مخبَّأ هنا، في مكان ما من هذا النفق.»

«هذا ليس منطقيًّا على الإطلاق. إن الغرض من هذه الأعمال واضح جدًّا، لا سيما عندما نعتبر أن النفق قد حُفِر على الأقل في وقت مبكر من حكم الملكة إليزابيث. إنه يُشكل نفق هروب ومصيدة موت في الوقت نفسه. أترين أننا ننظر بالقرب من سقف الكهف، ومن المحتمل أن يكون هذا الجدار مبنيًّا على مجموعة من درجات سلم. لقد كانت الفكرة بوضوح أن كاثوليكيًّا، أو بروتستانتيًّا، كما قد تكون الحالة، يُمكنه الهروب عبر البئر والخروج من الكهف إلى قارب. وإذا اكتشف المطاردون سر الخزانة، فمن المحتمل أن يتم إطلاق النار عليهم وقتلهم أسفل البئر؛ وحتى لو نزلوا عبر السلم، يُمكن أن يتعرضوا لكمين عند أيٍّ من هذه المنعطفات الحادة في النفق.»

قالت كاثرين بنبرة محبطة: «إذن، هل تعتقد أن «الشيء» الغامض قد يكون مخفيًّا في جزء آخر من المنزل؟»

أجاب فيتلوورث: «أخشى أن يكون هذا ما يبدو عليه الأمر، وبما أننا لا نعرف ما هو «الشيء» الغامض أو ما قد يكون حجمه، فإن العثور عليه ليس مفعمًا بالأمل.»

ومِن ثَم التفَّا وعادا أدراجَهما ببطء عبر النفق المتعرج، وبينما هما عائدان، تحدثا قليلًا وفكَّرا كثيرًا. وعنما وصلا إلى قاع البئر، وبينما غرق فيتلوورث في التفكير، ربط المصباح في طرف الحبل، ونادى على راتشيل كي تسحبه إلى مستوى الخزانة. ثم قررا الصعود، وصعدت كاثرين أولًا.

عندما وصلا إلى مستوى الخزانة، توقف فيتلوورث ونظر حوله.

قال: «انتظري لحظة يا كاتي؛ سأقوم بتجربة صغيرة.»

توقفت كاثرين في صعودها ونظرت إليه بفضول، فرأته يمد يده ويُمسك بأحد كيسَي التراب. وسحبه بقوة من على الرف فسقط إلى أسفل وارتطم بصوت مكتوم.

صاحت كاثرين: «كن حذرًا يا جو! إنك بذلك ستجعل الخزانة ترتفع وتُغلَق علينا.»

أجابها: «إنني أريدها أن ترتفع قليلًا.» ثم نزل بضع درجات، ووضع يده في أسفل الخزانة ودفعها بثبات إلى أعلى؛ وحيث إن الخزانة قد تحررت من جزء من وزنها، لذا ارتفعت بمقدار ثلاث أقدام أو أربع لأعلى ثم استقرت مرة أخرى.

صاح فيتلوورث بحماس: «يوريكا! إنني على حق. اعتقدت أن أصدقاءنا الكتومين لن يُضيعوا مثل هذه الفرصة الممتازة.»

تتبَّع الخزانة وصعد بضع خطوات، وأعطاها دفعة أخرى، ورفعها على ارتفاع ست أقدام. فأطلقت كاثرين صرخة فرح صغيرة. إذ في جانب البئر، في الموضع الذي كان مختفيًا وراء الخزانة المعلقة، كان هناك تجويف عميق، مزود بمقابض حديدية، وله مدخل ضيق. فأمسك فيتلوورث بأحد المقابض، وصعد على حافة التجويف ودخل المدخل.

أمرته كاثرين قائلة: «لن تدخل بدوني.» ونزلت بضع درجات بسرعة كبيرة.

قال فيتلوورث: «حسنًا، ناوليني المصباح، وتمسَّكي جيدًا بهذا المقبض قبل أن تقفي على الحافة.»

أخذ منها المصباح، وتراجع إلى المدخل، ثم راقبها بقلق وهي تعبر إلى الحافة. فعبرت بسلام، ودخل عبر المدخل حاملًا المصباح، فتبعته إلى ممر قصير، ومنه إلى غرفة صغيرة مربعة. وبينما كان يستدير ويحمل المصباح عاليًا، أطلق كلاهما صيحة فرح؛ لأن نظرة

واحدة داخل الحجيرة الصغيرة، أظهرت أنهما قد وجدا الشيء الذي يبحثان عنه. فهناك على أرضية الحجيرة، بالقرب من أحد الجدران، وفوق قطع من الحجر الجيري وبعيدًا عن سطح الأرضية الرطبة، وُضِعت ثلاثة صناديق رديئة الصنع، مثبتة بأشرطة حديدية ومغلقة بأقفال ضخمة. فسلَّط فيتلوورث ضوء المصباح على كلٍّ منها على التوالي. كان لها جميعًا نفس الصناعة الرديئة، كما لو أن نجارَ سفينة هو من صنعها، وقد نُقِش على غطاء كلٍّ منهم، نفس النقش: «شيب، جيمس وماري. ستو في لازاريت»؛ ثم بحروف منقطة، كأنها وضعت بخرامة أو مسمار ثقب، «حصة جلالة الملك، دبليو. بي.»

قال فيتلوورث متأملًا: «دبليو. بي.» «إنها الأحرف الأولى من اسم السير ويليام فيبس، أيًّا كان. والآن، السؤال هو، لمن هذه الممتلكات؟ إنها حصة جلالة الملك، لكن هل سلمها الملك إلى السير أندرياس كهدية، أم فقط ليحفظها في عهدته؟»

تساءلت كاثرين، مع التجاهل الأنثوي لهذه التفاصيل الدقيقة: «هل يُهمنا ذلك؟»

أجاب فيتلوورث: «نعم، يُهمنا، إذا كانت مِلكًا للسير أندرياس، فستُصبح مِلكية خاصة بك، ولكن إذا كانت ملكًا للملك، فهي كنز دفين.»

صاحت كاثرين: «هذا سخف، إذ إن عائلة الملك جيمس قد اندثرت، لذلك ليس هناك شك حول ورثته؛ ومن يعثر على الكنز يحق له الاحتفاظ به. علاوة على ذلك، إنه في منزلي وقد وضعه جدي الأكبر هنا.»

ضحك فيتلوورث قائلًا: «أنت فتاة صغيرة غير أمينة!» إذ كانت آراؤه الخاصة حول الجوانب الأخلاقية بخصوص قواعد العثور على كنز دفين مماثلة إلى حد كبير لتلك الخاصة بمعظم الرجال الراشدين الآخرين، ثم أضاف: «ولكن ربما تُعطينا الوثيقة بعض المعلومات الإضافية. وعلى أي حال، إنه أمر جيد أن نجد «الشيء» الغامض بأنفسنا. والآن من الأفضل لنا أن نذهب ونرى ما إذا كان بدلاؤنا قد وصلوا أم لا.»

ومِن ثَم ساعد كاثرين على الوصول إلى السلم، وعندما خرجا من البئر، شعرت راتشيل براحة لا تُوصَف؛ إذ إن جرس الباب الأمامي قد رن.

فقالت: «لا بد أن هذا هو السيد فيرس وصديقه، فقد جاء الطبيب ثم غادر مرة أخرى.»

قال فيتلوورث: «إذن، من الأفضل اصطحابهما إلى غرفة السيد سيمبسون، وعندما يُصبحون مستعدين لرؤيتنا، ربما تتفضلين بإبلاغنا.»

ثم أغلق باب الخزانة، وعندما غادرت راتشيل لتفعل ما قاله لها، سحب كرسيَّين إلى المائدة.

فقالت كاثرين: «هناك شيء واحد أريد أن أقوله لك، بالطبع لقد وجدنا هذه الملكية، أيًّا كانت، بأنفسنا، لكن لم نكن سنعثر عليها مطلقًا لولا وجودُ هؤلاء الرجال الثلاثة؛ فهم المكتشفون الحقيقيون.»

وافقها فيتلوورث الرأي بشكل جاف إلى حد ما، فاستطردت كاثرين: «لقد واجَهوا الكثير من المتاعب يا جو، وكانوا في غاية المهارة والذكاء، وعندما تدخَّلنا في الأمر كانوا على وشك الفوز بالمكافأة على كل عملهم.»

اعترض فيتلوورث قائلًا: «لكنهم لم يستطيعوا العثور على المخبأ.»

«هذا صحيح، لكنني متأكدة من أنهم كانوا سيعثرون عليه. من الواضح أنهم رجال أذكياء للغاية، تقريبًا في مثل ذكائك يا جو.»

ضحك فيتلوورث: «وأكثر ذكاءً مني، عليَّ أن أُقر بذلك، لقد تمكنوا من خداعي بمهارة فائقة في المعرض.»

قالت كاثرين متجاهلة ذلك: «حسنًا، على أي حال، لقد اكتشفوا الكنز بمهارة مطلقة، وواجهوا مشاكل لا حصر لها، وستكون خيبة أمل مروعة لهؤلاء المساكين أن يتم انتزاعه منهم في اللحظة الأخيرة.»

قال فيتلوورث: «حسنًا؟» كما توقفت كاثرين وهي تسأله بحزم:

«حسنًا؟ ألا تعتقد أننا يجب أن نسمح لهم على الأقل بنصيب معقول من محتوى الصناديق، أيًّا كان؟»

ابتسم فيتلوورث على مضض وهو يقول: «إنه أكثر عمل مخالفٍ للقواعد تمامًا يا كاتي. ففي المقام الأول، أنا، كموظف مسئول في المعرض، أعتقد أن استلام الممتلكات المسروقة، والتي أتخيل أننا لن نُعيدها إلى مالك اللوحة، يُعتبَر جناية.»

قالت كاثرين: «بالتأكيد لن نُعيدها؛ إنها ليست ملكه. إنها ملكي.»

ثم تابع فيتلوورث: «ثم نقترح إجراء اتفاق غير قانوني تمامًا مع اللصوص للتنازل عن ملكية كنز معين هو في الأساس ملك للأسرة الحاكمة.»

صاحت كاثرين: «أوه، توقف عن هذا الكلام يا جو! إنها ممتلكاتي، أو على الأقل ممتلكاتنا، وسوف نحتفظ بها، أنت تعلم أننا سنفعل ذلك. والآن، كم سنمنح هؤلاء البؤساء؟»

قال فيتلوورث بابتسامة: «إنها ملكيتك يا كيت؛ على الأقل، أنت تقولين إنها كذلك، لذلك يجب أن تُقرري أنت.»

قالت: «حسنًا، لنُفكر. هناك ثلاثة صناديق، واحد لك، وواحد لي والآخر لهم. ما رأيك في ذلك؟»

كان فيتلوورث، على الرغم من موافقته سرًّا، على استعداد لتبني الموقف الجدالي كما لو كان وصيًّا أو مستشارًا. لكن كاثرين استشفَّت موافقته على الفور.

فقالت متجاهلة احتجاجاته: «أنا سعيدة لأنك تُوافقني الرأي، سنستمتع بمكاسبنا المفاجئة أكثر بكثير إذا لم نكن جشعين. لذلك لقد تمت تسوية الأمر. وأعتقد أنني أسمع راتشيل قادمة.»

بعد لحظة دخلت الخادمة لتُعلن أن السيد فيرس وأصدقاءه مستعدون لرؤيتهم، فانتقلا على الفور إلى غرفة النوم بالطابق العلوي.

قالت كاثرين بينما يدخلان إلى الغرفة: «آمُل أن يكون الطبيب قد قدَّم تقريرًا إيجابيًّا عن حالة ساقك، وأنك تشعر بألم أقل الآن يا سيد سيمبسون.»

أجابها: «شكرًا لك، أنا مرتاح تمامًا الآن. يبدو أنه كان في نهاية الأمر مجرد التواء شديد.»

هنَّأته كاثرين على نجاته، ثم افتتح السيد فيرس — أو وارن — الحديث حول أمر الكنز بحماس واضح قائلًا:

«والآن يا سيدي فإن صديقي، بيدلي، سيمبسون سابقًا، موافق تمامًا على أن يُعطيكما الصندوق ومحتوياته وفقًا للشروط المذكورة، والتي، مع ذلك، يجب أن تتضمَّن حصانة من أي إجراءات ذات صلة باللوحة.»

قال فيتلوورث: «فيما يتعلق بي أنا، أنا أوافق، على الرغم من أن مثل هذا الاتفاق غير قانوني تمامًا، كما تعلمون. لكن التسوية تمت بيننا بسرية ولا داعي للذهاب إلى أبعدَ من ذلك.»

قال وارن: «هذا صحيح، ولكن هل يعرف أي شخص غير الآنسة هايد أنكما كنتما تتعقَّبان مسارنا؟»

«لا، لقد تصرفنا في سرية تامة، وبما أن اللوحة قد أُعيدت للمعرض، فمن غير المحتمل أن تتخذ السلطات أي إجراء.»

قال وارن: «إذن في هذه الحالة، وحيث إنكما قد وافقتما على شروطنا، سأُسلم الملكية إلى الآنسة هايد، وسأُرسل لك كشف حساب بما أنفقناه لاحقًا.»

وفي ختام حديثه أخرج من جيبه علبة ورقية صغيرة، وفتحها، ليُخرج منها صندوقًا ذهبيًّا صغيرًا عاديًّا، يُشبه إلى حدٍّ ما علبة سيجار مسطحة للغاية، وسلمها إلى كاثرين.

ثم قال: «إن الوثيقة موجودة في الداخل؛ ويُمكنني القول يا سيدتي، إنني أعتقد أنك ستجدينها وثيقة شيقة للغاية.»

بعد أن شكرته كاثرين، فتحت الصندوق الصغير وأخذت منه ورقة رقيقة جدًّا، مطوية مرتَين، ومغطاة بكتابات قديمة الطراز وباهتة للغاية. ففتحت الورقة، ومرَّت عيناها على الكتابة بسرعة، ثم سلمت الوثيقة إلى فيتلوورث وهي تقول: «ربما من الأفضل أن تقرأها بصوت عالٍ.» أخذ فيتلوورث الورقة وفحصها بفضول. حيث وجد على جانب منها ما يبدو أنه قائمة أو جدول زمني؛ بينما كُتِبت الوثيقة على الجانب الآخر، فبدأ فيتلوورث قراءة ذلك الجانب:

> من جيمس، بفضل الإله، ملك إنجلترا واسكتلندا وفرنسا وأيرلندا، إلى المخلص والمحبوب أندرياس هايد وجميع الأشخاص الآخرين الذين قد يكونوا معنيِّين بهذه الهدايا. حيث إن السير أندرياس هايد في مناسبات مختلفة قد أسهَم بمبالغ مالية متنوعة لاستخدامنا وخدمتنا؛ الآن ننقل إلى السير أندرياس نصيبنا من الكنز الذي استخرجه الكابتن السير ويليام فيبس حاكم نيو إنجلاند من السفينة الإسبانية الغارقة في هيسبانيولا، حيث بلغت حصة السير أندرياس ثلاثون ألف جنيه إسترليني كما هو منصوص عليه في الجزء الخلفي من هذه الوثيقة ليتم التصرف فيه بالطريقة التالية؛ حيث يجب حفظ هذا الكنز بواسطة السير أندرياس في مكان آمن وسري ليظل سليمًا كي نستخدمه حسب الحاجة أثناء الوقت الحاضر في ظل الاضطرابات المستمرة؛ كما يظل محفوظًا إذا دعت الحاجة خلال حياتنا ثم حياة ابننا جيمس أمير ويلز؛ ليتم إرجاعه بأمانة إلينا أو إلى الأمير جيمس الثاني بناءً على مطلبنا أو مطلبه حسبما تقتضيه ضرورتنا أو ضرورته. ولكن عند موتنا وموت الأمير، فإن الكنز يعود بشكل مطلق وتصبح الملكية منفردة للسير أندرياس هايد أو ورثته.
>
> مُنح بأيدينا في قصر القاعة البيضاء
> في اليوم العشرين من شهر سبتمبر عام ١٦٨٨
> جيمس آر

عندما أنهى فيتلوورث القراءة، نظر إلى كاثرين مليًّا، وأعطى السيد وارين إيماءة بالموافقة. فقال الأخير: «هكذا ترين يا آنسة هايد، أنه ليس هناك نزاع حول الكنز. إنه

ملكية منفردة لك، إذا كنت تعرفين مكان العثور عليه. ولست بحاجة للقول إننا إذا كنا قد علمنا بوجودك، لكُنا أبلغناك بمسعانا. لكننا بحماقة نوعًا ما، افترضنا أنه لم يكن هناك ورثة على قيد الحياة، وأن العائلة قد اندثرت، وبالطبع، فإن القوانين القديمة حول البحث عن الكنوز لا تروق كثيرًا للأمريكيين.»

قالت كاثرين: «بالطبع، هل يُمكننا أن نرى ما في الجانب الآخر؟»

قلب فيتلوورث الوثيقة وبدأ في قراءة المكتوب على ظهرها:

ثلاثة صناديق تحتوي على حصة الملك من كنز الكابتن فيبس على النحو التالي:

الصندوق الأول يحتوي على،

واحد وعشرين سبيكةً من الذهب.

حقيبتَين كبيرتَين من قطع الثمانية جرامات.

ستة طرود من غبار الذهب.

ثلاثة أكياس من العملات الذهبية.

كيس واحد به مائتا لؤلؤةٍ كبيرة.

«حقيبتين من الجواهر غير المصقولة (متنوعة)».

عند هذه النقطة، توقف فيتلوورث مؤقتًا، وتساءل: «هل يستحق الأمر أن نقرأ القائمة؟ أعتقد أن علينا التحققَ من محتويات الصناديق على الفور، ونعرف القيمة الإجمالية.»

قال وارن: «نعم، أظن أنك ستجد ما يكفي لدفع نفقاتنا الصغيرة، مع ربح بسيط. وهذا يُذكرني بأنه ينبغي لنا، إن أمكن، الحصولُ على مبلغ — الذي نُقدره بمائتَي جنيه — من المحتويات الفعلية لتلك الصناديق. لقد كانت حلمًا جميلًا صغيرًا بالنسبة إلينا، ونودُّ الحصول على بعض التذكارات منه.»

نظرت كاثرين مليًّا نحو فيتلوورث، الذي قال بعد ذلك: «أعتقد أن الآنسة هايد تتمنى أن تعتبروا أنفسكم شركاءَ في مشروع البحث عن الكنز، وأن تأخذوا نصيبًا معتبرًا منه ...»

قالت كاثرين: «الثلث، إذا كنتم ترون أنها قسمة عادلة.»

صاح وارن: «عادلة! إنها أكثر بكثير من كونها عادلة، إنها سخية للغاية؛ لكنني حقًّا لا ...»

قاطعته كاثرين: «كما تعلم، فأنتم حقًّا مَن اكتشف الكنز، وستبدو النهاية مروعة لحلمكم الجميل الصغير إذا لم تنالوا سوى نصيب قليل تافه.»

كان وارن على وشك الاحتجاج، لكن كاثرين واصلت قائلة: «سنكون غيرَ سعداء للغاية إذا لم تأخذوا نصيبًا عادلًا. تذكر، لم نكن سنعرف أي شيء عن الكنز لولا مهارتكم، والطريقة الجريئة التي استعرتم بها تلك اللوحة. تعالَ يا سيد وارين، سأشترط عليك شرطًا؛ ستُخبرنا كيف اكتشفت الكنز، ثم تُساعدنا في استخراج الصناديق.»

في ظل هذا الشرط البسيط، وافق الأمريكيون الثلاثة بعد مزيد من الاحتجاجات والمشاورات بينهم، ثم سأل سيمبسون، أو على وجه الدقة بيدلي: «أفترض أن الصناديق مخبأة في ذلك المكان في قاع البئر؟»

أجاب فيتلوورث: «لا، ليست كذلك، إنها في مكان يقع على عمقٍ أقلَّ من منتصف البئر؛ ولكن آمُل أن تكون قادرًا على الوجود عند رفعها، وهو الأمر التالي الذي يتعين علينا التفكير فيه، وهو أمر متعب إلى حد ما، كما أتوقع.»

ومع ذلك، تبين أن الأمر أقل إزعاجًا مما توقعه فيتلوورث؛ لأن السادة الأمريكيين الثلاثة المغامرين، بعد أن قرَءوا المخزون، وعرَفوا طبيعة الكنز، زوَّدوا أنفسهم بالفعل بالمعدات اللازمة للتعامل مع الصناديق الثقيلة.

إذ كانوا قد خزنوا تلك المعدات، التي تتكون من نظام رفع قوي، ومجموعة من الرافعات المتسلسلة، وبعض البكرات الخشبية، وواحدة أو اثنتَين من العتلات، في فندقهم، ومن هناك شرع وارين وبيل في إحضارها دون تأخير. ثم نُقِل بيدلي، وقد وُضِعت قدمه في جبيرة، إلى قاعة المستشار، وبعد إغلاق مزلاج الباب، بدأت عمليات الانتشال على الفور. حيث رُبِط نظام الرفع بالسلسلة البرونزية الكبيرة التي تتعلق عليها الخِزانة، وتم سحب الصناديق، واحدًا تلو الآخر، وهي مثبتة في الرافعات، ثم سُحِبت على بكرات إلى الفتحة على جانب البئر، وأخيرًا رُفِعت إلى أرضية القاعة.

لا شك في أن القاعة العريقة قد شهدت العديد من المشاهد الغريبة، ولكن ليس هناك أغرب من ذلك المشهد الذي كشفه ضوء المصباح المعلَّق والشموع التي أُشعِلت في الشمعدانات الفضية القديمة. كانت الصناديق الثلاثة قد فُتِحت عنوةً، على الرغم من أقفالها الضخمة، باستخدام العتلات القوية، ووضعت فارغة في أحد أركان القاعة، بينما المتآمرون الخمسة، الجالسون حول المائدة القديمة، يُحدقون في كنز ضخم جعل حتى أرجله القوية تصرخ احتجاجًا. إذ يحتوي على سبائك من الذهب — باهتة، وملساء — وأكياس من غبار الذهب، وجواهر غير مصقولة وعملات عتيقة، تدعو لابتسامة واسعة، مع أكوام من

الخواتم والحُلي والمجوهرات ذات الطابع الكنسي مما يدعو للريبة حول مصدرها. وعلى رأس المائدة جلست كاثرين، وأمامها محتويات الصناديق، تتحقق من العناصر كما سماها فيتلوورث، بطريقة المزادات المثيرة للإعجاب. كان الوقت قد أصبح متأخرًا من الليل قبل اختتام الحفل؛ حيث قُسِمت الغنيمة إلى ثلاثة أجزاء متساوية تقريبًا، ثم أُعيدَت الأجزاء إلى الصناديق، حيث خُصِّص صندوق منها للمغامرين الثلاثة، ووُضِعت عليه علامة تُميزه، ثم أُغلِق بإحكام باستخدام الحبال، وأصبح جاهزًا للنقل.

قال فيتلوورث: «هناك شيء واحد أود أن أعرفه قبل أن نفترق. لقد فهمت جيدًا كيف توصلتم لمسار الكنز، لكني لم أفهم كيف تأكدتم من وجود الصندوق الذهبي داخل تلك الضلع تحديدًا من الإطار الخشبي. لقد لاحظت أنكم قد فككتم إطار قماش اللوحة من ضلع واحدة فقط، لذلك هناك احتمالان؛ إما أنكم كنتم تعلمونه مسبقًا، أو قمتم بتخمين محظوظ.»

ضحك وارن متباهيًا، ثم قال: «نحن الأمريكيين شعب تقدمي، ولدينا طريقة لتطبيق المعرفة العلمية الحديثة لتحقيق غايات مفيدة. ولم نكن نعرف مسبقًا مكان الصندوق الذهبي، ولم يكن علينا أن نُخمن. لقد أخذنا اللوحة، على حالتها، وذهبنا إلى معمل صانع آلات كهربائية، وطلبنا منه تمرير الأشعة السينية من خلالها، بينما نظرنا إليها من خلال شاشة فلورية. لم نتمكَّن من رؤية الكثير من اللوحة، ولكن رأينا الصندوق الذهبي واضحًا بدرجة كافية، لذلك قمنا بوضع علامة بالقلم الرصاص فوق موضعه على الورقة التي تم لف العلبة بها. هل هناك أي شيء آخر تود معرفته؟»

قال فيتلوورث: «إذا لم يكن سؤالي يبدو فضوليًّا، أعتقد أنه ينبغي لنا أن نعرف مع مَن سعدنا بمشاركة الكنز.»

فرك وارن ذقنه، وألقى نظرة فكاهية متسائلة على صديقَيه؛ ثم، بعد أن تلقى موافقة من كلٍّ منهما، أجاب: «نحن نتشارك بالفعل سرًّا أو اثنَين يا سيدي، وإذا ذكرت أن أحدنا هو أستاذ التاريخ في جامعة شهيرة في الولايات المتحدة وأن الاثنَين الآخَرين هما على التوالي أستاذ الهندسة المعمارية الأوروبية في نفس المؤسسة الأكاديمية، والآخر هو مدير متحف شهير، إذن، سنُصبح قد تشاركنا سرًّا إضافيًّا.»

وبعد مرور ثلاثة أيام وصلَت إلى بناية كابتن ديجبي، حيث كان فيتلوورث يُقيم، رسالةٌ من المدير يطلب منه فيها سحب استقالته. وهو أمر جعله يشعر بالسعادة، فسارع بإبلاغ كاثرين به. ولكن في غضون ذلك، تلقَّت هي أيضًا رسالة — من مستأجرةِ منزلها،

السيدة ماثيوز — تطلب السماح لها بإنهاء مدة الإيجار بعد شهر. فقرأت كاثرين رسالتها على مسامع فيتلوورث، وبعد ذلك وضعتها جانبًا، وسألته وهي شاردة الفكر نوعًا ما:

«ألم تقل ذات مرة يا جو إنك كنت تتمنى العيش في هذا المنزل العريق؟»

فأجاب: «أجل لقد قلت ذلك، وأنا أُكرره بشكل قاطع.»

قالت كاثرين: «إذن، سيتعين على السير جون قَبولُ استقالتك.»

الببغاء البرونزي

جلَس القَسُّ ديوداتس جولي على المنضدة القابلة للطيِّ التي وُضِع عليها الغداء، حيث ارتطمت رُكبته، وفقًا لعادته الثابتة، في الزاوية الحادة للساق السابعة من المنضدة.

فقالت زوجة رئيس الكنيسة: «أتمنى أن تبذل المزيد من الجهد لتُصبح أكثر حذرًا يا سيد جولي، لقد كدتَ أن تقلب برطمان الخردل وهذه البرطمانات تُسبب ضررًا كبيرًا للساق.»

قال القس، الذي يعمل مساعدًا لرئيس الكنيسة، مبتسمًا: «أوه، إن الأمر بسيط يا سيدة بودلي.»

فردت عليه بحدة: «أنا لا أتفق معك على الإطلاق.»

واصل السيد جولي كلامه مع ابتسامة تملُّق: «الأمر لا يُثير القلق ما دام جلد ساقي لم يُخدَش.»

قالت السيدة بودلي ببرود: «أنا أقصد ساق المنضدة.»

قال المساعد: «أوه، أستميحُكِ عذرًا يا سيدتي!» ثم استسلم في صمت، وقد احمرَّ وجهه خجلًا مثل جمبري خليج دبلن، وهو يُفكر في النصيب الذي قد يحصل عليه عند توزيع قطع لحم الضأن الخمس الموضوعة على المنضدة؛ نظرًا إلى وجود ثلاثة أفراد فقط هم مَن سيتناولون الغذاء. وقد مثلت هذه المشكلةُ موضعَ اهتمام عميق للسيد جولي، الذي يتمتع بشهية كبيرة بشكل ملحوظ بالنسبة إلى رجل مثله ضئيلِ الحجم للغاية، وكان ينتظر حلَّها بينما تُساوره شكوكٌ ناتجة عن خيبات أمل سابقة.

قالت زوجة الرئيس: «أتمنى ألا تكون جائعًا جدًّا يا سيد جولي.»

أجابها بعفوية ودماثة: «لا، ليس بشكل غير معتاد.» والحقيقة أنه جائع على الدوام، باستثناء فترات ما بعد اجتماعات الشاي الشهرية.

تابعت السيدة بودلي قائلة: «لأنني أرى أن ووكر قد طهى خمس قطع فقط، وتبدو قطعتك صغيرة إلى حد ما.»

فسارع السيد جولي قائلًا: «أوه، ستكون كافية تمامًا، شكرًا.» ثم أضاف ربما لسوء حظه: «إنها أكثر من كافية لأي شخص معتدل وقَنوع.»

أزاح القس أوجستس بودلي جريدة تشيرش تايمز من أمام وجهه ثم نظر نظرة متشككة إلى مُساعده؛ الذي أدرك فجأة غموض ملاحظته الأخيرة، فاحمرَّ وجهه خجلًا وقطع لنفسه شريحةً ضخمة من الخبز. ثم ساد صمت غير مريح استمر لبضع دقائق، وكسرته السيدة بودلي في النهاية وهي تقول:

«أريدك أن تذهب إلى ديلبري بعد ظهر اليوم يا سيد جولي، وتُؤديَ بعض المهام الصغيرة من أجلي.»

قال المساعد: «طبعًا يا سيدة بودلي. بكل سرور.»

«أريدك أن تتصل وترى ما إذا كانت الآنسة جوس قد أنهت العمل في قبعتي. وإذا كانت قد أنهتها، فمن الأفضل أن تُحضِرَها معك؛ إذ لا يُمكنني الاعتماد عليها مطلقًا، وأنا أُريد أن أرتديَ القبعة في حفلة حديقة هاولي جونز غدًا. وإذا لم تكن قد انتهت فعليك الانتظار حتى تنتهي. لا تُغادر بدونها.»

«لن أفعل يا سيدة بودلي، وسأكون حازمًا للغاية.»

«نعم كن حازمًا معها. ثم أُريدك أن تذهب إلى متجر مينيكين وتُحضر بَكرتَين من الخيط البُني الفاتح، وأربعَ كُرات من قطن الكروشيه وثمانيةَ ياردات من الدانتيل، من نفس النوع الذي اشتريته الأسبوع الماضي. وقد أخبرتني ووكر أن الجرافيت الأسود لديها قد نَفِد. لذا عليك أن تُحضر عبوتَين؛ وتذكَّر ألا تضَعهما في الجيب نفسِه مع الدانتيل. أوه، وحيث إنك ذاهبٌ إلى متجر الزيت، يُمكنك أيضًا إحضارُ برطمان من المخللات المشكَّلة. وبعد ذلك عليك الذَّهابُ إلى متجر دمسول وشراء بعضٍ من سمك الحدوق الطازج — ربما يُمكنك إحضاره معك أيضًا — ثم اذهب إلى متجر باركر واطلب منهم إرسال أربعة أرطال من الكمثرى، وتأكد من أنها طازَجة وليست ذابلة. ومن الأفضل أن تختارها بنفسك وتراها تُوزَن.»

قال المساعد: «سأفعل، وسأختارها بعناية.» وقد عقد العزم في قرارة نفسه على عدم الثقة في مجرد المظاهر الخارجية، التي غالبًا ما تكون خادعة.

قال رئيس الكنيسة: «أوه، وبالمناسبة، يا جولي، بما أنك ذاهب إلى المدينة، يُمكنك أيضًا أن تأخذ حذاء الرماية الخاصَّ بي معك، وتطلب من كروميل وضع رقعة صغيرة على النعل

وإصلاح الكعب. لن يستغرق الأمرُ وقتًا طويلًا. ربما يُمكنه إنجازُها في الوقت المناسب بحيث تُحضرها معك. اطلب منه المحاولة.»

قال المساعد: «سأفعل يا سيد بودلي، سأحثُّه على بذل قصارى جهده.»

قالت السيدة بودلي: «وما دمتَ ستذهب إلى ورشة كروميل، فسأُعطيك حذائي كي يُصلِحه، إنه بحاجةٍ إلى نعل وكعب؛ واطلب منه أن يَستخدم نوعًا من الجلد أفضلَ من المرة السابقة.»

وبعد مرور نصف الساعة مر السيد جولي عبر الملعب التابع للأكاديمية الداخلية للصفوة التي يُديرها القسُّ أوجستس بودلي. كان يحمل طردًا كبيرًا غيرَ متناسق وملفوفًا في ورق الجرائد، وبرغم ذلك سار بنشاطٍ كطالب مدرسة فرح بنهاية اليوم الدراسي. وبينما كان يرقص عبر الملعب الفارغ، جذب انتباهَه حشدٌ صغير من التلاميذ الذين تجمَّعوا بشكل ملحوظ حول صبيَّين أكبر سنًّا تُوحي تصرفاتُهما بأنهما على وشك العِراك. وبالفعل، عندما توقف لملاحظتهم، وجَّه أحدهم ضربة قوية أخطأَت هدفها على بُعد قدمٍ من أنف الصبي الآخر.

صاح المساعد المصدوم: «أوه! يا لك من ولد شقي! يا جوبلت! أنت يا جوبلت! هل تُدرك أنك كِدتَ أن تُصيب بايلز؟ وأنك ربما كنت ستُؤذيه بالفعل؟»

قال جوبلت: «لقد قصدتُ أن أُؤذيَه.»

«قصدت! أوه، يا لك من مخطئ! يا لك من شقي! إني أتوسَّل إليك، وأرجوك بجدِّية أن تكفَّ عن أعمال العنف الشائنة هذه.»

وقف لحظة ينظر بتعبيرٍ ينمُّ عن الرفض والتألُّم نحو الصبيَّين اللذَين رمَقاه بنظَرات استياءٍ وغضب. ومِن ثَم، حيث بدا أن الأعمال العدائية معلَّقة — مؤقتًا — سار ببطءٍ إلى البوابة. وبينما يضع المِفتاح في جيبه اصطدمَت ثمرةُ كُمَّثرى فاسدةٌ بعمود البوابة فتناثرَت عليه أجزاءٌ منها. فاستدار، ومسح معطفه بمنديله، وخاطب جمْعَ التلاميذ، والغريب أنهم جميعًا كانوا ينظرون في الاتجاه المعاكس.

«إن هذا سلوك سيئ. سيئ للغاية. لا بد أن أحدَكم قد ألقى تلك الكمَّثرى. إذا سألْتُكم عمن فعلها؛ فبهذا سأُغريكم كي تلجَئوا إلى المراوغة! لكن الكمَّثرى لا تطير من تلقاء نفسها، خاصة الفاسد منها.»

ومِن ثَم خرج من البوابة، فتبعَته قهقهةٌ مسموعة تبجَّحَت وهو يبتعد حتى صارت صيحةَ انتصار.

تعثرَت قدما المساعد وهو يسير بلا مبالاة في شارع القرية، وهو يتشبَّث بالطرد الخاص به ويُوزع ابتساماتٍ تنم عن اللطف تجاه سكان القرية. وعندما اقترب من سلم عبور الجدار الذي يَحدُّ الطريق إلى ديلبري، اشتدت ابتسامته من مجرد لطف إلى عاطفة إيجابية. إذ وقفَت سيدة صغيرة الحجم — صغيرة الحجم للغاية، في الواقع — بجانب السلَّم لتستريح وقد وضعَت سلة ضخمة لا تتناسب مع حجمها على الدرجة السفلى؛ ويُمكننا أن نُقِر أيضًا، وعلى الفور ودون إطناب، أن هذه السيدة لم تكن سوى الآنسة دوركاس شيبتون؛ والسيدة جولي في المستقبل.

أمسك المساعدُ الطرد بيد واحدة ومدَّ يده الأخرى بالتحية.

ثم صاح: «دوركاس يا عزيزتي! يا له من حظ سعيد أن تقودكِ الصدفة لِتَسيري في هذا الطريق!»

أجابت السيدة الصغيرة: «إنها ليست صدفة، لقد سمعت السيدة بودلي تقول إنها ستطلب منك الذَّهاب إلى ديلبري؛ لذلك قررت أن آتيَ وأُساعدك في رحلتك» (المسافة إلى ديلبري حوالي ثلاثة أميال ونصف) «وأرى ما إذا كنت قد جهزت نفسك للرحلة. لماذا لم تُحضر مظلتك؟»

فأوضح لها السيد جولي أنه سيَحمل بكِلتا يدَيه القبعةَ، والحذاء الطويل، وسمك الحدوق الطازج، والمخللات المتنوعة؛ لذا فلن يتمكَّنَ من الإمساك بالمظلة على النحو الصحيح.

قالت دوركاس: «هذا صحيح، لكن آمُل أن تكون قد ارتديت واقيَ صدرك ونعلَي الفلِّين التي أعطيتها لك.»

فأكد لها السيد جولي أنه قد اتخذ هذه الاحتياطاتِ اللازمة.

«وهل دلكت كعبَي الحذاء جيدًا بالصابون قبل أن ترتديَه؟»

أجابها المساعد: «نعم، تمامًا؛ تمامًا. إنهما يلتصقان قليلًا في الوقت الحالي، لكنني سأشعر بالفائدة مع الوقت. لقد امتثلت لتعليماتك حرفيًّا.»

قالت الآنسة دوركاس: «حسنًا يا ديوداتس، وبما أنك كنت مطيعًا للغاية، فستحصل على مكافأة صغيرة.»

ثم رفعَت غِطاء السلة وأخذت كيسًا ورقيًّا صغيرًا وأعطته له مع ابتسامة إعجاب. ففتح المساعد الكيس وتفحصه مترقبًا.

وصاح: «ها! حلوى عين الثور! هذا لطيف! هذا لطفٌ منكِ يا دوركاس! ويا له من ذوق!» (كانت حلوى عين الثور تُمثل أفضل متعة له) «ألن تأخذي واحدة؟»

أجابت دوركاس: «لا، شكرًا لك، لا ينبغي أن أدخل أكواخ الفقراء بينما تنبعث مني رائحة النَّعناع.»

قال ديوداتس: «لِمَ لا؟ أنا أفعل. وأعتقد أن المساكين يستمتعون بالرائحة، وخاصة الأطفال.»

لكن دوركاس كانت مصرة. وبعد المزيد من الزقزقة والتغريد، تبادلَ الشخصان الضئيلان وداعًا حَنونًا؛ ثم سار المساعد مبتعِدًا عبر الطريق، وهو يمضَغ قطعة الحلوى في فمه ويمَصها في سعادة.

لسنا في حاجة للقول إن قبعة السيدة بودلي لم تكن قد انتهت بعد. وقد نفَّذ المساعد، بشكل غير حكيم، جميعَ مهامه الأخرى قبل الاتصال بصانعة القبعات؛ حيث طلب الكمَّثرى، وتذوق ثمرةً أو اثنتَين كي يختبر جودتها؛ وطلب من الإسكافي إرسال حذاء رئيس الكنيسة إلى متجر القبعات؛ ثم اشترى الدانتيل والجرافيت والقطن، والمخللات وسمك الحدوق الطازَج، وحملها بزهوٍ إلى مقرِّ الآنسة جوس. حيث تبيَّن له أن القبعة لن تُصبح جاهزة قبل الساعة السابعة مساءً. لكن يبدو أيضًا أن الشاي سيُصبح جاهزًا في غضون بضع دقائق. وبِناءً على ذلك، انتظر المساعد ليتشارك تلك الوجبة في غرفة العمل، بصحبة الآنسة جوس و«يدَيها»؛ وبعد أن أكل حتى التُّخمة من اللفائف الفرنسية والكعك، ترك مشترياته المختلفةَ وخرج ليُضيع بعض الوقت ويستمتع بمعالم مدينة ديلبري، ولكنه لم يكن ينوي الإغراق في الاستمتاع!

بعد ساعة أو نحو ذلك من التَّجوال في أرجاء المدينة، قادته خُطاه إلى رصيف الميناء، حيث كان مسرورًا بمشهد سفينة عسكرية عائدة من غرب أفريقيا، وهي تُفرغ ركابها. وقد احتشد الجنود الذين يرتدون ملابس الكاكي على سلَّم السفينة وألقَوُا التحية عليه مبتهِجين بينما جلس على مربط الحبال وهو يُراقبهم. وقد سأله أحدهم عمَّا إذا كانت أمه — أم السيد جولي — تعرف أنه قد خرج من البيت؛ وهو ما اعتقده المساعد منتهى اللطف والاهتمام من الرجل. لكن أكثر ما أثار إعجابَه هو مظهر القس الملحَق بتلك القوات. فقد بدا رجل كنيسة مميزًا ووقورًا ذا أنفٍ نُحاسي مهيب، شعر بسعادة غامرة عند عودته لوطنه لدرجة أنه غنَّى بصوت عالٍ؛ وفي الواقع، بدا أن عواطفه قد أثرت بالفعل على ساقَيه، لأن مشيته كانت غير مستقرة تمامًا. وقد أثر ذلك في السيد جولي بعمق.

وبعد أن غادر الجنود الميناء، اتجه جولي ببطء نحو البوابات؛ لكنه لم يكد يقطع مسافة عشرين ياردة عندما انجذبت عينُه نحو جسم صغير مُلقًى على العُشب الكثيف

الذي نما بين أحجار الرصف غير المنتظمة للرصيف. فانحنى لالتقاطه، وعندئذٍ أطلق صيحة ابتهاج. فقد وجد تمثالًا صغيرًا لببغاء، مصنوعًا بشكل جذاب من البرونز ولا يزيد ارتفاعُه عن بوصتَين ونصف بما في ذلك القاعدة التي يقف عليها. كان من الواضح أن التمثال يعلق من خلال ثقب في العينَين، حيث يمر عبره خيطٌ من الحرير؛ يُظهِر طرفاه الباليان كيف ضاع الكنز.

فُتِن السيد جولي بالتمثال. فقد كان بالنسبة إليه ببغاءً صغيرًا عزيزًا؛ وجذابًا جدًّا؛ ونقيًّا جدًّا. كان رجلًا بسيطًا؛ ومِن ثَم كانت الأشياء الصغيرة تُسعده. وهذا الشيء الصغير على وجه الخصوص قد أسعده للغاية. ولكي يفحص اكتشافه على نحو جيد، جلس على مقعد أبيض لطيف ونظيف وشرع في تلميع التمثال الصغير بمنديله، بعد أن قام بترطيبه بلسانه. حسَّن التلميعُ مظهره بشكل رائع، وكان يتفحَّصه برضًا عندما وقعَت عيناه على عبارة مكتوبه أمامه على الرصيف بواسطة الطبشور الأبيض. كانت الكتابة مقلوبة بالنسبة إليه وهو جالس، لكنه لم يجد صعوبة في فك رموز الكلمات «احترس! طلاء المقعد ما زال رطبًا.»

انتفض واقفًا وفحص سطح المقعد. وبالطبع ليست هناك حاجةٌ إلى الخوض في التفاصيل. يكفي أن نقول إن أيَّ شخص ينظر إلى هذا المقعد يُمكن أن يرى أن شخصًا ما قد جلس عليه. فابتعد السيد جولي وهو يصيح بغضب. كان أمرًا مزعجًا للغاية. لكن هذا لا يُبرر التعبيرات التي استخدمها، والتي لم تكن فقط تتنافى مع طبيعته وسلوكه المعتاد الذي يتَّسم بالاعتدال، ولكنها أيضًا غير مناسبة لزيه الكنسي، حتى لو تصادف أن زيَّه هذا قد اتسخ، ولكننا نقول مرة أخرى إنه لا داعي للخوض في تفاصيل. فخرج عبر بوابات الرصيف وهو ما يزال عابسًا ومنفعلًا، وسلك الشارع الرئيسي في طريقه إلى متجر الآنسة جوس. وبينما كان يمرُّ من أمام متجر الفاكهة، نادى عليه السيد باربر، مالك المتجر.

«مساء الخير يا سيد جولي، بخصوص تلك الكمثرى التي طلبتها من العامل. من الأفضل ألا تشتريَ هذا النوع يا سيدي. دعني أُرسل لك نوعًا آخر.»

سأله المساعد: «لماذا؟»

«حسنًا يا سيدي، هذه الكمثرى، كي أكون صريحًا معك، ليست جيدة.»

قاطعه السيد جولي قائلًا: «لا يُهمني ما إذا كانت جيدة أم سيئة، أنا لن آكلها.» واندفع بعيدًا في الشارع الرئيسي، تاركًا تاجر الفاكهة في حالة من الذهول. لكنه لم يتوجه مباشرة إلى متجر القبعات. إذ دفعَته رغبته في التَّجوال إلى التوجُّه نحو شارع جانبي؛ فشق

طريقه نحو الجزء المجاور للمياه من المدينة، وفي الواقع، كانت الساعة نحو الثامنة تقريبًا عندما اقترب من متجر الآنسة جوس (الذي هو مغلق الآن طوال الليل) ودق الجرس. وعلى أي حال، لم تخلُ الجولة من الأحداث المثيرة. فالعلامة الزرقاء تحت العين اليسرى وحالة القبعة والملابس المغبرة والتالفة تبدو كتَذْكار للتجارِب الحديثة والمثيرة، كما تُشير الابتسامة الراضية التي منحها للحارس المذهول إلى أن هذه التجارِب، وإن كانت شاقة، إلا أنها لم تخلُ من البهجة.

سقطت ظلالُ الليل على قرية بوبهام عندما ظهر السيد جولي في الشارع الوحيد بها. كان يحمل على رأسه صندوقًا كرتونيًّا كبيرًا؛ وكان الصندوق متوازنًا، ولكنه لم يكن مستقرًّا نوعًا ما، وفي الوقت نفسِه لم يكن ثقيلًا للغاية. كان الصندوق في بداية رحلة العودة على شكل مكعب، لكن حوافه الآن أصبحت غيرَ منتظمة إلى حدٍّ ما، بينما يسيل من إحدى الزوايا سائل رقيق يقطر على كتف السيد جولي، تنبعث منه رائحة الخل والبصل، كما تُصاحبها رائحة السمك. سار المساعد بخطوات عسكرية واسعة عبر الشارع الخالي، وبعد أن التقط الصندوق — للمرة الثالثة عشرة — خارج البوابة مباشرة، دخل بيت القَس، ووضع حمله على أريكة غرفة المعيشة، وصعد إلى غرفته. ولم يطلب العشاء. إذ لم يكن جائعًا؛ وهو أمر نادرُ الحدوث. في واقع الأمر، لقد تناول وجبة خفيفة في المدينة؛ والجندوفلي هو غذاءٌ مُرضٍ للغاية، فقط إذا تناولت منه ما يكفي.

رقد المساعد في سريره الضيق غير المستوي، وظل مستيقظًا وملفوفًا بتأملات مبهجة. ثم قادته أفكارُه نحو الببغاء البرونزي الصغير، الذي وضعه، بعد تلميع نهائي، على رف المدفأة؛ والآن، راح يسترجع مبتهجًا أحداث رحلته القصيرة. كان هناك، على سبيل المثال، البحَّار المخمور قليلًا الذي استمتع معه بمقابلة مرحة في شارع ميرميد. ثم استمرت بهجته وهو يُعيد تكوين صورة ذلك المحارب كما رآه آخرَ مرة، جالسًا في قناة الصرف يعتني بملامحه بمنديلٍ أحمر. وكان هناك كشك الجندوفلي واثنان من جنود البحرية في ملابسهما الزرقاء خارج «رأس البابا». فابتسم ابتسامة عريضة وهو يستمتع بتلك الذكريات. ورغم كل تلك الأحداث المثيرة، كان هناك متذمِّرون يشتكون بالفعل من أن حياة رجال الدين تتسم بالضجر!

مرة أخرى، استعادت ذاكرتُه رحلة عودته المبهجة إلى المنزل عبر الحقول المظلمة؛ والراحة الممتعة على جانب الطريق (وهو يجلس على صندوق المشترَيات الكرتوني)، والمزحات التي تبادلها مع اثنَين من العشاق القرويِّين، أخبراه أنه «يجب أن يخجل من

نفسه؛ رجلٌ نبيل وقَس، في الوقت نفسه!» فضحك بصوت عالٍ وهو يُفكر في انزعاجهم الريفي وحضوره اللامع.

لكن في هذه اللحظة قُطِعَت تأملاتُه بمقاطعة فريدة للغاية؛ إذ صدر صوتٌ من أعلى رف المدفأة، صوت غريب للغاية، عميق، طنَّان، يتردد صداه، وهو يُردد جملة قصيرة، تحمل كلماتٍ أكثرَ غرابة وغير مألوفة:

«دونكوه إي ديدي ما تيرن. أون إيسي؟»

رنَّت هذه العبارة المثيرة للدهشة في الغرفة الصغيرة بتركيز عميق ومدهش على كلمة «تيرن»، ونغمة استفهامية في الكلمتَين الأخيرتَين، أعقب ذلك فترةٌ من الصمت الشديد، ثم تصاعد قرعُ الطبول كما لو كان يأتي من بعيد، مقلدًا بطريقة تُثير الفضول صوت الكلمات ولُكْنتها، فكلمة «تيرن»، على سبيل المثال، تُصدِرها طبلة كبيرة ذات نغمة كهفية عميقة.

استمع السيد جولي لتلك الأصوات بابتسامة سعيدة ومهتمة.

بعد فترة قصيرة، تكررَت الترنيمة. ومرةً أخرى، مثل صدًى بعيد، قامت الطبول بتقليدها الغريب للكلام. كان السيد جولي مهتمًّا للغاية. وبعد ما يُقارب اثنتَي عشْرة مرةً من التَّكرار، وجد نفسه قادرًا على تَكرار الجملة الغامضة بلُكْنة جيدة، وحتى تقليد قرع الطبول ودويِّها.

ولكن في نهاية المطاف سيشعر المرء بالملل إنْ أكثرَ من الشيء الجيد؛ وعندما استمرت الترنيمة في التَّكرار، على فترات من حوالي عشر ثوانٍ، لمدة ربع الساعة، بدأ السيد جولي يشعر بالملل.

فقال: «إلى هنا، سأكتفي بهذا القدر.» وعاد إلى النوم. لكن المترنم غير المرئي، تجاهل ملاحظته، واستمر في الترنُّم (دا كابو وآد ليب) — في الواقع، إلى حد الغثيان — ومِن ثَم انزعج السيد جولي. وفي البداية جلس في السرير، وأبدى ما اعتبره تعليقاتٍ مناسبةً على الأداء، مع بعض الإشارات الشخصية إلى المؤدي؛ وبعد ذلك، مع استمرار الترنيمة بمثابرة لا هوادة فيها مثل جرس الكنيسة، قفز وأسرع بشراسة نحو التمثال الموضوع على رف المدفأة.

وصاح مزمجرًا وهو يهز قبضته في وجه الببغاء غير المرئي: «اخرس!» ومن الغريب أن نقول إن كلًّا من الترنيم وقرع الطبول قد توقفا على الفور. إذ يبدو أن هناك بعضَ أشكال الكلام التي لا تتطلب مترجمًا.

عندما دخل السيد جولي غرفة الإفطار في صباح اليوم التالي، كانت زوجة رئيس الكنيسة تُقدِّم لزوجها طبقًا من كلاوي الضأن المتبَّلة، لكنها توقفت مؤقتًا عما تفعله لتُحيي المساعد بنظرة جامدة. جلس السيد جولي وارتطمت ركبته كالمعتاد في ساق المنضدة، لكنه علَّق على الأمر بعبارات غير معتادة على الإطلاق. فحدَّق رئيس الكنيسة مندهشًا، وصاحت السيدة بودلي بلهجة شديدة:

«سيد جولي، كيف تجرؤ ...»

توقفَت عند هذا الحد، بعد أن لفتَت انتباه المساعد. تلا ذلك صمتٌ مميت، حدق خلاله السيد جولي في بيضة واحدة مسلوقة. وفجأة انتزع سكينًا، وببراعة خارقة قطع رأس البيضة بضربة واحدة. ثم أطل بفضول في التجويف المكشوف. وإذا كان هناك شيء واحد يكرهه السيد جولي أكثر من أي شيء آخر، فهو بيضة مسلوقة لم يكتمل نضجها؛ وعندما واجهت عينه كُرة صفراء تطفو في سائل صافٍ، عبس في تشاؤم.

صاح بصوت أجش: «نِيئة، يا إلهي!» وانتزع البيضة من كأسها، وقذفها عبر الغرفة. لعدة ثوانٍ، حدَّق رئيس الكنيسة في مساعده، صامتًا فاغرًا فاه، ثم تتبَّع نظرة زوجته، فحدق في الحائط، على ورق الأقحوان الذي ظهر عليه شكل جديد لم يُفكر فيه المصمم. وفي غضون ذلك، مد السيد جولي يده عبر الطاولة وغرس شوكته في طبق كلاوي الضأن المتبلة.

عندما نظر رئيس الكنيسة حوله واكتشف خسارته، حاول متلعثمًا أن يحصل من المساعد على تفسيرٍ لما حدث. ولكن بما أن أعضاء الكلام مرتبطة بفعل المضغ، لم يكن المساعد في وضع يسمح له بالإجابة عليه. ومع ذلك، كانت عيناه في تلك اللحظة متحررتَين، وقد أدت النظرة المتجبرة فيهما إلى قيام رئيس الكنيسة وزوجته من فوق كرسييهما والعودة بحذر نحو الباب. نظر إليهما السيد جولي بعدم اكتراث، واستحوذ على الطعام كله، حيث شرع في مَلء كوبٍ من الشاي وآخرَ من القهوة، وأكل كل ما في الطبق، وأفرغ رف الخبز المحمص، وبعد أن أكل هذه الأشياء البسيطة، ختم المأدبة العملاقة بقرقشة محتويات إناء السكر. لم يستمتع أبدًا بإفطار مثلما استمتع بهذا الإفطار، ولم يشعر أبدًا بالرضا والسعادة كما فعل هذه المرة.

بعد أن مسح شفتَيه المبتسمتَين بمفرش المائدة، سار خارجًا إلى الملعب، حيث كان الأولاد ينتظرون أن يتم توجيههم إلى الدروس. وفي لحظة ظهوره، كان السادة جوبليت وبايلز يشرعان في استئناف الأعمال العدائية المؤجَّلة. فسار المساعد عبر حلقة المشاهِدين وابتسم للمتعارِكَين بإحسانٍ شرس. أدى وصوله إلى هدنة قصيرة، ولكن نظرًا لأنه لم يتفوَّه بأي احتجاجات، فقد استؤنِفَت المعركة بضربة أولية من جانب جوبلت.

ابتسم المساعد ابتسامة وحشية وهو يصيح: «ليس هكذا يا جوبلت، اركله يا رجل. اركله في معدته.»

قال جوبلت وهو ينظر إلى معلمه بذهول: «أستميحك عذرًا يا سيدي؛ هل قلت اركله؟»

زمجر المساعد: «نعم، في المعدة. هكذا!»

تراجع بضع خطوات، وثبَّت عينه اللامعة على بطن بايلز، واندفع إلى الأمام، وألقى بقدمه اليمنى إلى الخلف حتى أصبحت تقريبًا مرئية من فوق كتفه، وأطلق ركلة هائلة. لكن معدة بايلز لم تكن في مكانها؛ وكذلك بايلز ذاته بالطبع. وكانت النتيجة أن قدم السيد جولي، التي لم تُقابل أي مقاومة، طارت في الهواء حاملة معها مركز ثقل السيد جولي.

عندما وقف المساعد على قدَميه ونظر حوله متوعدًا، وجد الملعب خاليًا. حيث اندفع حشد مذعور من التلاميذ عبر باب المدرسة المفتوح، بينما تسلق بقيتهم الجدران بسرعة.

فضحك السيد جولي بصوت أجش. كان الوقت قد حان لفتح المدرسة، لكنه في الوقت الحالي لم يكن يميل إلى الدراسة. فخرج من البوابة، ومشى إلى القرية، وتجول في الشارع. وأمام دكان الجزار الصغير، قابل ملحد القرية. ذلك الفيلسوف، الذي لا داعي للقول إنه يعمل كإسكافي، وكانت لديه مزحة ثابتة ودائمة لتحية المساعد بالكلمات:

«كيف حال جولي!» ومِن ثَم يرد عليه جولي بأدب: «صباح الخير يا سيد بيج.» مع لمسة مهذبة للقبعة. فشرع هذا الصباح في النطق بالصيغة الثابتة، ووجَّه عينَيه نحو الجزار المترقِّب. لكن الاستجابة المتوقعة لم تأتِ. وبدلًا من ذلك، انقلب عليه المساعد فجأة وصاح:

«قُل «يا سيدي»، أيُّها الحشرة، عندما تتحدث إلى أسيادك.»

كان الإسكافي المذهول عاجزًا عن الكلام للحظة؛ لكن فقط للحظة.

إذ صاح قائلًا: «ماذا! أنا أقول «يا سيدي» لقَسٍّ ضئيل حقير، ماذا ...»

هنا استدار السيد جولي وتوجه بخفة إلى المتجر. ودخل عبر الواجهة المفتوحة، ورفع ساطورًا كان معلقًا على مسمار، وأرجحه عاليًا فوق رأسه، واندفع بصرخة عالية نحو الإسكافي الذي أهانه. لكن السيد بيج كان حاضر الذهن، الأمر الذي جعله غائب الجسد. فاندفع هاربًا على الفور إلى منزله، وأغلق مزلاج الباب، وراح يسترق النظر بعينَين جاحظتَين مذهولتَين من نافذة الطابق الأول على تاج قبعة المساعد. وفي هذه الأثناء، خرج الجزار غاضبًا من متجره، واقترب نحو المساعد من الخلف.

وصاح بصوت أجش: «تعالَ هنا، ماذا تفعل بهذا الساطور ...» لكنه توقف فجأة عندما أدار السيد جولي رأسه، وتابع بأدب جم:

«هل يُمكنك يا سيدي أن تترك ذلك الساطور؟ إذا تكرمت من فضلك.»

أطلق السيد جولي هديرًا غاضبًا وقذف الساطور الكبير نحو يدَي مالكه؛ بعد ذلك، عندما ابتعد الجزار، ضحك جولي بصوت عالٍ، على إثر ذلك أخلى التاجر عتبة بابه بقفزة واحدة وضرب نصف الباب خلفه. لكنه نظر للخلف نظرة مرعوبة أظهرت له وجه المساعد وهو يبتسم، كما رأى الآنسة دوركاس شيبتون ذات الجسد الضئيل وهي تقترب من الشارع.

هرول المساعد إلى الأمام لمقابلتها، وهو يبتسم. لكنه لم يكتفِ بالابتسام. على الإطلاق. إذ كان صوت تحياته لها مسموعًا حتى للسيد بيج، الذي انحنى من نافذته وعيناه مذهولتان أكثر من أي وقت مضى.

صاحت الآنسة دوركاس المصدومة: «حقًّا يا ديوداتس! ما الذي دهاك؛ أتصيح هكذا في وسط الشارع ...» انقطعت احتجاجاتها عند هذا الحد بتعبير جديد عن الشوق فاجأها به جولي، مما جعل الجزار يمسح فمه بظهر يده، والسيد بيج يشهق في دهشة.

صاحت دوركاس التي احمرت خجلًا: «اهدأ، اهدأ وتمالَكْ نفسك يا ديوداتس!» وهي تُحاول التملُّص من قبضته وهو يُمسك بها في هُيام. ثم أضافت بإلهام استراتيجي مفاجئ: «علاوة على ذلك، من المؤكد أنك يجب أن تكون في المدرسة في هذا الوقت.»

قال جولي وهو يتقدم نحوها بذراعَين مفتوحتَين: «هذا ليس مهمًّا على الإطلاق يا عزيزتي؛ لأن العجوز بود يُمكن أن يعتني بالصبية المشاكسين.»

قالت الآنسة دوركاس وهي لا تزال تتراجع للخلف: «أوه، لكن يجب ألا تتجاهل واجباتك يا ديوداتس، هل يُمكن أن تعود إلى المدرسة، فقط لإرضائي؟»

أجابها جولي وهو ينظر لها بشهوانية: «بالتأكيد يا حبيبتي، إذا كنت ترغبين في ذلك، سأعود على الفور، ولكن يجب أن أحصل على واحدة أخرى.» ومرة أخرى رن شارع القرية بصوت يُشبه طقطقة من فلين زجاجة بيرة الزنجبيل.

وعندما اقترب من المدرسة، أصبح السيد جولي على دراية بالهدير المألوف والمقيت للعديد من الأصوات. حيث سمع السيد بودلي، وهو يقف في المدخل، معلنًا بتأكيد غاضب «أنه لن يسمح بهذا الضجيج المخزي»، ورآه يصفع المكتب بيده المفتوحة؛ بينما لم يستجب لوعيده أيٌّ من التلاميذ، واستمروا في إحداث الضجيج مثل جوقة مكونة من مجموعة عنزات. ثم دخل السيد جولي ونظر حوله. وفي لحظة غرق المكان في صمت مثل مقبرة مصرية.

إن مساحة القصة لا تسمح لنا بذكر تفاصيل ما حدث في الأيام القليلة التالية. ومع ذلك، يُمكننا أن نقول باختصار إنه قد نشأ في قرية بوبهام شعورٌ باحترام عامٍّ للمساعد

ضئيل الحجم، يمتزج برهبة خرافية. إذ أصبح أهل القرية، الذين كانوا حتى تلك اللحظة متساهلين في سلوكهم، يُسارعون بخلع قبعاتهم عند اقتراب السيد جولي منهم؛ وأصبح السيد بيج يتجنَّب السير في شارع القرية، ويُفضل المدقات الترابية البعيدة الخالية من الأشجار، واعتاد الجزار إرسال قطع من طحال الضأن كهدية إلى بيت القس، موجَّهة إلى السيد جولي، وحتى الحداد، عندما تعافَت عينُه من اللكمة التي وجَّهها له جولي، تبنَّى سلوكًا دمثًا واسترضائيًّا.

كانت زوجة رئيس الكنيسة، بمفردها، تُضمِر استياءً غير معلن من السيد جولي (على الرغم من أنها كانت منتبهة ظاهريًّا لأمر تقديم وجبات كلاوي الضأن ولحم الخنزير المقدَّد إليه)، وقد حثت رئيس الكنيسة على التخلص من مساعده الشرِه؛ لكن خُططها فشلت فشلًا ذريعًا؛ فصحيح أن رئيس الكنيسة تجرأ مبدئيًّا على فتح الموضوع مع المساعد، الذي استمع عابسًا وهو يشحذ قلمَ رصاص بسكين جيب ضخمة كان قد اشتراها من متجر معدات السفن في ديلبري؛ لكن الرئيس لم يُكمل حديثه مطلقًا. ولأن ذهنه قد تشتَّت وأصبح مرتبكًا، ربما بسبب أسلوب السيد جولي الغامض، وجد نفسه، بشكل أثار دهشته الخاصة، يحثُّ المساعد على قَبول عشرين جنيهًا كراتب إضافي في السنة، وهو عرض أصر السيد جولي على كتابة عقد به على الفور.

الشخص الوحيد الذي لم يُشارك في تلك الرهبة العامة كان الآنسة دوركاس. لأنها كانت، مثل الساعة الشمسية، «تُشير فقط إلى الساعات المشمسة»، لكنها كانت تحترمه أكثرَ من أي شخص آخر. وعلى الرغم من دهشتها واستنكارها لشائعات أفعاله، إلا أنها معجبة في الخفاء بشجاعته.

وهكذا مرت الأيام وازداد وزن السيد جولي بشكل ملحوظ. إلى أن جاء صباحٌ حافل بالأحداث؛ إذ وقعت عيناه، أثناء قراءة الجريدة، على إعلان في الإعلانات المبوبة؛ هذا نصه:

> مكافأة قدرها عشرة جنيهات؛ لمن يعثر على تمثال صغير من البرونز لببغاء على قاعدة مربعة؛ يبلغ ارتفاعه بوصتَين ونصف البوصة. تُدفَع المكافأة أعلاه نيابةً عن المالك من قِبَل أمين قسم الأفلام في المتحف البريطاني الذي لديه صورة ووصف التمثال.

لقد أصبح السيد جولي مرتبطًا بشدة بذلك الببغاء. ولكن في نهاية المطاف؛ إنه مجرد غرض جميل، بينما عشرة جنيهات هو مبلغ كبير. وفي عصر ذلك اليوم، وجد أمين المتحف

نفسه في مواجهة قَس ضئيل الحجم شرس المظهر، وقد قام على عجل بإعطائه عشرة جنيهات بعد التحقق من الوصف؛ وحتى يومنا هذا، اعتاد أن يحكي، كمثال على سطوة المال، كيف تغير سلوك ومظهر القس، بشكل ملحوظ، إلى الأفضل عندما أعطاه المبلغ.

وبينما شارفت فترة العصر على الانتهاء، ظهر السيد جولي في قرية بوبهام. وهو يحمل طردًا ورقيًّا ضخمًا تحت ذراعه، وكانت جيوبه منتفخة بحيث بدا أنه يُعاني من بعض التشوهات غير المعروفة. وعند سُلَّم عبور الجدار، التقى فجأة بالسيد بيج، الذي استعد للهرب الفوري، لكنه أُصيبَ بالذهول حرفيًّا عندما رفع المساعد قبعته بكل لطف وتمنَّى له «ليلة سعيدة». لكن ذهول السيد بيج اشتد أكثر بعد بضع دقائق، عندما رأى المساعد جالسًا على عتبة الباب والطرد المفتوح على ركبتَيه، وقد تجمع حوله حشد من الأطفال. لأن السيد جولي، مع أكثر الابتسامات عذوبة، كان منخرطًا في توزيع الدمى والألعاب الدوارة وحبال القفز والخيول الخشبية الصغيرة، وأتبع ذلك بتوزيع حلوى عين الثور وكرات البراندي وغيرها من الحلويات الشهية، التي أخرجها من جيوبه التي لا تنضب، حتى إنه قدَّم للسيد بيج نفسه عصا سكَّر، والتي قَبِلها الإسكافي المتفلسف مع انحناءة مهذبة، ثم ألقاها بعد ذلك على الحائط. لكنه تأمل بعمق في هذا الأمر العجيب، وربما ظل يُفكر فيه مع سكان بوبهام الآخرين.

وعلى الرغم من أنه، منذ تلك اللحظة، عاد السيد جولي مرة أخرى ليُصبح أكثر الرجال لطفًا وودًّا، فإن هيبة أفعاله السابقة ظلت حاضرة؛ واستمرت الرهبة المبجَّلة تُحيط بخُطاه خارج المنزل، كما كانت أطباق كلاوي الضأن ولحم الخنزير المقدَّد من نصيبه داخل المنزل؛ إلى أن جاء الوقت الذي تحولَت فيه الآنسة دوركاس شيبتون لتُصبح السيدة ديوداتس جولي؛ زوجة السيد جولي.

إذ منذ تلك اللحظة أصبح يسير، ليس فقط وسط التبجيل والرهبة ولكن أيضًا، وسط الزهور والضياء.

ملاحظة: لمن يدفعه فضولُه ويودُّ معرفة المزيد عن الببغاء، يُمكن أن يجده على الرف المناسب في قسم غرب أفريقيا، ويقرأ اللافتة الوصفية الكبيرة التي تسرد تاريخه:

> وزن ذهبي من البرونز على شكل ببغاء. كان هذا التمثال في السابق ملكًا لكبير محاربي الأشانتي، أمانكوا تيا، الذي كانت تميمة عشيرته هي الببغاء. وكان يرتديه حول معصمه، كتعويذة أو سحر، وعندما يخرج في حملة للحرب، كان

المنادي الخاص به يحمل نسخة منه، مكبرة ومصنوعة من الخشب المذهب، ويتقدم المسيرة ويردد شعاره الرسمي.

ويُمكن أن نُوضِّح هنا أن لكلٍّ مِن مُحاربي الأشانتي شعارًا مميزًا، يتكون من جملة قصيرة، يُنادي بها المنادي أمامه عندما يبدأ مسيرة الحرب، ويستمر في تَكْرارها، في تقليد معتاد مميز، ثم تتبع بلحن يُحاكيها يعزف بالطبول. وهكذا، عندما كانت القوات المتعددة تتقدَّم عبر الغابة الكثيفة، كانت هُويَّاتهم تتضح لبعضهم البعض من خلال صوت ألحان الطبول. وكان شعار أمانكوا تيا هو: «دونكوه إي ديدي ما تيرن. أون إيسي؟» التي يُمكن ترجمتها إلى «العبيد (الأغراب) يسبونني. لماذا؟» وهي جملة لا معنى لها إلى حد ما، ولكن ربما كان لها مغزًى شرير.

المرابي المفقود

الجزء الأول

في وقت مبكر من ظهيرة يوم دافئ ورطب في شهر نوفمبر، سار توماس إلتون في حزن عبر ساحة مارجيت، وهو ينظر إلى البحر ذي اللون الأزرق الصافي الذي تُحيط به سماءٌ زرقاء أكثرُ صفاءً، ثم وجَّه بصره نحو المرفأ، حيث بدأ المد المنحسر للتو في الكشف عن الأرض الموحِلة. لقد كان مشهدًا كئيبًا، فحاول إلتون التخفيفَ من كآبته عبر متابعة عددٍ قليل من الصيادين وعددٍ أقلَّ من المتنزِّهين الذين يسيرون بينما تُلاحقهم ظلالهم المشوَّهة على الرصيف المبتل؛ ومِن ثَم وقعَت عيناه على رجل يرتدي ملابسَ أنيقة وقف يحتمي من الرياح بجدارٍ كي يتمكَّن من إشعال سيجار.

صنَّف أحد الساخرين المعاصرين أولئك الاسكتلنديين الذين ينتشرون بكثرة في جنوب أفريقيا إلى مجموعتَين: أولئك الذين ينحدرون من اسكتلندا وأولئك الذين ينحدرون من فلسطين. وهكذا فإن شيئًا ما في منظر الظهر العريض للرجل، وفي مظهر الشعر الأسود المجعد والثياب الضخمة، أوحى لإلتون أنه اسكتلندي من النوع الأخير. وفي الواقع، لقد تنامى بداخله شكٌّ في أن شكل هذا الرجل مألوف لديه على نحوٍ غير مريح، مما دفعه إلى إبطاء خطواته ومراقبته. ابتعد الرجل عن الجدار بعد أن أشعل سيجاره، نافثًا سحابة من الدخان الأزرق اللون، ثم سحب مظروفًا من جيبه، وقرأ شيئًا مكتوبًا عليه. ثم استدار بسرعة — وكذلك فعل إلتون، ولكن ليس بالسرعة الكافية. ونظرًا لأنه كان الشخص الوحيد المتواجد في تلك الساحة الخالية، فقد رآه الرجلُ على الفور. ابتعد إلتون ببطء، لكنه لم يكَد يسيرُ عشر خطوات حتى شعر بالصفعة المتوقَّعة على كتفه وسمع الصوت الذي يعرفه جيدًا.

إذ قال الرجل: «اللعنة، أُراهن أنك كنت تُحاول أن تتجاهلني يا توم.»

التفت إلتون كما لو كان قد فُوجِئ لكن تمثيله كان سيئًا، وقال: «مرحبًا يا جوردون! عجبًا؛ من كان يتوقع أن يراك هنا!»

ضحك جوردون ضحكة سمجة وهو يقول: «بالتأكيد ليس أنت، كما هو واضح؛ فأنت لا تبدو سعيدًا لرؤيتي هنا. بينما يُسعدني أن أراك، وخاصة أن أرى الأمور تسير على ما يُرام معك.»

سأله إلتون: «ماذا تقصد بذلك؟»

«أقصد أنك تقضي عطلتك الشتوية مستمتعًا بالبحر، مثل دوق لعين.»

قال إلتون: «أنا لست في عطلة، لقد كنت مرهقًا جدًّا لدرجة أنني اضطُرِرت إلى إجراء نوع من التغيير؛ لكنني أحضرت عملي معي، وأعمل عليه لمدة سبع ساعات كاملة كل يوم.»

قال جوردون: «هذا صحيح. مثل النملة. لا شيء يُضاهي العمل الدَّءوب! لقد أحضرت عملي معي أنا أيضًا؛ قُصاصة صغيرة من الورق عليها ختم. وأنت تعرف ما هو مكتوب فيها يا توم.»

«أعلم. ولكن موعد السداد هو الغد، أليس كذلك؟»

«أليس كذلك، لعنة الله عليك! إن موعد السداد هو اليوم تحديدًا، العشرين من الشهر. لهذا السبب أنا هنا. لمعرفتي بضَعفك في مسألة تحديد التواريخ، ولأن لديَّ عمليةَ تحصيلٍ صغيرةً في كانتربري؛ لذا قررت أن آتي، وأُوفر عليك النفقات غير الضرورية الناتجة عن النسيان.»

فهم إلتون التلميح، فأصبح وجهه عابسًا.

«لا أستطيع السداد يا جوردون؛ لا أستطيع حقًّا. ليس لديَّ نقود، ولن أحصل عليها قبل أن أحصل على أجري مقابل مجموعة الرسومات التي أعمل عليها الآن.»

صاح جوردون، وهو ينتزع السيجار من بين شفتَيه الغليظتَين وهو يمطُّهما متبرمًا: «أوه، ولكن يا للأسف! ها أنت ذا، تُهدِر نقودك في جولات على شاطئ البحر، وتخفض دخلك بضربة واحدة بمقدار أربعة جنيهات إسترلينية في السنة.»

طالبه إلتون بالتوضيح قائلًا: «وكيف سيحدث ذلك؟»

قال جوردون مستنكرًا: «عجبًا؛ يا لك من رجل غير عملي! هناك فائدة صغيرة على المبلغ مقدارها ربع العشرين جنيهًا. إذا سدَّدته الآن، فهو عشرون. وإذا لم تُسدد، فسيُضاف

إلى أصل الدين ويُصبح عليك أربعة جنيهات أخرى في السنة. لماذا لا تُحاول أن تقتصد أكثر من هذا، أيها الصبي العزيز؟»

نظر إلتون بازدراء إلى مصاص الدماء الذي أمامه؛ إلى ذلك الوجه الممتلئ المزرقّ بفعل حلاقة شعر الذقن الكثيف، والحواجب السوداء السميكة، والأنف المتدلي، والشفاه الحمراء الغليظة التي تقبض على السيجار، وعلى الرغم من أن إلتون كان رجلًا هادئ الطباع، إلا أنه شعر برغبة عارمة في أن يضرب ذلك الوجه الذي لا يُشبه البشر، مستشعرًا متعة غير مألوفة. لكنه لم يُظهر شيئًا من هذه الأفكار في رده؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يقول كل ما يتمنى لدائن يُمكن أن يُدمره بكلمة.

فقال: «يجب ألا تكون قاسيًا جدًّا عليَّ يا جوردون، أعطني القليل من الوقت؛ فأنا أفعل كل ما بوُسعي، كما تعلم. أكسب كل قرش يُمكنني كسبه، وأُسدد أقساط بوليصة التأمين بانتظام. وسأحصل على نقود مقابل هذا العمل في غضون أسبوع أو أسبوعَين، ومِن ثَم يُمكننا تسوية الأمر.»

لم يردَّ جوردون على الفور، وسار الرجلان ببطء باتجاه الشرق، وكان منظرهما المتناقض يُثير الفضول؛ فأحدهما متأنق، مرح، تبدو عليه سمات الثراء؛ والآخر شاحب ومكتئب، وبدا بتلك الملابس الناعمة غير المزغبة والحذاء المرقع والقبعة ذات الحواف اللامعة، كشخص كريم المَحتِد يُصارع الفقر.

كانا قد اجتازا الرصيف للتو، واقتربا من المرسى، عندما تحدث جوردون قائلًا:

«ألا يُمكننا النزول من هذا الرصيف الذي تعلوه بِرَك المياه بكثرة؟» ثم استرسل وهو ينظر إلى حذائه الأنيق الملمع بعناية: «أليس من الأفضل أن نسير بالأسفل على الرمال؟»

قال إلتون: «أوه، نعم بالقطع، من هنا حتى فورنس، وربما أكثر جفافًا من الرصيف.»

قال جوردون: «إذن هيا بنا ننزل.» وبِناءً عليه نزَلا عبر الطريق المنحدر خلف المرسى. كانت الرمال المنبسطة التي خلَّفها المد المتراجع سلسة وثابتة مثل الأسفلت، وكان السير عليها أمتعَ بكثير.

قال جوردون ساخرًا: «يبدو أننا نمتلك المكان لنا وحدنا، باستثناء بضع من الدوقات أمثالك.»

وأثناء حديثه، كان يُلقي نظرة خبيثة من طرْفٍ خفي على الرجل المكتئب بجواره لتحديد مدى إمكانية ممارسة المزيد من الضغط عليه، وما هو الناتج المحتمل لذلك؛ لكنه سرعان ما أشاح بوجهه عندما وجَّه إلتون إليه نظرة تحمل الازدراء والكراهية. ساد الصمت

مرة أخرى؛ لأن إلتون لم يردَّ على الملاحظة الأخيرة؛ ثم نقل جوردون معطف الفراء الثقيل الذي كان يحمله من ذراع إلى أخرى. وقال: «لم أكن بحاجة إلى إحضار هذا الشيء الفظيع، لو كنتُ أعرف أن الجو سيُصبح دافئًا للغاية هكذا.»

سأله إلتون المهذب بطبعه: «هل أحمله عنك قليلًا؟»

أجاب جوردون: «إذا سمحت أيها الصبي العزيز، حيث من الصعب التعاملُ مع معطف ومظلة وسيجار في آنٍ واحد.»

فأعطاه المعطف مع تنهيدة ارتياح، وبعد أن نصَب ظهره وأخذ شهيقًا عميقًا، قال: «أفترض أن أحوالك قد بدأت في التحسن الآن يا توم؟»

هز إلتون رأسه في إحباط ثم أجاب: «لا، إنه نفس العمل الشاق الممل.»

قال جوردون بنبرة المستشار المقنعة: «لكن من المؤكد أنهم قد بدَءوا في اكتشاف مواهبك الآن.»

قال إلتون: «هذه هي المشكلة، كما ترى، ليس لديَّ أي موهبة، وقد أدركوا الحقيقة منذ فترة طويلة. أنا مجرد عامل باليومية، وليس لي راتبٌ شهري أو أسبوعي ثابت.»

«تقصد القول إن المحررين لا يُقدرون الموهبة عندما يرونها.»

قال إلتون: «لا أعرف، لكنهم يُقدرون بشكل جهنمي عدم وجودها.»

نفث جوردون سحابة عظيمة من الدخان ورفع حاجبَيه متأملًا. ثم قال بعد برهة: «هل تعتقد أنك تمنحهم فرصة عادلة؟ لقد رأيت بعضًا من أعمالك. أتعلم؛ إنها عتيقة ومتزمتة للغاية. لماذا لا تُجرب شيئًا أكثر حيوية؟ أكثرَ مرحًا أيها الفتى العجوز؛ شيء بسيقان وأحذية ذات كعوب عالية. أتفهم ما أعنيه، أيها الفتى العجوز؟ كعوب عالية مع سيقان ممتلئة جميلة ولكن ليست مفرطة السِّمنة عند الكاحل. هذا يجب أن يُثير إعجابهم، أليس كذلك؟»

عبَس إلتون وقال بازدراء: «إنك تُفكر في الرسومات التي تُنشَر في مجلة «هولد مي أب»، لكنك مخطئ. يُمكن لأي أحمق أن يرسُم زجاجة شمبانيا مقلوبة بحذاء فرنسي في نهايتها.»

قال جوردون: «لا شك، أيها الفتى العزيز، لكنني أتوقع أن هذا النوع من الحمقى يعرف كيف يكسب النقود.»

قال إلتون بحدة: «يبدو أن الكثير من الحمقى يعرفون ذلك جيدًا.» ثم شعَر بالأسف لأنه تحدث؛ لأن جوردون لم يكن حقًّا رجلًا لطيفًا، وكان تعبير وجهه يُشير إلى أنه قد فهم أن إلتون يقصده هو بهذه الجملة. لذا، مرة أخرى، سار الرجلان في صمت.

ثم قادتهما خطواتهما إلى حافة الصخور المغطاة بالأعشاب، وهناك، من تحت كومة عالية من أعشاب البحر الطافية، انطلق سلطعون أخضر كبير وهدَّدهما بمخالبَ مرفوعة. فتوقف جوردون وحدق في المخلوق بدهشة طفولية، ثم نخسه بمظلته، وتساءل بصوت عالٍ عما إذا كان يصلح لتناوله كطعام. وفجأة انطلق السلطعون، كما لو كان منزعجًا من الاقتراح، وابتعد وبدأ يتجول فوق الصخور المكسوة بالطحالب الخضراء، ثم غطس في بركة كبيرة عميقة. لاحقه جوردون متمايلًا على الصخور الزلقة، حتى وصل إلى حافَة البركة، التي انحنى فوقها، وهو يتفحص بمظلته وسط الحافة العشبية في فضول. لقد كان مهتمًّا جدًّا بطريدته لدرجة أنه لم ينتبِه للسطح الزلق الذي يقف عليه. ومِن ثَم كانت النتيجة كارثية. إذ بدأت إحدى قدمَيه فجأة في الانزلاق إلى الأمام، وعندما حاول استعادة توازنه، تبعَتها الأخرى على الفور. للحظة، كافح بشكل محموم لاستعادة توازنه، فتناثرت المياه تحت قدَمَيه، وهو يدهس الأرض كما لو كان يرقص على الحافة. وبعد ذلك، جَفَلت الطيور البحرية بفعل صيحة رعب، وحلَّقت مظلة ذات مقبض عاجيٍّ عبر الصخور، ووقع السيد سولومون جوردون في أعمق جزء من البركة. كان رد فعل السلطعون غيرَ معلوم. أما رد فعل السيد جوردون فهو غير مناسب للنشر؛ ولكن، عندما نهض من وقعته، مثل عريس بحر متأنِّق، عبر عن مشاعره بوفرة من الصفات التي جعلت إلتون على حافة الهستيريا.

قال إلتون: «من الجيد أنك قد أحضرت معطفك.» فقط ليقول أيَّ شيء بدلًا من أن ينفجر في ضحك مبرر للغاية. لم يردَّ الرجل العبري — على الأقل، لم يَرُد أيَّ رد يُمكن ذكره هنا حرفيًّا — ولكنه مال نحو المعطف الذي بسَطه إلتون له كي يَرتديَه، مادًّا ذِراعَيه المتقطرتَين. وبعد أن ساعده إلتون على ارتداء المعطف وزرَّره، سارع إلتون لاستعادة المظلة (وأيضًا ليشبع رغبته في ابتسامة عريضة)، وبعد أن أحضر المظلة، انحنى مستخدمًا إياها في استعادة القبعة التي كانت تطفو فوق سطح البركة.

كان من المدهش ذلك التغييرُ الذي أحدثَته آخرَ دقيقة أو دقيقتَين. فقد انعكس موقفا الرجلَين الآن تمامًا. إذ على الرغم من ملابسه البالية، بدا إلتون كأنه يسير برشاقة مقارنة برفيقه المرتجف الذي يسير بجانبه بخطوات بائسة قصيرة، متقلصًا إلى أعماق معطفه الذي يتدثَّر به، مثل حلزون مذعور في قوقعته، وقد انتفخ خدَّاه وهو يلعن الكون بشكل عام بقدر ما تسمح له به أسنانه المصطكَّة.

سارا مسرِعَين لبعض الوقت على طول المنحدر بجوار المرسى دون تبادُل أيٍّ ملاحظات أخرى؛ ثم فجأة سأل إلتون: «ماذا ستفعل يا جوردون؟ لا يُمكنك السفر وأنت في هذه الحالة.»

سأله جوردون: «هل يُمكنك إقراضي بعض الملابس؟» فكر إلتون مليًّا؛ إذ كان لديه بدلة أخرى، وهي أفضل من تلك التي يرتديها، وهو يحرص على الحفاظ عليها بحالة جيدة كي يرتديها في المناسبات التي تتطلب مظهرًا لائقًا. ثم نظر بارتياب إلى الرجل الذي بجانبه وأخبره شيئًا ما أن البدلة العزيزة من المحتمل أن تتلقى معاملة أسوأ مما كانت معتادة عليها. لكن ضميره لا يسمح له بترك الرجل يرحل في ملابس مبللة.

فقال له: «لديَّ بدلة احتياطية؛ وهي بالتأكيد لا تليق بأناقتك، وقد لا تُناسب حجمك، لكنني أظن أنك ستكون قادرًا على تحملها لمدة ساعة أو ساعتَين.»

تمتم جوردون: «على أي حال ستكون جافة، لذا لا يُهمني مدى أناقتها. كم يبعد منزلك عن هنا؟»

في واقع الأمر لم يكن إلتون يمتلك منزلًا؛ لكنه يسكن في غرفة صغيرة في منزل صغير عتيق مبنيٍّ من الحجر الصوَّان في نهاية زقاق ضيق مسدود في الحي القديم من المدينة. ولا يحتاج الدخولُ للغرفة أيَّ مقدمات رسمية مثل رن جرس أو طرق باب؛ بل يُمكن دخولها عبر باب يُطل على الشارع، ثم عبور غرفة صغيرة، وفتح باب ما يُشبه بابَ خِزانة ضيقة، ثم صعود درجات سلم ضيق وضئيل للغاية، وكانت تُطِل بشكل غير متوقَّع على واجهة. ومِن ثَم؛ باتباع هذا الإجراء، وصل الرجلان إلى غرفة نوم وجلوس في الوقت نفسه؛ وهذا يعني أنها كانت غرفة نوم، ولكن بالجلوس على السرير تتحول إلى غرفة جلوس أيضًا.

نفخ جوردون خدَّيه ونظر حوله باشمئزاز وهو يقول: «أعتقد أنَّ عليك أن ترن الجرس وتطلب بعض الماء الساخن، أيها الصبي العجوز.»

ضحك إلتون بصوت عالٍ ثم صاح: «أرن الجرس! أي جرس ذلك الذي تُريدني أن أرنَّه؟ إن ملابسك هي الشيء الوحيد الذي يحتمل أن نحصل منه على الماء إذا عصَرناها بقوة.»

قال جوردون: «حسنًا، استدعِ الخادمة.»

ضحك إلتون مرة أخرى وقال: «يا رفيقي العزيز، لا يوجد هنا خدم. هناك فقط مالكةُ المنزل وهي لا تصعد إلى هنا أبدًا؛ إذ إنها بدينة للغاية بحيث لا يُمكنها صعود السلم، علاوة على أنها عرجاء. لذا فأنا أعتني بغرفتي بنفسي. أما أنت فستُصبح بخير إذا جفَّفت جسمك جيدًا.»

تأفَّف جوردون، وخلع معطفه وهو يتململ، بينما أخرج إلتون من خزانة الأدراج البدلة الموعودة والملابس الداخلية اللازمة. فأمسك جوردون بقطعة منها مع ابتسامة سخرية، وراح يرمقها بازدراء شديد.

ثم قال: «أرى أنك لست بحاجة إلى وضعِ علامة تمييز عليها. إذ ليس من المرجَّح أن يطمع فيها أحد.»

من المؤكد أن تلك الملابس الداخلية كانت أسوأ في كل شيء من الملابس الداخلية الناعمة الفخمة التي كان يخلعها، لكنها تتميز بشيء واحد فقط؛ أنها جافة وهو ما كان يُواسيه لتقبُّل هذا التغيير المخزي.

كانت الملابس ملائمة إلى حدٍّ بعيد بالرغم من الاختلاف بين جسدَي الرجلَين؛ لأنه بينما كان جوردون رجلًا نحيفًا في الأساس ثم أصبح سمينًا، كان إلتون رجلًا عريضًا أصبح نحيفًا. وهذا، بطريقة ما، جعلهما متقارِبَين في الحجم.

تابع إلتون عملية التبادل ولاحظ حذر جوردون في نقل مختلِف الأشياء من جيوبه الخاصة إلى الملابس المستعارة من دون أن يراها إلتون؛ الذي سمع رنين العملات، وشاهد الساعة الذهبية الفاخرة والسلسلة الضخمة، ولاحظ باهتمام المحفظة الجلدية الكبيرة التي خرجت من جيب الصدر للمعطف المبلل. التي رآها بوضوح بسبب أن جوردون نفسه قد فحصها عن قرب، وفتحها حتى يطمئنَّ على محتوياتها.

ثم قال: «لحسن الحظ أنها ليست محفظة جيب عادية؛ لو كانت كذلك، لتعرَّض إيصالك للبلل، وكذلك شيء أو شيئان صغيران آخَران لم أكن لأستطيع إنقاذهما من المياه المالحة. وبالحديث عن الإيصال يا توم، هل أُسلمه لك الآن؟»

قال إلتون: «يُمكنك إذا أردت، لكن كما أخبرتك؛ ليس لديَّ نقود.» فتمتم جوردون: «أمر مؤسف، أمر مؤسف.» ودفع المحفظة في جيب صدره، أو على وجه الدقة جيب صدر إلتون.

بعد بضع دقائق، خرج الرجلان معًا في بعد أن أسدَل الليل ستاره، وبينما كانا يمشيان ببطء خارِجَين من الزقاق المسدود، سأل إلتون: «هل ستذهب إلى المدينة الليلة يا جوردون؟»

فأجابه: «كيف يُمكنني ذلك؟ لا يُمكنني الذَّهاب بدون ملابسي. لا، سأذهب مسرعًا إلى برودستيرز. حيث يُدير أحد عملائي فندقًا صغيرًا هناك. سيكون عليه أن يستضيفَني الليلة، وإذا كان بإمكانك تنظيفُ وتجفيف ملابسي يُمكنني أن أعود لأخذها غدًا.»

بعد الاتفاق على هذه الترتيبات، ذهب الرجلان، بناءً على اقتراح جوردون، لتناول الشاي في أحد المطاعم على الشاطئ؛ وبعد ذلك، مرة أخرى بناء على اقتراح جوردون، انطلقا معًا على طول طريق الجرف الذي يُؤدي إلى برودستيرز عن طريق كينجزجيت.

قال جوردون: «يُمكنك أن تسير معي إلى برودستيرز، سأتحمَّل تكلفة عودتك بالقطار.» وقد وافق إلتون على هذا الاقتراح، ليس لأنه كان يرغب في رفقة الرجل الآخر، ولكن لأنه لا يزال لديه بصيصُ أمل في أن يحلَّ المشكلة البسيطة المتعلقة بسداد القسط.

ومع ذلك، لم يفتح الموضوع على الفور. وعلى الرغم من أنه يكره ويحتقر هذا العنكبوت البشري الذي جعلَته الضرورة رفيقه في الوقت الحالي، فقد بذل جهدًا حثيثًا للاسترسال معه في حوار ممتع. وهو أمر لم يكن سهلًا؛ لأن جوردون، مثل معظم الرجال الذين يتركَّز اهتمامهم على مجرد جمع المال، كان ينظر بلا مبالاة إلى شئون الحياة العادية. فيما يتعلق بذوقه الفني فقد ألمح إليه بالفعل، وبالنسبة إلى ذوقه في باقي الأمور، فهو يكمن في الاتجاه نفسه. المال أولًا، كهدف في حدِّ ذاته، ثم تأتي بعده تلك المتع الأكثرُ بدائيةً وفظاظةً التي يستطيع المال شراءها. كان هذا هو الأفق الذي يُحيط بمجال رؤية السيد سولومون جوردون.

ومع ذلك، كانا قد قطَعا مسافة كبيرة في طريقهم قبل أن يلمح إلتون إلى الموضوع الذي يحتلُّ الصدارة في عقلَيهما.

حيث قال بعد فترة طويلة: «اسمع يا جوردون، ألا يُمكنك منحي مزيدًا من الوقت لسداد هذا القسط؟ لا يبدو من العدل الاستمرارُ في زيادة أصل الدَّين بهذه الطريقة.»

أجاب جوردون: «حسنًا، أيها الصبي العزيز، هذا خطؤك، كما تعلم. إذا كنت فقط تتذكر التواريخ وتضعها في اعتبارك، لم يكن ذلك ليحدث.»

قال إلتون: «لكن فكِّر فيما أُسدِّده لك. لقد اقترضتُ منك في الأصل خمسين جنيهًا، وأنا الآن أُسدِّد لك ثمانين جنيهًا سنويًّا بالإضافة إلى قسط بوليصة التأمين. هذا يقترب من مائة جنيه في العام؛ أي حوالي نصف ما أتمكَّن من كسبه وأنا أعمل في عبودية مثل رجل زنجي. إذا ضغطتَ عليَّ أكثر من ذلك، فلن تترك لي ما يكفي كي أظلَّ على قيد الحياة؛ مما يعني حقًّا أنني لن أستطيع السداد لك مطلقًا.»

ساد الصمت لبرهة؛ ثم قال جوردون بجفاف: «أنت تتحدث عن عدم السداد، أيها الصبي العزيز، كما لو كنت قد نسيت إيصال الأمانة.»

جزَّ إلتون على أسنانه، بينما يتصاعد غضبُه بسرعة، لكنه تمالك نفسه.

ثم أجاب: «بالطبع لم أنسَه؛ فذاكرتي ليست ضعيفة لهذه الدرجة، كما أنك قد أرسلت لي كمًّا كبيرًا من إنذارات السداد.»

قال الآخر: «لقد كان من الضروري أن أفعل يا توم؛ فأنا لم أُقابل مطلقًا رجلًا مهمِلًا في الوفاء بالتزاماته مثلك.»

وهنا فقد إلتون أعصابه تمامًا فصاح:

«هذه كذبة ملعونة! وأنت تعرف ذلك، أيها الطُّفيلي مصَّاصَ الدماء، يا لك من ملعون قذر.»

توقف جوردون في مكانه مذهولًا ثم قال:

«اسمع يا صديقي، أنت مخطئ في تصورك هذا. ولو كنتُ وقحًا مثلك، لأوسعتُك ضربًا وإهانة.»

صاح إلتون: «يا لك من واهم؛ أنت تضربني أنا!» بينما راح يفرك أصابعه من فرط الغضب، ليس للمرة الأولى، وقد أوشك أن يُقدِم على ارتكاب فَعلة تشفي غليله من كل ما عاناه على يد هذا المرابي الجشع. فاسترسل صائحًا: «لا شيء يمنعك الآن، كما تعلم، لكنك أكثرُ جُبنًا من أن تتعارك معي؛ إذ إن عبادة المال تسري في دمك.»

قال جوردون: «لو استمرَّت وقاحتك؛ فسترى.»

رد إلتون ببرود: «حسنًا، يُسعدني أن أُخبرك أنك لست سوى دودة مصَّاصة للدماء في هيئة بشرية. ما رأيك في ذلك؟»

فألقى جوردون معطفه والمظلة فوق العشب على جانب الطريق، وصفع إلتون عمدًا على وجهه.

جاء الرد على الفور على هيئة لكمة هائلة باليد اليسرى على الأنف العبرية الطويلة المقوسة. وهكذا بدأ العراك واستمر مع كل الغضب والكراهية المتراكمة من جهة والألم الجسدي الحاد من جهة أخرى. كان إلتون بارعًا في تحركاته، وعلى الرغم من ذلك، كان عليه أن يُفسح المجال لِخَصمه الأكثر وزنًا وتغذية وهياجًا. وبغض النظر عن العقوبة التي نالها، اندفع اليهودي الغاضب نحوه وانقضَّ عليه بكل ثقله وراح يدفعه إلى الوراء على العشب الأخضر.

فجأة، صاح إلتون محذرًا، لأنه يعرف حدود المكان جيدًا ورآها من قبل في وضح النهار.

«احترس يا جوردون! تراجع أيها الأحمق!»

لكن جوردون الذي أعماه الغضب، اعتبر ذلك محاولةً من إلتون للإفلات منه، فواصل دفعه أكثر. لكن إلتون توقف عن العراك على الفور في رعب مميت. وصرخ محذِّرًا مرة أخرى، وبينما كان جوردون لا يزال يدفعه، ويُهاجمه بشراسة، فعل إلتون الشيء الوحيد الذي كان ممكنًا، ألقى بنفسه على الأرض. وعندئذٍ، في غمضة عين حدثت الكارثة. إذ اندفع

جسد جوردون إلى الأمام بقوة القصور الذاتي، وتعثر في جسد إلتون المنبطح، وترنح إلى الأمام بضع خطوات، ثم سقط. سمع إلتون أنينًا مكتومًا تلاشى بسرعة واختلط بصوت سقوط التراب والحجارة. فقفز واقفا على قدَمَيه، ونظر حوله فلم يجد أثرًا لجوردون.

ومِن ثَم وقف مذهولًا لبضع لحظات من هول المفاجأة بسبب الشيء الفظيع الذي حدث. ثم زحف برهبة نحو الحافة غير المرئية للجرف، وأرهف السمع.

لم يكن هناك أي صوت باستثناء صوت تكسر الأمواج على الصخور وصراخ طائر بحر غير مرئي. ولم يكن من المجدي أن يُحاول النظر لأسفل الجرف. فعلى الرغم من قربه منها؛ لم يكن قادرًا حتى الآن على تمييز حافة الجرف من الشاطئ المظلم بالأسفل. وفجأة تذكر وجود منحدر ضيق يهبط من الجرف إلى الشاطئ. فعبر نطاق العشب الأخضر مسرعًا، والتقط معطف جوردون ومظلته، ثم اتجه نحو المنحدر الوعر وهبط مسرعًا. وفي الأسفل، استدار إلى اليمين، ثم هرول فوق الرمال الناعمة، وتفحص الشاطئ المظلم عند سفح الجرف.

سرعان ما اتضحت له في مقابل السماء المظلمة هيئة التبة الصغيرة التي كان هو وجوردون يقفان عليها؛ وفي نفس اللحظة تقريبًا، اتضحت له من ظلام الشاطئ بقعة أكثرُ ظلمة وسط كوكبة من البقع الصغيرة البيضاء. وبينما كان يقترب تجسدت أمامه البقعة المظلمة؛ على هيئة جثة مخيفة مع أطراف ممدودة ورأس مشوَّه بشكل غريب. فتقدم إلى الأمام مرتعدًا ونطق اسم الرجل. ثم أمسك بيده المترهلة ووضع أصابعه على معصمه، لكن ذلك ما لبث أن أكد وفاة الرجل مثلما فعل ذلك الرأس المشوَّه. كان الجسد مستلقيًا على وجهه، ولم يكن لديه الشجاعة كي يقلبه على ظهره؛ ولم يعد لديه أدنى شك أن عدوه قد مات. فوقف وسط ركام الحجر الجيري المتساقط وهو ينظر إلى هذه الجثة الهامدة، متسائلًا في حيرة عما يجب أن يفعله. هل يذهب ويطلب المساعدة؟ جاء الجواب على ذلك في هيئة سؤال آخر. كيف وقعت هذه الجثة على الشاطئ؟ وما الجواب الذي يجب أن يُقدمه على الأسئلة المحتومة؟ وسرعان ما نشأ في عقله، بسبب الرعب مما حدث، رعبٌ أكبر مما قد يحدث نتيجةً لذلك.

وبعد مرور دقيقة واحدة، انسل الرجل المصاب بالذعر مسرعًا، صاعدًا إلى أعلى المنحدر الضيق وانطلق نحو مارجيت، وكان يتوقف من حين لآخر كي يسترق السمع خشية أن يراه أحد، وانسل مبتعدًا عن الطريق متسترًا بالظلام، ليدخل المدينة عبر الطريق الداخلي.

بالكاد زار النومُ عينَي إلتون في تلك الليلة داخل غرفته في منزل الحجر الصوَّان العتيق. إذ راحت ملابس الرجل الميت، التي استقبلته عند وصوله، والملقاة على حامل

المناشف حيث تركها، تُطارده طوال الليل. وفي الظلام، هاجمته الرائحة النفَّاذة للقماش المبلل مذكرة إياه بوجودها، وبعد كل غفوة قصيرة، ينتبه مفزوعًا ويُضيء شمعته على عجَل؛ فقط لإلقاء ضوئها الخافت المهتز على تلك الملابس المبتلة الغارقة. وراحت أفكاره، التي لا يملك السيطرة عليها، كدأب أفكار الليل، تنتقل بشكل عشوائي من الماضي غير السعيد إلى الحاضر غير المستقر، ومِن ثَم إلى المستقبل الذي لا يُمكن التنبؤ به. وبمجرد أن أضاء الشمعة كي ينظر هذه المرة في ساعته ليرى ما إذا كان موعد المد قد حان أم لا، وهو يأمُل في أن يسحب المدُّ جثة المرابي من الشاطئ كي يبتلعها البحر؛ لم يتمكن من أن يستريح مرة أخرى حتى أتى وقت ارتفاع المياه ومرت عليه فترة. ووسط خضمِّ أفكاره برز سؤال وظل يتكرر مثل لازمة مفزعة، وهو ماذا سيحدث عندما يُعثَر على الجثة؟ هل يُمكن اكتشاف صلته بصاحبها، وإذا حدث ذلك، فهل سيُتَّهَم بالقتل؟ وفي نهاية المطاف غلبه النعاس ونام حتى قرعت مالكةُ المنزل باب السلم لتُعلن أنها أحضرت إفطاره.

وبمجرد أن ارتدى ملابسه خرج مسرعًا. لكنه لم ينسَ أن يُخفي ملابس جوردون، التي لا تزال رطبة، ومعطفه الثقيل وحذاءه وقبعته الأنيقة داخل صندوقه، ووضع المظلة في أكثر ركن مظلم من الخِزانة. ولم يكن هذا تخوفًا من أن أي شخص قد يصعد إلى الغرفة، ولكنه بسبب أنَّ حِرص المجرم على السرِّية المزعجة قد تمكَّن منه. ثم ذهب مباشرة إلى الشاطئ، لم يكن يدري لماذا قادته قدماه إلى هناك، لكن دافعًا لا يُقاوَم حثه على الذَّهاب ليرى ما إذا كانت الجثة لا تزال هناك أم لا. فنزل نحو مرسى المراكب الصغيرة واتجه شرقًا فوق الرمال الناعمة، وبحث عن الجثة مع توقع مخيف بوجود حشد صغير حولها أو رسول متعجل ذاهب للإبلاغ عن العثور عليها. تفحصت عيناه المكان من سفح المنحدرات، فوق الصخور حتى خط الأمواج المتكسرة البعيد، وهو يُهرول باتجاه الشرق، مقتربًا من المكان الذي يخشى أن ينظر إليه. ومثلما ترك المدينة خلفه، ترك وراءه شخصًا أو اثنَين من المتسكعين على الشاطئ، وعندما استدار حول فورنس بوينت، لم يعد يرى أحدًا منهم وتقدم بمفرده. وبعد مرور أقلَّ من نصف الساعة، انحسرت المياه عن لسان الشاطئ المميت وراء بياض الأمواج.

لم يجد أحدًا على طول ذلك الشاطئ المنعزل، وعلى الرغم من أنه، مرةً أو مرتَين، هُرِع نحو كتلة من الأخشاب الطافية أو كومة من الأعشاب البحرية، فإن الجثة التي كان يبحث عنها لم تظهر بعد. فاجتاز مدخل المنحدر واقترب من لسان الشاطئ، وقد تلاحقَت أنفاسه وهو ينظر حوله بخوف. كان بإمكانه بالفعل رؤية الكتل الكبيرة من الحجر الجيري التي

سقطت، وعندما نظر إلى الأعلى، رأى الجزء الذي تكسرت منه تلك الكتلُ في قمة الجرف. ولكن لم يكن هناك أيُّ أثر للجثة. فاستمر في السير ببطء أكثرَ الآن، وهو يُفكر فيما إذا كانت قد انجرفت إلى البحر، أو أنه قد يجدها في الخليج التالي. وعندئذٍ، وبعد أن تجوَّل حول لسان الشاطئ، رأى فتحة سوداء عند سفح الجرف، والتي لم تكن سِوى مدخلِ كهف عميق. فاقترب ببُطء أكثر، وهو يتفحَّص الخليج الصغير، وينظر بقلق إلى الكهف الذي أمامه. وقد افترض أن الجثَّة من الممكن أن تكون قد انجرفت إلى هناك. كان ذلك محتملًا جدًّا. لقد انجرفت بالفعل أشياء كثيرة إلى هذا الكهف، لأنه زاره ذات مرة وكان مندهشًا من كمية الأعشاب البحرية وطرح البحر التي تراكمت بداخله. لكنها كانت فكرة غير مريحة. إذ سيُصبح الأمر مروعًا بشكل مضاعف أن يرى منظر الجثة الفظيع في الإضاءة الخافتة للكهف. ومع ذلك، بدا أن الممر المظلم يجتذبه، خطوة بخطوة، حتى وقف عند المدخل ونظر إلى الداخل. كان مكانًا غريبًا، باردًا ورطبًا، والسقف والجدران المتعرجة ملطخة بالأخضر والأرجواني والأسود مع نبات الأشنة الذي يُغطيه. ذات مرة، حكى أحدهم لإلتون، أن المهربين كانوا يختبئون في هذا الكهف، الذي يتصل بممرٍّ تحت الأرض؛ وأن موقع المراقبة القديمَ للمهرب ما زال قائمًا. وهو نفق ضيق، موجود أعلى الجرف، يُطِل على خليج كينجزجيت؛ وحتى بعض آثار درجات الصعود غير الممهَّدة التي تُؤدي إلى موقع المراقبة لا يزال من الممكن تتبعها، ولم يكن من الصعب تسلُّقها. وفي الواقع، لقد صعد إلتون، في زيارته الأخيرة للكهف، إلى ذلك الموقع ونظر من خلال فتحة التجسُّس. وهو يتذكر ذلك الآن، بينما يقف محدقًا بعصبية في الظلام، ويُجهد عينَيه ليرى ما طرحه المحيط منذ ذلك الحين.

في البداية لم يكن يرى سوى الرمال الناعمة قرب المدخل. وبعد ذلك، عندما أصبحت عيناه أكثرَ اعتيادًا على الظلمة، تمكن من تمييز كومة كبيرة من الأعشاب البحرية على أرضية الكهف. فتسلل إلى الداخل، وعيناه مثبتتان على الكتلة العشبية، وعندما ترك ضوء النهار خلفه، أصبحت ظُلمة الكهف أكثر وضوحًا. تركَت قدماه الرمل الصلب وداست على الكتلة الرطبة من الأعشاب، وفي صمت الكهف صار بإمكانه الآن أن يسمع بوضوح طقطقة تُشبه المطر لبراغيث الرمل القافزة. فتوقف للحظة للاستماع إلى الصوت غير المألوف، بينما أخذت ظلمة الكهف تقل رويدًا رويدًا مع اعتياد عينَيه عليها.

وعندئذٍ، على الفور، رأى الجثة. فمن بين كومة من الحشائش على بُعد خطوات قليلة، رأى حذاءً؛ حذاءه هو على وجه التحديد، لقد ميزه بسبب الرقعة على النعل؛ وعند رؤيته للمنظر بدا قلبه وكأنه قد توقف. على الرغم من أنه توقع نوعًا ما أن يجدها هنا، إلا أن وجودها بدا كأنه قد أصابه بصدمة رعب من هول الموقف.

كان يقف ساكنًا، وهو يحدق مشدوهًا في الحذاء وكومة الأعشاب المنتفخة، عندما طرق مسامعَه صوتُ امرأة تُغني.

ومِن ثَم قفز مفزوعًا. وكان دافعه الأول هو الهرب من الكهف. لكن مع التفكير لبرهة وجد أنه تصرف مجنون. وعندئذٍ تزايد اقتراب الصوت، وتصاعدت ضحكة طفل بصوت عالٍ هادر. فنظر إلتون في رعب إلى المدخل المضيء للكهف، وتوقع في أي لحظة أن يرى أمامه مجموعة من الناس. وإذا حدث ذلك، فسينتهي أمره، لأنه سيُصبح قد شُوهد بالفعل بجوار الجثة. وفجأة تذكر فتحة التجسس وموقع المراقبة، وكلاهما كان غيرَ مرئي عبر المدخل؛ فاستدار وركض مسرعًا فوق الحشائش المبتلة حتى وصل إلى بقايا الدرجات. وتسلقها على عجل حتى وصل إلى الموقع الموجود داخل تجويف ضخم، في اللحظة نفسها التي أنبأه فيها دوي الأصوات أن الغرباء قد دخلوا الكهف. أصاخ السمع ليلتقط ما يقولونه ويعرف ما إذا كانوا سيدخلون إلى مسافة أبعد. فميَّز صوت طفل هو ذلك الذي سمعه لأول مرة، وكان الصدى المجوف لطبقة صوته الرفيع غريبًا للغاية بينما يتردد رَجْعُ الصدى من الجدران المتعرجة. لكنه لم يستطع سماع ما قاله الطفل. في حين كان صوت المرأة مميزًا تمامًا، وبدت الكلمات واضحة للغاية.

حيث كانت تقول: «لا يا عزيزي، من الأفضل ألا تدخل. إنه بارد ومبتل. اخرج إلى ضوء الشمس.»

تنفَّس إلتون الصُّعَداء. لكن المرأة كانت على حق أكثر مما تتخيل. لقد كان باردًا ومبتلًّا، ذلك الجسد تحت الأعشاب المتشابكة السوداء. لذا من الأفضل الخروج إلى ضوء الشمس. هو نفسه كان بالفعل يتوق إلى الهروب من برد وكآبة ذلك الكهف. لكنه لم يتمكَّن من الهرب بعد. فعلى الرغم من أنه بريء في الواقع، فإنه كان في موضع يُشير إلى أنه هو القاتل. لذا يجب أن ينتظر حتى يُصبح الشاطئ خاليًا، ثم يتسلل، للإسراع بعيدًا دون أن يُلاحظه أحد.

ومِن ثَم تسلل بحذر إلى النفق القصير وأطل من خلال الفتحة عبر الخليج. وعندئذٍ كاد قلبه أن يتوقف. إذ رأى تحت الفتحة مباشرة، على الشاطئ المشمِس، مجموعة صغيرة من الزوار وقد جلسوا على بُعد خطوات من مدخل الكهف؛ وبينما هو يُتابع المشهد، اقترب رجل من السلم الخشبي أسفل الجرف حاملًا كرسيَّين للاستلقاء. لذا، في الوقت الحاضر، لم يكن من الممكن أن يهرب على الإطلاق.

ومِن ثَم عاد إلى موقع المراقبة وجلس في انتظار فرصة للهرب؛ وبينما هو جالس، أخذ يُفكر مرة أخرى في الجثة الراقدة تحت الأعشاب. ترى كم من الوقت ستبقى هناك

غيرَ مكتشَفة؟ وماذا سيحدث عندما يتم العثور عليها؟ ما الذي يُمكن أن يُشير إلى صلته بها؟ بالطبع، كان هناك اسمه على الملابس، لكن لم يكن هناك جريمة في ذلك، إذا كان فقط قد واتته الشجاعة للإبلاغ عن الواقعة في الحال. لكن الوقت قد فات الآن للتفكير في هذا. علاوة على ذلك، ومَضت فكرة في ذهنه فجأة، كان هناك إيصالٌ في محفظة القتيل، مذكور فيه اسمه وأنه مدين له. من الواضح أن وجود هذا الإيصال، بجانب تقاعسه عن الإبلاغ عما حدث، يُمثلان دليلًا قاطعًا ضده. ولكن ما إن أدرك الأهمية المروعة لهذه الوثيقة حتى أدرك أيضًا أنها لا تزال في متناول يده. فلماذا يتركها في محفظة القتيل لتُمثل دليلَ اتهام ضده؛ دليلًا كاذبًا بالطبع؟

نهض ببطء وتسلل عبر النفق، وراح يُراقب مرة أخرى. فوجد الناس يجلسون بهدوء على كراسيهم، حيث يقرأ الرجل في كتاب بينما يحفر الطفل في الرمال. ونظر إلتون عبر الخليج ليتأكد من عدم اقتراب أي شخص آخر، وبعد ذلك، نزل الدرجات على عجل، ومشى عبر طبقة الأعشاب الكبيرة، يقود أمامه جيشًا من براغيث الرمل. وارتجف عند التفكير فيما هو مقدم على فعله، وبدا أن برودة الكهف قد اعترته منتجة عرقًا باردًا.

ثم وصل إلى الكومة الصغيرة التي خرج منها الحذاء، وبدأ، مرتجفًا وبيد مترنحة، في رفع الحشائش اللزجة المتشابكة. وبينما كان يُنحِّي جانبًا المجموعةَ الأولى، أطلق شهقة مذعورة، ثم تمالك نفسه بسرعة. كانت الجثة راقدة على ظهرها، وبينما استمر يرفع الحشائش كشف عن … ليس الوجه، لأن الجثة كانت بلا وجه. ربما كانت قد اصطدمت إما بالجرف أو بحجر على الشاطئ — ولكن لا داعي للخوض في التفاصيل — لقد وجدها بلا وجه. وعندما استرد رِباطة جأشه قليلًا، تلمس إلتون مرتجفًا بين الحشائش حتى وجد جيب الصدر الذي سحب منه المحفظة بسرعة، التي أصبحت الآن لزجة ومبتلة ومثيرة للاشمئزاز. وبينما ينهض ممسكًا بها في يده ظهر خيال شخص أمام مدخل الكهف، فتوقف عن الحركة كما لو أنه قد تحول فجأة إلى حجر. كان ثمة رجل، على ما يبدو صياد أو بحَّار، يمر على بُعد نحوِ ثلاثين ياردة من مدخل الكهف، وفي أعقابه يُهرول كلبٌ هجين. فتوقف الكلب، ورفع أنفه حيث بدا وكأنه يتشمم الهواء. ثم بدأ يمشي ببطء وريبة نحو الكهف. استمر الرجل في سيره وسرعان ما اختفى من أمام المدخل؛ لكن الكلب ما زال يقترب من الكهف، ويتوقف بين الحين والآخر بأنف مرفوع.

بدت الكارثة حتمية. لكن في تلك اللحظة، ارتفع صوت الرجل عاليًا وغاضبًا، وهو يُنادي على الكلب. فتردد الحيوان وهو ينقل بصره بحزن من سيده إلى الكهف. ولكن عندما تكرر الاستدعاء، استدار على مضض وهرول مبتعدًا.

أكمل إلتون النهوض وأخذ نفَسًا عميقًا. وبينما ينهمر العرق البارد على وجهه، ويرتعش قلبه وترتجف ركبتاه، استطاع بصعوبة أن يعود إلى موقع المراقبة. يا له من خطر بشع نجا منه بأعجوبة! لأنه لو كان قد أكمل وقفته أمام الجثة، ولو كان الرجل قد دخل الكهف، لكان قد قبض عليه متلبِّسًا بسرقة وثيقة إدانته من الجثة. وفي هذا الصدد، أصبح أفضل حالًا قليلًا الآن، مع وجود محفظة الرجل الميت معه، فقرر على الفور إخراج الإيصال وإتلافه وإعادة المحفظة لمكانها. ولكن التفكير في الأمر كان أسهل من تنفيذه. كان الإيصال قد ابتل تمامًا بماء البحر، لذا لم يتمكن من إشعال النار فيه. وفي نهاية المطاف، مزقه إلى قطع صغيرة وابتلعها عمدًا واحدة تلو الأخرى.

لكن إعادة المحفظة كانت أمرًا لا يقدر عليه الآن. وقرر أن ينتظر حتى ينصرف الناس لتناول الغداء، ثم يدفعها تحت الحشائش وهو يفر مبتعدًا. لذا جلس مرة أخرى وغرق في بحر أفكاره التي لا تنتهي.

لقد تخلص من الإيصال الآن؛ وبهذا ينتفي الدافع لارتكابه الجريمة. ولم يتبقَّ سوى الملابس التي تحمل علامات واضحة للغاية. إنها ستُشير بالتأكيد إلى علاقته بصاحب الجثة، لكنها لن تُقدم أي دليل على وجوده وقت وقوع الكارثة. ثم فجأة خطرت له فكرة أخرى مذهلة. من الذي سيستطيع التعرف على الجثة؛ الجثة التي ليس لها وجه؟ يُمكن ذلك عبر المحفظة، هذا صحيح، لكن بإمكانه أن يأخذها معه، وهناك خاتَم في الإصبع وبعض الأشياء في الجيوب يُمكن التعرف عليها. لكن — بدا كأن صوتًا يهمس له — هذه الأشياء متحركة أيضًا. وإذا أخذها فماذا بعد؟ إذن فسيُصبح الجسد هو جسدَ توماس إلتون، فنان بائس فقير، لا صديق له، لن يبذل أحدٌ مشقة طرح أي أسئلة عنه.

لقد فكر بعمق في هذا الوضع الجديد. فهو أمام اختيارَين؛ إما الخطر الوشيك بالتعرض للشنق من أجل جريمة قتل لم يرتكبها، أو التنازل عن هُويته إلى الأبد والانتقال إلى بيئة جديدة.

ابتسم ابتسامة باهتة. هويته! وهل هي ذات قيمة ليُقايضها بحياته؟ أمس فقط كان سيُسعده أن يتنازل عنها باعتبارها الثمنَ المجرد للتحرر من مصاص الدماء الذي استحوذ عليه.

ومِن ثَم؛ أدخل المحفظة في جيبه وزرر معطفه. لقد مات توماس إلتون. وهذا الرجل الآخر، الذي ليس له اسم حتى الآن، يجب أن يخرج، كما قالت المرأة، إلى ضوء الشمس.

الجزء الثاني (رواه الطبيب كريستوفر جيرفيز)

لقد زاد مؤخرًا بشكل كبير، لأسباب متعددة، كمُّ نزاعات التأمين التي تولَّى ثورندايك التحقيقَ فيها. حيث زاد عدد شركات التأمين التي تستعين به في مثل تلك النزاعات بانتظام، ومنذ قضية بيرسيفال بلاند المتميزة، أصبحت ممارسةً روتينية لدى شركة جريفين أن تُرسل جميع النزاعات التي تحتاج إلى التقصِّي والتحقيق إليه كي يُحقق فيها ويُقدم عنها تقريره.

[**ملحوظة المؤلف:** ستَرِد قضية بيرسيفال بلاند بعد هذه القضية في الكتاب: من الواضح أن ترتيب القصص قد تغير.]

وبخصوص واحدة من تلك القضايا، زاره السيد ستوكر، أحد كبار موظَّفي تلك الشركة، في عصر أحد أيام شهر ديسمبر؛ وعندما وضع حقيبتَه على المنضدة واستقرَّ براحة أمام المدفأة، تحدث في صُلب القضية بدون مقدمات.

إذ قال: «لقد أحضرت لك قضية تحقيق أخرى؛ إنها قضية غريبة إلى حدٍّ ما، وستجدها مثيرة جدًّا لاهتمامك. ومن جهتنا نحن، فهي لم تُثِر أي اهتمام خاصٍّ بالنسبة إلينا، باستثناء أنه يبدو كما لو كان الطبيب التابع لنا غيرَ دقيق إلى حدٍّ ما.»

فسأله ثورندايك: «وما هو الشيء الذي سيُثير اهتمامي أنا في هذه القضية؟»

قال ستوكر: «سأُقدم لك تصورًا عامًّا عنها، وأعتقد أنك ستتَّفق معي على أنها قضية من النوع الذي تُحب أن تتولَّى التحقيق فيه.»

«في الرابع والعشرين من الشهر الماضي، اكتشف بعض الرجال الذين يجمعون الأعشاب البحرية لاستخدامها كسماد، جثَّة ترقد تحت كتلة متراكِمة من الأعشاب في أحد كهوف كينجزجيت، في جزيرة ثانيت. ونظرًا لأن المد كان يرتفع وقد خَشُوا أن يسحب الجثة إلى البحر، وضعوا الجثة في عربتهم ونقلوها إلى مارجيت، حيث أُجري بالطبع تحقيق، وقد تُوصِّل للحقيقة التالية: أن الجثة هي لرجل يُدعى توماس إلتون. تم التعرف على هُويته من خلال علامات الاسم على الملابس وبطاقات الزيارة وخطابَين عُثِر عليهما في الجيوب. ومن العنوان الموجود في الخطابين، تبيَّن أن إلتون كان يُقيم في مارجيت، وعند الاستفسار في هذا العنوان، أكدت السيدة العجوز مالكة المنزل، أنه مفقودٌ منذ أربعة أيام. وقد اصطُحِبت السيدة إلى المشرحة، حيث تعرفَت في الحال على الجثة وأكدت أنها جثةُ إلتون. ومِن ثَم تبقَّى فقط تحديد كيفية دخول الجثة إلى الكهف؛ ولا يبدو أن هذا يُمثل صعوبة كبيرة؛ لأن العنق

قد كُسِر بضربة قوية دمرَت الوجه عمليًّا، وكانت هناك أدلة واضحة على كسر جزء من قمة الجرف، على بُعد أمتار قليلة فقط من موقع الكهف. لذا يبدو أنه لم يكن هناك شكٌّ في أن إلتون قد سقط من أعلى الجرف البارز على الشاطئ. والآن، يُمكن للمرء أن يفترض في وجود تلك الأدلة على هذا السقوط من حوالي مائة وخمسين قدمًا، والوجه المحطَّم والرقبة المكسورة، أنه ليس هناك مجالٌ للشك بشأن سبب الوفاة. وأعتقد أنك تتفق معي يا دكتور جيرفيز؟»

أجبتُه: «بالتأكيد، يجب الإقرار بأن كسر العنق هو حالة تسبب الوفاة.»

قال ستوكر متفقًا في الرأي: «هذا صحيح تمامًا، لكن صديقنا، المحقِّق الجنائي المحلي، رجل لا يأخذ أي شيء على أنه أمر مسلَّم به، وهو يُشبه توماس ديديموس للغاية، الذي يبدو أنه يتفق مع الدكتور ثورندايك على أنه إذا لم يكن هناك تشريحٌ بعد الوفاة، فلا يوجد تحقيق. لذلك أمر بإجراء تشريح لاحق، وقد بدا لي إجراءً سخيفًا غير ضروري، وأعتقد أنه حتى أنت ستُوافقني الرأي يا دكتور ثورندايك.»

لكن ثورندايك هز رأسه وهو يقول:

«لا على الإطلاق، على سبيل المثال، قد يكون من الأسهل بكثير دفعُ رجل مخدر أو مسموم من فوق جرف بدلًا من دفع نفس الرجل وهو في حالته الطبيعية. إن مظهر الحادث العنيف هو قناع ممتاز لأشكال القتل الأقلِّ وضوحًا.»

قال ستوكر: «هذا صحيح تمامًا، وأفترض أن هذا هو ما اعتقده المحقِّق الجنائي. على أي حال، حدث تشريح الجثة، وكانت النتيجة غريبة للغاية؛ لأنه وجد أن المتوفَّى كان مصابًا بمرض تمدد الأوعية الدموية الصدرية الدقيقة، التي انفجرت. والآن، بما أنه من الواضح أن الأوعية الدموية المتمددة قد انفجرت وهو على قيد الحياة، فإن هذا يجعل سبب الوفاة — حسبما فهمت — غير مؤكَّد؛ على أي حال، لم يتمكَّن الطبيب الشرعي من تحديد ما إذا كان المتوفَّى قد سقط من فوق الجرف نتيجةَ انفجار الأوعية الدموية المتمددة أم أن انفجارها قد حدث نتيجة السقوط من فوق الجرف. وبالطبع، نحن لا يُهمنا الطريقة التي حدث بها الانفجار؛ لكن السؤال الوحيد الذي يُهمنا هو، كيف يُمكن أن يُصاب رجل مؤمَّن عليه منذ فترة وجيزة بتمدد الأوعية الدموية من الأساس.»

فسأله ثورندايك: «هل دفعتم مبلغ بوليصة التأمين بموجب المطالبة؟»

«لا، بالتأكيد لا. نحن لا ندفع قيمة أي مطالبة حتى نحصل على تقرير منك. ولكن، في واقع الأمر، هناك ظرف آخرُ يُسبب التأخير. إذ يبدو أن إلتون قد رهن بوليصة التأمين

الخاصة به لمرابي أموال، اسمه جوردون، وهو الذي قدم المطالبة، أو على وجه الدقة، قدَّمها كاتبٌ لديه، اسمه هايامز. وفي واقع الأمر، إن لدينا الكثيرَ من التعاملات مع هذا الرجل جوردون، وفي المرات السابقة كان يتعامل معنا دائمًا بنفسه؛ ولأنه رجل مخادع إلى حدٍّ ما، اعتقدنا أنه يجب عليه توقيعُ المطالبة بنفسه. وهذه هي المشكلة؛ لأنه يبدو أن السيد جوردون قد سافر إلى الخارج، ومكان وجوده غير معروف لهايامز؛ لذلك لم نقبل أن نأخذ إيصال استلام من هايامز، وعليه ستظل المسألة معلقة حتى يتمكَّن هايامز من التواصل مع مديره. والآن، يجب أن أُسارع بالانصراف. لقد أحضرت لك، كما سترى، جميع الأوراق، وفي ذلك وثيقة التأمين وسند الرهن.»

بمجرد رحيله، جمع ثورندايك حزمة الأوراق وصنَّفها وفقًا لأهميتها. وفي البداية ألقى نظرة سريعة على نموذج التقديم، ثم نسخة من إفادات المحقق الجنائي.

ثم قال: «إن الأدلة الطبية كاملة ومستوفاة للغاية. ويبدو أن المحقق الجنائي والطبيب الشرعي على حد سواء قد قاما بعملهما على أكمل وجه.»

فقلت: «بالنظر إلى أن الرجل سقط كما يبدو من فوق جرف، فليس للأدلة الطبِّية أهميةٌ أولى. لكن الأمر الأكثر أهمية هو معرفة كيفية سقوطه.»

أجاب ثورندايك: «هذا صحيح تمامًا، ومع ذلك، يحتوي هذا التقرير على بعض الأمور المثيرة للفضول. إذ كان المتوفَّى يُعاني من تمدد الأوعية الدموية في قوس الشريان الأورطى؛ ربما كان هذا حديثًا إلى حد ما. لكنه كان يُعاني أيضًا من أعراض طفيفة لمرض خلقي في الشريان الأورطى، مع تضخُّم تعويضي كامل. ولديه أيضًا طقم كامل من الأسنان الاصطناعية. والآن، ألا تجد يا جيرفيز أنه أمر غريب إلى حد ما أن الرجل الذي فحصَت شركة التأمين حالته الصحية قبل خمس سنوات وأمَّنَت عليه بعد أن وجدته لا يُعاني من أي أمراض، بل وضعته في فئة الدرجة الأولى، يُصبح، في تلك الفترة القصيرة، في فئة من ترفض الشركة التأمين عليهم نظرًا لتردِّي حالتهم الصحية؟»

قلت: «نعم، يبدو بالتأكيد كما لو أن الرجل كان سيئ الحظ للغاية. ولكن ماذا يقول نموذج التقديم؟»

ثم أمسكت النموذج وألقيتُ نظرة سريعة عليه. بِناءً على نصيحة ثورندايك، حدثت توصية للأطباء الذين سيُجرون الفحوصات لحساب شركة جريفين بأن يُقدموا تقريرًا شاملًا ووافيًا أكثر مما هو معتاد في بعض الشركات. وفيما يخص هذه الحالة، تُوضح الإجابات العادية على الأسئلة أن القلب يتمتع بصحة جيدة وأن الأسنان جيدة بشكل

استثنائي، وبعد ذلك، في الملخَّص في نهاية التقرير، كتب الطبيب الملحوظة التالية: «إن مقدم الطلب رجل سليم ويتمتع بصحة جيدة للغاية؛ وليس لديه أي عيوب جسدية على الإطلاق، باستثناء تصلُّب عظمي في المفصل الأول من الإصبع الثالث من اليد اليسرى، الذي ذكر أنه كان بسبب إصابة قديمة.»

نظر ثورندايك نحوي بسرعة وهو يسأل: «أي إصبع قلت؟»

فأجبته: «الإصبع الثالث من اليد اليسرى.»

نظر ثورندايك بعناية إلى الورقة التي كان يقرؤها ثم قال: «إنه أمر غريب جدًّا، لأنني أرى أن طبيب مارجيت يقول إن المتوفَّى كان يضع خاتمًا يستخدمه كختم في الإصبع الثالث من يده اليسرى. والآن، بالطبع، لا يُمكنك وضع خاتم في إصبع مصاب بتصلب عظمي في المفصل.»

فقلت: «لا بد أنه قد أخطأ في الإصبع، أو أن طبيب فحص التأمين أخطأ.»

أجاب ثورندايك: «هذا ممكن تمامًا، لكن ألا يبدو الأمر غريبًا جدًّا؛ ففي حين أن طبيب التأمين يذكر التصلب العظمي، الذي لم يكن مهمًّا من وجهة نظر التأمين، فإن الطبيب الشرعي الحريص للغاية الذي قام بإجراء التشريح لم يذكره، على الرغم من أنه، نظرًا لحالة الوجه الذي لا يُمكن التعرف عليه، كان له أهمية حيوية من أجل تحديد الهُوية؟»

اعترفت بأنه أمر غريب جدًّا بالفعل، ثم استأنفنا فحص أوراق القضية. لكنني لاحظت الآن أن ثورندايك قد وضع التقرير على ركبته، وكان يُحدق في نار المدفأة وهو غارق في تفكير عميق.

قلت: «أكاد أجزم أن صديقي العالم قد توصَّل لبعض الأمور المهمة في هذه القضية.»

رد عليَّ بأن سلمَني حُزمة الأوراق، وأوصاني بالاطلاع عليها.

فقلت له: «شكرًا لك، لكنني أعتقد أنك قد قطفت كل الخوخ.»

ابتسم ثورندايك بمتعة وهو يقول: «إنه ليس بخوخ يا جيرفيز، إنه فقط توت، لكنها كومة معتبرة من التوت.»

أعَرتُه كامل انتباهي (وكأنني طالب علم حديثُ السن) بينما استرسل هو قائلًا: «إذا أخذنا العناصر الصغيرة غيرَ المثيرة للاهتمام وأضفناها معًا، فسترى أن هناك قدرًا كبيرًا جدًّا من التناقضات، حيث إنه:

في عام ١٩٠٣، كان توماس إلتون، البالغ من العمر واحدًا وثلاثين عامًا وقتها، يمتلك مجموعة كاملة من الأسنان السليمة. وفي عام ١٩٠٨، عندما بلغ السادسة والثلاثين، فقدَ

أكثر من نصف أسنانه. مرة أخرى، في سن الحادية والثلاثين، كان قلبه بصحة جيدة للغاية. وفي سن السادسة والثلاثين، أصبح يُعاني من مرض مزمن قديم بالشريان الأورطى، مع تضخُّم تعويضي كامل، وتمدد في الأوعية الدموية الذي قد يكون بسببه. وعندما فُحِص جسده وقت التأمين عليه كان لديه تشوُّه واضح في الإصبع غير قابل للشفاء؛ ولم يذكر الطبيب الشرعي مثل هذا التشوه عند تشريح الجثة.

يبدو أنه سقط من فوق جرف؛ وقد انفجرت أيضًا الأوعية الدموية المتمددة. والآن، من الواضح أن انفجار الأوعية الدموية قد حدث أثناء الحياة؛ لكن هذا يُؤدي عمليًّا إلى الموت الفوري. لذلك، إذا كان السقوط عرضيًّا، فإن الانفجار يجب أن يكون قد حدث أثناء وقوفه على حافة الجرف، أو أثناء السقوط، أو عند الارتطام بالشاطئ.

في المكان الذي سقط فيه على ما يبدو، يبعد ممر المشاة نحو ثلاثين ياردة عن حافة الجرف.

من غير المعروف كيف وصل إلى تلك البقعة، أو ما إذا كان بمفرده في ذلك الوقت.

شخص ما يُطالب بخَمسمائة جنيه كنتيجة مباشرة لوفاته.

هناك، كما ترى يا جيرفيز، سبع حيثيات، ليس أيٌّ منها مذهلًا في حد ذاته، ولكنها تُصبح موحية عندما تُفكر فيها مجتمعة.»

فقلت: «يبدو أن لديك شكًّا في هُوية الجثة.»

فأجاب: «نعم لديَّ، إذ إن الهوية لم تثبت بشكل واضح.»

«ألا تعتقد أن الملابس وبطاقات الزيارة قد حددتها.»

أجاب: «إنها ليست أجزاء من الجسد، وبالطبع، فإن الاستبدال أمرٌ بعيد الاحتمال. لكنه ليس مستحيلًا.»

قلت: «والمرأة العجوز ...» لكنه قاطعني صائحًا:

«عزيزي جيرفيز، أنا مندهش مما تقول. كم مرةً حدث في حدود معرفتنا أن النساء تعرَّفن على أجساد الغرباء تمامًا على أنها أجساد أزواجهن أو آبائهن أو إخوانهن؟ يحدث الشيء كل عام تقريبًا. أما بالنسبة إلى هذه المرأة العجوز، فهي شاهدت جثة بوجه لا يُمكن التعرف عليه، مرتدية ملابس المستأجر المفقود. بالطبع، لقد تعرفت على الملابس وليس الجثة.»

وافقتُه الرأي قائلًا: «أعتقد ذلك. يبدو أنك تقترح إمكانية حدوث تلاعب.»

أجاب: «حسنًا، إذا فكرت في هذه النقاط السبع، فستتفق معي على أنها تُقدم تناقضًا تراكميًّا يستحيل تجاهله. وتنصبُّ الأهمية الكلية للقضية على مسألة الهوية؛ لأنه إذا لم

تكن هذه جثة توماس إلتون، إذن يبدو أنها قد أُعِدَّت عن عمد لتزوير هُويتها، ومن شأن هذا الإعداد المتعمَّد أن يعنيَ بوضوح محاولة إخفاء هوية شخص آخر.»

ثم استرسل، بعد وقفة: «ومِن ثَم، هناك هذا السند. الذي يبدو عاديًّا تمامًا ومختومًا بشكل صحيح، لكن يبدو لي أن سطح الورقة قد تغير قليلًا في مكان أو مكانَين وإذا وضعنا الورقة أمام الضوء، تبدو الورقة أكثر شفافية في تلك الأماكن.» قام بفحص الوثيقة لبضع ثوانٍ باستخدام عدسة جيبه، ثم مرر لي العدسة والوثيقة وقال: «ألقِ نظرة عليها يا جيرفيز، وأخبرني برأيك.»

فحصتُ الورقة عن كَثب، وأخذتها أمام النافذة للحصول على ضوء أفضل؛ وبالنسبة إليَّ أيضًا، يبدو أن الورقة قد تغيرت في أماكن معينة.

فسألني ثورندايك عندما أعلنتُ تلك الحقيقة: «هل اتفقنا على مواضع الأماكن المعدَّلة؟»

أجبته: «هناك ثلاثة مواضع؛ اثنان عند الاسم، توماس إلتون، والثالث لأحد الأرقام الموجودة في رقم البوليصة.»

قال ثورندايك: «بالضبط، والمغزى واضح. إذا كانت الورقة قد عُدِّلت بالفعل، فهذا يعني أنه تم محو اسم آخر ووضع اسم إلتون بدلًا منه؛ وبهذا الترتيب، بالطبع، سيتم تأمين الختم المؤرخ بشكل صحيح. وهذا — تعديل وثيقة قديمة — هو الشكل الوحيد للتزوير الممكن بختم مؤرَّخ ومطبوع.»

سألته: «أليست ضربة حظ، أن يحصل المزور على وثيقة لا تحتاج إلا إلى هذَين التعديلَين؟»

أجاب ثورندايك: «لا أرى شيئًا مميزًا في الأمر، إن أيَّ مُرابي أموال يحمل بالقطع عددًا من الوثائق من هذا النوع، ولاحظ أنه لم يكن ملزمًا بأي تاريخ معين. وأي تاريخ في غضون عام أو نحو ذلك من إصدار البوليصة سيفي بالغرض. إن هذه الوثيقة هي، في الواقع، مؤرَّخة، كما ترى، بعد حوالي ستة أشهر من إصدار البوليصة.»

فقلت: «أفترض أنك ستَلفت انتباه ستوكر إلى هذا الأمر.»

أجاب ثورندايك: «يجب إبلاغه بالطبع، لكنني أعتقد أنه سيكون من المثير للاهتمام في المقام الأول أن نزور السيد هايامز. لعلك لاحظت أن هناك بعضَ الأمور الغامضة في هذه القضية، وسلوك السيد هايامز، خاصة إذا ثبت أن هذه الوثيقة حقًّا مزورة، يُشير إلى أنه قد يكون لديه بعض المعلومات الخاصة حول هذا الموضوع.» ثم ألقى نظرة خاطفة على ساعته، وبعد بضع لحظات من التفكير، أضاف: «إذن لِمَ لا نقوم في الحال بزيارة قصيرة

غير رسمية للسيد هايامز. ولكن الأمر يحتاج إلى مزيد من الحذر والحصافة، إذ إن لدينا قدرًا ضئيلًا للغاية من المعلومات والقرائن. هل ستأتي معي؟»

إذا كانت لديَّ أي شكوك، فإن ملاحظة ثورندايك الأخيرة قد خلصَتني منها؛ لأن المقابلة على ما يبدو ستُصبح مواجهة صعبة؛ إذ من المفترض أن السيد هايامز ليس غِرًّا ساذَجًا، وبالتأكيد لم تكن الأمور واضحة تمامًا أمام ثورندايك، الذي يحتقر تمامًا الخداعَ من أي نوع، والذي رفض عقلُه المنظم أن يتصرف أو يتحدث بما يتجاوز معلوماته. لذا فإن تلك المقابلة على ما يبدو ستكون ساخنة للغاية.

رُفِع الستار عن السيد هايامز، كما يقول الكتَّاب المسرحيون، في مكتب صغير يقع فوق أحد المباني الشاهقة في شارع الملكة فيكتوريا. وهو رجل ضئيل الحجم، شاحب المظهر ومتكلف، مع حاجبَين كثيفَين وأنف ضخم.

عندما دخلنا المكتب سأله ثورندايك بثقة: «هل أنت السيد جوردون؟»

بدا السيد هايامز وكأنه يُواجه شكًّا لحظيًّا حول هذا الموضوع، لكنه أجاب في النهاية بأنه ليس جوردون. ثم أضاف ببراعة: «لكن ربما يُمكنني تأدية ما تريده من المهام مثله تمامًا أيضًا.»

وافقه ثورندايك وقال مؤكدًا على نحو له معنًى: «أنا واثق من ذلك.» ومِن ثَم قادنا إلى غرفة معزولة داخلية، حيث لاحظت أن ثورندايك قد حدَّق للحظة في خِزانة حديدية كبيرة.

قال السيد هايامز، وهو يُغلق الباب متفاخرًا: «والآن، كيف يُمكنني أن أخدمك؟»

أجاب ثورندايك: «أُريدك أن تُجيب عن سؤال أو سؤالَين حول المطالبة التي قدمتَها لشركة جريفين بخصوص توماس إلتون.»

تغير سلوك السيد هايامز على نحو مفاجئ؛ إذ بدأ بسرعة في تقليب الأوراق، وفتحِ وإغلاق أدراج مكتبه، في جوٍّ من الانشغال المضطرب.

ثم سأل بحِدة: «هل أرسلك موظَّفو شركة جريفين إلى هنا؟»

أجاب ثورندايك: «لم يطلبوا مني ذلك على وجه التحديد.»

قال هايامز وهو يقفز من كرسيه: «إذن، لا يُمكنني السماح لك بإضاعة وقتي. لست هنا للإجابة عن ألغاز من توم أو ديك أو هاري.»

نهض ثورندايك من كرسيِّه. وقال بلطفٍ تام: «إذن هل أفهم من هذا، أنك تُفضل أن أتواصل مع أعضاء مجلس الإدارة، وأترك لهم حرية اتخاذ أي إجراء ضروري.»

سأله السيد هايامز وهو ينتفض واقفًا: «ما هو الإجراء الذي تُشير إليه؟ ومن أنت؟»

أخرج ثورندايك بطاقة ووضعها على المكتب. وعلى ما يبدو أن السيد هايامز قد رأى الاسم من قبل، لأنه فجأة ازداد شحوبًا وصار أكثر جدية.

ثم سأل: «ما هي طبيعة الأسئلة التي كنت ترغب في طرحها؟»

أجاب ثورندايك: «إنها بخصوص هذه المطالبة؛ السؤال الأول هو، أين السيد جوردون؟»

قال هايامز: «لا أعرف.»

فسأله ثورندايك: «إذن أين هو في ظنك؟»

أجاب هايامز: «ليس لديَّ أيُّ فكرة على الإطلاق.» وقد ازداد شحوبه وراح ينظر في كل مكان ما عدا نحو ثورندايك.

قال الأخير: «حسنًا، السؤال التالي هو، هل أنت مقتنع بأن لدَيه حقًّا في هذه المطالبة بالفعل؟»

أجاب هايامز: «لم أكن لأتقدَّم بها للشركة لو لم أكن مقتنعًا.»

قال ثورندايك: «بالفعل، والسؤال الثالث هو؛ هل أنت مقتنع بأن سند الرهن قد نُفِّذ على الوجه الأكمل؟»

أجاب هايامز، الذي كان يزداد شحوبًا وتوترًا في كل لحظة: «لا يُمكنني قولُ أي شيء عن ذلك، لقد حدث قبل أن أتولى القضية.»

قال ثورندايك: «شكرًا لك.» «أنت تفهم بالطبع سبب إجراء هذه الاستفسارات.»

قال هايامز: «أنا لا أفهم شيئًا.»

قال ثورندايك: «إذن، ربما كان لديَّ تفسير أفضل. نحن نتعامل، كما تُلاحظ يا سيد هايامز، مع قضية رجل مات ميتة عنيفة وفي ظروف غامضة إلى حدٍّ ما. كما نتعامل أيضًا مع رجل آخر اختفى تاركًا شئونه كي تحل نفسَها بنفسها؛ ومع مطالبة يُقدمها طرفٌ ثالث نيابة عن الرجل الوحيد ذي الصلة بالمتوفَّى. عندما أقول إن المتوفَّى لم يتم التحقُّق تمامًا من هُويته وإن الوثيقة المؤيدة للمطالبة تُشير إلى أمور غريبة على وجه التحديد، عندئذٍ ستفهم أن الأمر يستدعي مزيدًا من الاستفسار.»

ساد الصمت لفترة طويلة. وقد وصل شحوبُ السيد هايامز إلى أقصى درجة، ونظر إلى كلِّ ركن في الغرفة، كما لو كان حريصًا على تجنُّب النظرة الحجرية التي صوَّبها زميلي إليه.

سأله ثورندايك، بعد فترة الصمت: «هل ستمتنع عن مساعدتنا؟»

وضع السيد هايامز حامل القلم في فمه وجز عليه بأسنانه في قلق، وهو يُفكر في السؤال. وفي النهاية، انفجر بصوت مضطرب: «اسمع يا سيدي، إذا قلت لك ما أعرف، هل ستتعامل مع المعلومات على أنها سرِّية؟»

أجاب ثورندايك: «لا يُمكنني الموافقة على ذلك يا سيد هايامز، قد يرقى الأمر إلى التغاضي عن جناية. لكن سيكون من الحكمة أن تُخبرني بما تعرفه؛ إذ إن الوثيقة أمر جانبي، قد لا يُثيرها عملائي أبدًا، لكن ما يشغلني حقًّا هو موت هذا الرجل.»

بدا على هايامز الارتياح بشكل واضح فقال: «إذا كان الأمر كذلك، فسأُخبرك بكل ما أعرفه، وهي معلومات قليلة للغاية، وهي كما يلي: بعد يومَين من مقتل إلتون، جاء شخص ما إلى هذا المكتب في غيابي وفتح الخِزانة، لقد اكتشفت هذه الحقيقة في صباح اليوم التالي. فتح شخصٌ ما الخزانة وعبث بجميع الأوراق. وهو لم يكن جوردون، لأن جوردون يعرف مكان كل الوثائق؛ كما لم يكن لصًّا عاديًّا، لأنه لم يسرق أموالًا أو أشياء ثمينة. وفي الحقيقة، لقد سرق شيئًا واحدًا؛ هو إيصال الأمانة، الموقَّع من إلتون.»

سأله ثورندايك: «هل سرق سند الرهن أيضًا؟» فأجابه هايامز، بعد أن قضم جزءًا من حامل القلم، بأنه لم يفعل.

قال ثورندايك: «كما لم يسرق البوليصة بالطبع.»

أجاب هايامز: «لا، ولكنه بحث عنها. حيث فكَّ ثلاث حُزم من البوليصات وبعثرها، ولكن هذه البوليصة تصادف وجودها في درج بمكتبي وكان لديَّ المفتاح الوحيد.»

فسأله ثورندايك: «وماذا تستنتج من هذه الزيارة؟»

أجاب هايامز: «حسنًا، لقد فُتِحت الخزانة بالمفاتيح، وكانت مفاتيح جوردون — أو على أي حال، لم تكن مفاتيحي — والشخص الذي فتحها لم يكن جوردون؛ والأشياء التي أُخِذت — أو على الأقل الشيء الوحيد — تخص إلتون بشكل رئيسي. بطبيعة الحال، لقد ساورني الشك؛ وعندما قرأت عن العثور على الجثة، تزايد الشك.»

«وهل لديك أي رأي حول الجثة التي عُثر عليها؟»

فأجاب: «نعم، لديَّ؛ رأيي هو أنها جثة جوردون، حيث كان جوردون يضغط بشدة على إلتون كي يحصل على النقود، لذا دفعه إلتون من فوق الجرف ونزل وألبس ملابسه للجثة. بالطبع، هذا فقط رأيي. وقد أكون مخطئًا؛ لكنني لا أعتقد أنني كذلك.»

في واقع الأمر، لم يكن السيد هايامز مخطئًا. حيث استُخرِجت الجثة المدفونة، عقب تشكيك ثورندايك في هوية المتوفى، وأظهر الفحص أنها جثة سولومون جوردون. ومِن ثَم،

رُصِدت مكافأة قدرها مائة جنيه لمن يُدلي بمعلومات عن مكان إلتون. ولكن لم يتمكَّن أحدٌ من الحصول عليها قط. لكن خطابًا، يحمل علامة بريدِ مرسيليا، مرسَلًا من الرجل المفقود إلى ثورندايك، أعطى تفسيرًا معقولًا لوفاة جوردون؛ كما أكد أنها قد حدثت عرَضيًّا في الوقت الذي تصادف فيه أن جوردون كان يرتدي بدلة من ملابس إلتون.

بالطبع، ربما كان هذا التفسير صحيحًا، أو مرة أخرى، ربما كان خاطئًا؛ ولكن سواءٌ كان صحيحًا أو خاطئًا، فقد اختفى إلتون عن الأنظار ولم يعرف أحدٌ عنه شيئًا منذ ذلك الحين.

باودر بلو وهوثورن

الجزء الأول

ألقى السيد هنري بالمر نظرة فاحصة على الطبيب ماكماليجان من طَرْف خفي. إذ بلغَته معلومة تُفيد بأنه في ليلة الجمعة سيجد الطبيبَ مخمورًا على الأرجح. وقد تبين أنه كذلك بالفعل. لكن السؤال الذي أثار قلق السيد بالمر كان: إلى أيِّ مدًى كان مخمورًا، وبالأحرى، هل هو مخمور بالدرجة الكافية؟

إنه سؤال دقيق وصعب؛ فالأشخاص ذَوو الحالات الخاصة يُفاجئوننا في بعض الأحيان؛ فقد يُفاجئنا الرجل قصير النظر والمصاب بحول أيضًا، والذي من المفترض أن يكون أعمى مثل خفاش، بأنه يرى أحيانًا بحدَّة رؤية محيرة؛ وقد يُذهلنا رجل أعرجُ بمهارات رشاقة مذهلة؛ كما أن عدم اليقين لدى الصُّم هو أمر نُلاحظه يوميًّا؛ أما بالنسبة إلى الشخص المخمور، فإن الفلسفة المثلى قد ابتكرت لهم في الواقع عناية إلهية خاصة؛ لذلك راقب السيد بالمر تصرفات الطبيب بقلق عن قرب.

سأله الطبيب بصوت أجش مع لكنة أيرلندية خفيفة: «متى أُصيب صديقك بالمرض؟»

أجابه السيد بالمر: «منذ أسبوع أو أسبوعَين؛ على هيئة نوبات متقطعة، لكن النوبة الأخيرة هاجمته هذا الصباح.»

قال الدكتور ماكماليجان بأسلوب فظٍّ: «وأظن أنك تُريدني أن أذهب معك على الفور؟»

فأجابه بالمر: «إن كان بمقدورك هذا؛ فهو في حالة حرجة للغاية.»

تمتم ماكماليجان قائلًا: «أعلم هذا. إنها نفس القصة العتيقة. تأجيل استدعاء الطبيب حتى يُصبح المريض في لحظاته الأخيرة، ثم نُزعج الطبيب أثناء تناوله العشاء أو نُقلق نومه.»

قال بالمر: «أنا آسف. ولكن هل أفهم من كلامك أنك ستأتي معي؟»

أجابه الطبيب: «نعم سآتي؛ فالواجب يقتضي مني أن أفعل، رغم أنه أمر مزعج للغاية. أعطني الاسم والعنوان، وسأكون معك في لمح البصر.»

ومِن ثَم فتح دفتر التسجيل، وهو يغمس قلمه في برطمان مفتوح يحتوي على أقراص مستحلبات السعال، ويُحدق في السيد بالمر مستجوبًا. لاحظ بالمر ذلك برضا، وقرر أن الطبيب ماكماليجان سيفي بالغرض!

لم يكن ميناء شيرنس، المصبُّ الواسع لنهر ميدواي، في الساعة التاسعة مساءً من إحدى ليالي الخريف، مكانًا مثاليًّا للإبحار، لا سيما مع رياح ساويستر العاتية والأمطار الغزيرة. لذا جلس الدكتور ماكماليجان، في مؤخرة القارب وقد ضم أطرافه الأربعة، وهو يسبُّ ويلعن باستمرار، بينما يصفع الرذاذُ وجهه ويتناثر على ياقة معطفه الواقي من المطر.

قال بالمر معتذرًا: «إنها رحلة صعبة تلك التي اصطحبتك فيها، كما أنها شديدة البرودة أيضًا؛ لذا اسمح لي أن أقدم لك مشروبًا يبث الدفء في أوصالك؟» ثم أخرج من الخزانة زجاجة كبيرة مسطحة وكوبًا.

أجاب الطبيب مبتهجًا: «بكل سرور، فالجو بارد بما يكفي لتجميد قرد نحاسي.» ومِن ثَم أخذ الزجاجة المسطحة، وبثبات غير متوقع، سكب نصف كوب، وبعد أن تشمم رائحتها برضا، أخذ جرعة سريعة وتنفَّس نفسًا عميقًا. ثم قال وهو يرتشف جرعة أخرى للتأكد: «إنه مشروب جيد، أودُّ أن أعرف تاجر المشروب الخاص بك يا سيدي.»

ضحك بالمر وهو يقول: «أظن أن مفتشي الجمارك يُريدون معرفته أيضًا؛ فهو مشروب مهرَّب من الخارج.»

ضحك الطبيب من تلك الجملة وعاد يمتدح تاجر المشروب من جديد؛ وفي الواقع، بحلول الوقت الذي رسا فيه القارب على جزيرة جراين، كانت الزجاجة المسطحة قد أصبحت فارغة من المشروب وممتلئة بذكريات مبهجة. ومع ذلك، بينما كانوا يشقُّون طريقهم وسط الرياح والأمطار، أصاب الثبات النسبي لخطوات الطبيب رفيقه بالدهشة مع عدم ارتياح خفي. لكن كان لا بد من استكمال المهمة الآن، ولتجهيز نفسه من أجل المشهد الأخير، طرق بهدوء على باب منزل منعزل بجوار المستنقعات.

وبعد لحظات انفتح الباب، وظهر أمامهما رجل يحمل شمعة في إحدى يدَيه، وفي الأخرى منديلًا يمسح به عينَيه. ثم رمَقهما في فضول، وسأل بإحباط: «هل هذا هو الطبيب يا هنري؟»

أجابه بالمر: «نعم، آمُل أن ...»

ثم توقف عن الكلام، بينما هز الآخر رأسه بحزن وهو يقول: «تفضَّلا.» وعندما تبعاه إلى الغرفة الكئيبة، التي وُضِعت على الطاولة بداخلها زجاجة مشروب أخرى وثلاثة أكواب، تابع حديثه قائلًا: «لقد حدث الأمر بعد أقل من ساعة من مغادرتك يا هنري. أظن أن الطبيب ربما يُلقي عليه نظرة؟»

قال الطبيب: «وما الداعي لذلك؟» مضيفًا بغموض بعض الشيء: «هل تتوقَّع مني أن أُعيد الحياة إليه مثلما أعاد السيد المسيح الحياة إلى لازاروس؟»

لم يردَّ الرجل المحبط على هذا، ولكنه حمل الشمعة، وانسل من الغرفة على أطراف أصابعه وبدأ في صعود السلم، فتبعه بالمر والطبيب المحتج. حيث صعدوا بهدوء وفي صمت — لكن الطبيب تعثَّر على درجة في منتصف الطريق، وعلَّق بصوت أجشَّ على الموقف — حتى وصلوا إلى بابٍ في الطابق الأول، ففتحه مرشدهما برفقٍ وطلب منهما الدخول.

حدَّق بالمر وصديقُه محاوِلَين تحسس خطواتهما، إذ كانت الغرفة غارقة في ظلام دامس باستثناء ضوء الشمعة، التي أظهرت سريرًا كبيرًا بجانب الحائط يرقد عليه، على الجانب الأبعد، جسدٌ بلا حَراك مغطًّى بملاءة. تحرك الرجل ذو الشمعة على أطراف أصابعه نحو السرير، وسحب الملاءة بوقار، وترك الضوء المهتز يسقط على الوجه المكشوف. وكان وجهًا مروعًا بجلده الأبيض الميت، وفكه المغطَّى بالضمادات، والبنسَين اللذَين وُضِعا على الجفنَين، وهما يبدوان، في الضوء الخافت، مثل الظلال الداكنة للمحْجرَين الفارغَين.

حدَّق بالمر وصديقه بحزن في الجسد الساكن وتنهدا بعمق. لكن الطبيب كان أقل تأثرًا. وبعد نظرة واحدة على السرير، التفت مبتعدًا وهو يُزمجر، ثم قال: «لقد قطعنا رحلتنا تحت الأمطار من أجل لا شيء، كان يجب أن تستدعيا متعهد دفن الموتى وليس طبيبًا.» ومِن ثَم شرع بحذر في نزول السلم إلى الغرفة الأكثر بهجة في الأسفل، حيث تبعه الرجلان الآخران بعد قليل.

قال بالمر، وهو يخلط للطبيب كوبًا من المشروب: «أفترض أننا بحاجة إلى شهادة وفاة؟»

هز ماكماليجان رأسه موافقًا.

«ألا يُمكنك أن تكتبها الآن وتُجنبني عناء الرحلة؟»

أجاب الطبيب: «لا، أنا لا أحمل معي نموذج شهادة الوفاة.» مضيفًا بلمحة مضطربة من أثر المشروب: «إن مرضاي عادة ما يكونون على قيد الحياة، في البداية على أي حال،

لكن عليك أن تُعيدني في القارب، ومِن ثَم تأتي معي إلى عيادتي كي تحصل على الشهادة. كما يُمكنك استدعاء متعهد دفن الموتى والتجهيز للجنازة أيضًا؛ إذ من الأفضل إتمامُ هذه الأمور بسرعة. ليس من الجيد إبقاءُ جثة في المنزل لفترة طويلة.»

بعد تقديم هذه النصيحة دون مقابل، تجرع الطبيب كوبه ونهض. وثبت بالمر أزرار معطفه الواقي من المطر، وتوجَّه الرجال الثلاثة إلى الباب. لقد توقف المطر الآن، ولكن مع تأخر الوقت على المسافرين في الليل، هبَّت رياحٌ باردة عبر المستنقعات بينما تناهى لمسامعهما صوتُ الأمواج المتكسرة على الشاطئ. شاهدهما الرجل الذي تركاه خلفهما في المنزل وهما يبتعدان عبر الطريق الوعر، وعندما اختفيا، ذهب إلى غرفة الجلوس، وأخذ منظارًا بحريًّا من فوق أحد الرفوف، ثم خرج ليُراقبهما في الطريق خِلسة. حيث شاهدهما عبر المنظار وهما يدخلان القارب، ورآهما ينطلقان بالقارب ويرفعان الشراع، وبعد ذلك، عندما تلاشى القارب في الظلام، عاد إلى المنزل وأغلق الباب.

بعد أن أعاد المنظار إلى مكانه، أخذ الشمعة مرة أخرى وصعد السلَّم. لكن ليس على إصبع القدم هذه المرة. بل صعد قافزًا درجتَين في كل خطوة، وسار بحيوية إلى حجرة الموت، ووضع الشمعة على خِزانة ذات أدراج.

ثم قال: «إن المكان خالٍ يا جو؛ لقد رأيتُهما يُغادران في القارب.»

ومِن ثَم أزاح صاحبُ الجسد الراقد على السرير الملاءة عن وجهه وجلس، وبعد أن أمسك البنسَين ببراعة أثناء سقوطهما، رماهما في الهواء، وبدأ في فك ضمادة الوجه.

صاح جو وهو يهز ذقنه لأعلى ولأسفل: «ياه! يا له من شعور بالارتياح بعد التخلص من هذا الشيء الفظيع! ناولني الروب يا توم، ومنشفة لمسح هذا المسحوق.»

نهض جو مادًّا جسده، وارتدى الروب ومسح وجهه بخفة، ثم نزل مع رفيقه إلى الغرفة السفلية.

وقال وهو يسكب لنفسه كمية قليلة من المشروب: «لقد نجحت الخطوة الأولى، وتمكنَّا من الحصول على الشهادة، أليس كذلك يا بارات؟»

أجابه بارات: «نعم، وفيما يتعلق بأمر الدفن؛ لقد تجاوزنا الصعوبة الرئيسية. كل ما تبقى هو مجرد خطوات يسيرة.»

قال جو: «قد تكون كذلك، لكنها خطة معقدة للغاية. راجعها معي مرة أخرى فحسب؛ لعلي أتمكَّن من إدخالها في رأسي الغليظ.»

اتخذ بارات، بمظهر المعلم الذي يشرح درسًا لطالب، موقعًا على بِساط الحماية الموضوع أمام المدفأة، وشرع في التوضيح. فقال: «فيما يتعلق بالحصول على الأغراض،

الأمر بسيط حقًّا. كانت الصعوبة تكمن في العثور على مكان آمن لإخفائها حتى انتهاء محاولات ملاحقتنا، وقد تغلَّبنا عليها. والخطة الآن هي: أولًا، علينا أن نجعل متعهد دفن الموتى المحلِّي يصنع تابوتًا بالقياسات التي سيُقدمها له بالمر، ثم يُسلمه إلى بالمر، الذي سيُحضره في القارب؛ ويجب أن يكون بداخله تابوت من معدن الرَّصاص، الذي سيتعين عليه أن يتركه لنا مفتوحًا حتى نلحمه. أعتقد أن بالمر سيتمكن من فعل ذلك. ثم، عندما نحصل على التابوت، يأخذ بالمر القارب إلى إيست هيفن كريك بجوار جزيرة كانفي، ويتركه هناك. بعد ذلك، نزور أنا وهو المبنى — متخفيَّين، بالطبع — ومعنا نسخة المفاتيح التي أعطيتنا إياها، وبعض العينات الوهمية في حقائب ونطلب من الموظف المختص إيصالًا لها.

وأثناء قيامه بتفريغ الحقائب، سننقضُّ عليه من الخلف ونقتاده إلى الغرفة الحصينة ونحبسه فيها. ثم نفتح لك الباب لتدلَّنا أين يتم الاحتفاظ بأكثر الأشياء قيمة. وبينما نقوم بتعبئتها في الحقائب، تذهب وتُعطي إشارة لجيم بيكر كي يجلب سيارته على مقربة، بعد أن يُثبت عليها لوحة أرقام مزورة. ثم نحمل الحقائب — ستكون صغيرة جدًّا — ونُخبئها في السيارة، ونركبها ونفر بعيدًا. إنها خطة بسيطة جدًّا ومباشرة، وفي وضح النهار، ولا يوجد بها شيء مريب، إذ إن الحقائب دائمًا ما تدخل وتخرج. ومِن ثَم؛ يُوصلنا جيمي بالقرب من النهر. سيكون الظلام قد حلَّ عندئذٍ. فنخرج ونحمل الحقيبة عبر المستنقعات إلى القارب، وننزل مع المد ونُبحر إلى هنا. في هذه الأثناء، يفر جيمي بعيدًا، وعندما يصل إلى مكان هادئ على مسافة آمنة، يُغير لوحة أرقام السيارة. ثم يُسارع إلى نورويتش. يُمكنهم أن يشكوا فيه كما يرغبون، لكنهم لن يجدوا معه أيًّا من المسروقات، لأنها ستُدفَن بأمان في تابوت الراحل ويليام برونتون.»

«إذن، هل سترسل التابوت إلى جريفيلهام بالقطار؟»

«لا، هذا يستلزم الكثير من الجلَبة والكثيرَ من الأوراق والسجلات في دفاتر الشركة. سوف أُرسل أمر الدفن إلى ألن، متعهد دفن الموتى، وأُخبره أن التابوت قادم بالمركب. ثم سيتسلمه ويتخذ جميع الترتيبات اللازمة للجنازة؛ وسأشترط أن يتم إيداع الرفات في سراديب الموتى، وليس في قبر أو قبو. لهذا السبب يجب أن يكون لدينا تابوت من معدن الرصاص.»

«أنت تقول إن لديك مفتاحَ سراديب الموتى؟»

«ليس مفتاحًا؛ بل نسخة. حصلت عليه في الوقت الذي فكرت فيه لأول مرة في هذه الخطة، عندما كنت تأخذ نسخة من مفاتيح صاحب العمل الراحل، مثل سكرتير خاص مخلص جدير بالثقة …»

قاطعه الآخر بانفعال: «أوه، دعك من هذا! لست بحاجة إلى السخرية بعد أرغمتني على القيام بذلك.»

قال بارات بابتسامة ساخرة: «حسنًا، موراي، اهدأ أيها العجوز، دعنا نعُد إلى العمل. سيُرتب السيد ألن جنازة لطيفة وهادئة، وبعدما نتبع أخانا العزيز الراحل إلى مثواه الأخير — في الوقت الحاضر — يُمكننا أن نأخذ إجازة صغيرة ونترك الأمور حتى تهدأ. هل فهمت الخطة؟»

أجاب موراي: «أعتقد ذلك، ويبدو أنها خطة منظمة.»

صاح بارات: «منظمة! إنها خطة عبقرية. فقط افهم! لدينا هنا غنيمة ضخمة لا يُمكننا تذويبها ولا يُمكننا تفكيكها، وهذه، إذا ظلت مجمَّعة كما هي، فسوف تفضح أمرنا على الفور؛ ومع ذلك، كل قطعة منها قابلة للبيع على حدة. كل ما نُريده هو مكان آمن لتخبئتها، وبطريقة جَهنمية وجدناه. إن سراديب الموتى تلك أفضلُ من أي بنك أو خِزانة إيداع. وكلما احتجنا للمال، كان كل ما علينا القيام به هو زيارة الفقيد، واستخراج قطعة أو قطعتَين. ومِن ثَم نبيعها لتاجر التحف الأمريكي.»

«ولكن هل يُمكن الوصول إلى سراديب الموتى بسهولة؟»

ضحك بارات قائلًا: «بارك الله فيك! يبدو أنها بُنِيت لهذا الغرض. فالمقبرة خارج المدينة، وكل ما عليك فعله هو تجاوز الجدار؛ يُمكنك إحضار سلم إذا أردت، لا يوجد أحد ليعترض. أُؤكِّد لك يا موراي أن هذا الاستثمار الصغير سيُحقق لنا دخلًا وافرًا لسنوات.»

زمجر موراي: «يجب أن يكون الأمر كذلك، يلزمني حافز كبير لتعويضي عن كل ما مررت به.»

ابتسم بارات مرة أخرى، وقطع طرف سيجار.

الجزء الثاني

وقف السيد إدوارد ألن، صاحب مكتب فرش الجنازات ومتعهِّد دفن الموتى، في مكتبه الصغير، يفرك يدَيه برفق وتعاطُف، حين دخل إليه أربعة من السادة الذين بدا عليهم الحزن، وهم في حالة حِداد واضح، ولكن غير زائد. وقد عرَّفوه بأنفسهم مستخدِمين أسماءً مستعارة، لكن بالنسبة إلينا هم معروفون بأسمائهم الحقيقية؛ وهي بالترتيب توماس بارات وهنري بالمر وجوزيف موراي وجيمي بيكر.

قال السيد ألن وهو يواصل فرك يدَيه: «أنا محرج للغاية، أيها السادة، لإبلاغكم أن التابوت لم يصل بعد. لقد كان الطقس، كما تعلمون، عاصفًا إلى حد ما، ولا شك أن المركب تأخرت بسبب مقتضيات الملاحة.»

نظر الرجال الأربعة بعضهم إلى بعض بقلق، وتابع السيد ألن: «لكني أنتظر وصوله في أي لحظة. وعامل النقل عند رصيف الميناء، وعربة الجنازة جاهزة للبدء بمجرد وصول التابوت.»

في ظل هذه الأخبار السيئة، اكتسَت ملامح وجوه المكلومين الأربعة بتعبير متقَن يتماشى مع الحزن الذي يتصنَّعون الشعور به، على الرغم من أنهم، أثناء الغياب المؤقت لمتعهد دفن الموتى، تبادلوا الملاحظات التي ربما بدَت غير متناسبة قليلًا مع ذلك الحزن المتكلف. ومع ذلك، لم يكن هناك شيء ليفعلوه سوى انتظار تقلبات الرياح والمد. فانتظروا بهدوء خارجي واضطراب روح داخلي.

ومع مرور نحو ثلاثة أرباع الساعة، زاد التوتر العصبي لديهم تدريجيًّا. ثم جاءت الصدمة الدراماتيكية. حيث عاد متعهد دفن الموتى في حالة من الانفعال الواضح، برفقة بحار يعرفه بارات جيدًا وهو قبطان المركب.

قال متعهد دفن الموتى بنبرة مؤثرة: «أيها السادة، يُؤسفني بشدة أن أُبلغكم بحدوث أمر فظيع. يبدو أن التابوت قد ... فـ... فُقِد مؤقتًا.»

انتفضَ الرجال الأربعة واقفين في اللحظة نفسِها.

وصاحوا بصوت واحد: «فُقد!» ثم أضاف جيمي بيكر: «اللعنة؛ ما الذي تعنيه بكلمة «فُقِد»؟»

أشار متعهد دفن الموتى إلى القبطان بإشارة صامتة من يده، وحدَّق القبطان عابسًا في قبعة المطر التي يحملها.

ثم قال ببلادة: «في البحر.»

صرخ بارات: «ماذا؟»

قال القبطان بإصرار: «لقد فُقِد في البحر.»

سأله بالمر: «ولكن كيف حدث ذلك؟»

فأجاب القبطان بنبرة صوت فاترة: «إنه أمر عجيب! لقد حدث كالتالي: وضعنا ذلك التابوت هناك على جانب السطح، ليكون بعيدًا عن الطريق لأن رفيقي لم يُعجبه وجوده

على متن المركب. حيث قال إنه سيُسبب لنا المشاكل؛ وكان محقًّا، نعم محقًّا تمامًا. لم نكد نخرج من جنكين حتى بدأت المتاعب. حيث اقتربت منا ناقلةُ فحم مسرعة وهي تُطلق نفيرها وكادت أن تصدمنا؛ وبينما نُحاول تفاديَها اصطدمنا بمركب يانتلت بوي، وأظن أن هذا قد حرك التابوت. على الرغم من أننا لم نلحظ ذلك. ثم هبت عاصفة قوية من الغرب، مما تسبب في تحريك التابوت مرة أخرى. لكننا لم نُلاحظ أبدًا أي شيء، لأنه عندئذٍ، وجدنا أمامنا سفينة بخارية وناقلة فحم وقاربًا خشبيًّا روشيان في الوقت نفسه؛ وهي تناور مثل ثيران باشان. فظننت أنا ورفيقي أننا على وشك الموت. لكننا تمكَّنا من تفادي الاصطدام بالقارب الخشبي في آخر لحظة، وبعد ذلك لطمَت الأمواجُ سطح الباخرة مباشرة. وأظن أنها قد تسببت في وقوع التابوت في البحر، لكننا لم نكتشف الأمر، لعلك تتفهَّم هذا. حسنًا، وعندما هدأ التلاطم، قلت لرفيقي: «بيل، أسرِع للأمام واربِط التابوت بحبل.» فذهب ليفعل، لكنه نادى عليَّ وهو يقول: «جو لا يوجد أي تابوت هنا، لقد سقط في البحر.» هكذا حدث الأمر. فأدرت الدفة وعُدت لأبحث عنه لكن لم أجد أي علامة تدل عليه. وكدنا نغرق ثلاثَ مرات، وكنا على وشك الاصطدام بباخرة أخرى، ثم فقدنا قوة دفع المد. وكان من الضروري أن نعود إلى المرفأ. وهذا كل ما حدث.»

عندما أنهى القبطان روايته، حدَّق في مستمعيه بنظرة متحدية، وقد أدهشه الذعر البادي على وجوه المكلومين الأربعة. بالنسبة إلى عقليته البحرية، بدا أن مراسم الدفن قد تمت على نحو مُرضٍ للغاية، وأن النفقات غير الضرورية من أجل جنازة الشاطئ قد اقتصدَت. حتى إن متعهد دفن الموتى كان ينظر إلى مشاعر عملائه بعجب خفي، وظن أنهم كانوا مرتبطين إلى حد بعيد بالمتوفى.

قال بارات بحزن بعدما غادر القبطان: «حسنًا يا سيد ألن، ما الذي سيحدث، وما العمل؟»

كان السيد ألن متشككًا، لكنه ارتأى أن التابوت ربما يظهر في مكانٍ ما. وأضاف: «لكني لا أعتقد أنك تريد تحقيقًا.»

لم يكن عملاؤه يريدون تحقيقًا، وأكَّدوا ذلك تمامًا. ثم طرح السيد ألن فكرة جيدة؛ وهي طباعة بعض الإعلانات الورقية أو الإعلان في الصحف عن فقدان التابوت، وبدأ بصياغة إعلان: «مفقود، تابوت به محتويات.» عندما قاطعه بارات قائلًا:

«لقد كان التابوت يحمل عنوانك يا سيد ألن؛ من أجل تأمين وصوله، حيث كتبتَه على الخشب بقطران ستوكهولم، لذلك لن تمحوَه المياه المالحة.»

صُدم السيد ألن في داخله، لكنه أعلن استحسان الفكرة ظاهريًّا.

حيث قال: «إجراء احترازي حكيم جدًّا، ومستحسَن في ظل هذه الظروف.» وهنا استُدعِي بعيدًا، وخلال غيابه، تناقش المتآمرون الأربعة بقلق حول ما إذا كان ينبغي لهم التفرق ومراقبة التطورات من بعيد، وتفويض متعهد الدفن بإجراء الجنازة، أم المجازفة بانتظار أخبار تابوتهم المفقود. ولم يتوصلوا إلى أي نتيجة عندما عاد السيد ألن، وبعد أن قرروا مواصلة المناقشة في وقت لاحق، أجَّلوا الإجراءات رسميًّا واستعدوا للمغادرة.

وبمجرد أن وصلوا إلى الباب الخارجي للمبنى، دخل بحَّار ذو مظهر مشاكس وراح يُحدق حوله؛ وحينما نظروا إلى الخارج، شاهدوا أربعة بحارة آخرين يقتربون من المبنى وهم يحملون شيئًا كبيرًا ممدودًا وملفوفًا في القماش المشمع.

سأل البحار: «هل أنت السيد ألن؟» وهو يُحدق بعينه الزرقاء الشرسة في متعهد دفن الموتى؛ وعندما أجاب متعهد دفن الموتى بهويته، تابع البحار: «أنا قبطان مركب السحب بيكوك، واسمي سويفلز. لقد عثرت على تابوت مرسل لك. التقطته قبالة نهر يانتلت. هل ستتسلمه؟ إذا قلت نعم، عليك أن تدفع مبلغ الإنقاذ؛ وإذا لم يكن كذلك، فسأُسلمها إلى مكتب متلقي الحطام.»

بدأ السيد ألن بحذر في الاستفسار عن مقدار مبلغ الإنقاذ، عندما قاطعه بارات:

«لن نُساوم على جنيه أو نحو ذلك يا سيد ألن. سأُسوي الأمر مع القبطان، بينما تُرتب إجراءات الجنازة دون تأخير.»

انحنى السيد ألن وهو يُحييهم ثم ابتعد مسرعًا، ونفذ تعليماته بأمانة؛ بحيث إنه عندما خرج البحارة الخمسة من بار «ذا برايفيتير»، كان أربعة مكلومين تبدو عليهم البهجة على نحو واضح يتدافعون داخل عربة نقل الموتى.

لن تسمح لنا قواعدُ الاحترام بالمزيد من متابعة الإجراءات. لقد أزعجت آذان موراي الأقل قسوة، تلك الكلمات الوقورة والجميلة لفعالية الدفن، بينما بالنسبة إلى بارات، نشعر بالأسف للاعتراف بأن الإشارات إلى القيامة ارتبطت فقط بالتحرير المتوقَّع للغنيمة. وهكذا أُسدِل الستار على جنازة المرحوم ويليام برونتون، وبعد ذلك أُكِلَت فطائر اللحوم المخبوزة من أجل الجنازة دون دموع أو رثاء — على العكس تمامًا، في الواقع — في ميدان بيكاديللي المبهج.

الجزء الثالث

مرَّ على تلك الأحداث ما يقرب من ستة أشهر. وقد تلاشت ذكرى السرقة الغامضة والناجحة، التي نُهبت من خلالها التحف المنتقاة من مجموعة هارلاند الشهيرة من الخزف الصيني، من أذهان الجميع باستثناء محترفي جمع التحف؛ وقد أصبحت جنازة الراحل ويليام برونتون بالنسبة إلى السيد ألن وأصدقائه حكاية تُروى، وتُروى كثيرًا في الواقع.

وفي إحدى الليالي المظلمة، حين أشارت ساعة الكنيسة الأبرشية إلى الحادية عشرة والنصف تمامًا؛ ووصل قطار البضائع الثقيلة إلى المحطة، بينما راحت البواخر المتأخرة تُطلق أبواقها في النهر، اقترب أربعة رجال من مقبرة جرافيلهام عبر مدق مهجور، وتجمعوا تحت الظل الأسود للجدار.

قال صوت يُشبه صوت السيد جيمي بيكر: «إنها مهمتك يا بارات، سأرفعك حتى تُثبت السلم.»

ومِن ثَم أخرج بارات من جيب معطفه سلمًا صغيرًا مصنوعًا من حبل رفيع متين، مزودًا بخُطَّافَين من الحديد في الأعلى. وبعد أن رفعه جيمي على كتفَيه، قام بتثبيت الخطافات على الحافَة، وتجاوز الحائط، وهبط إلى الداخل. وسرعان ما تبعه الآخرون، ثم أعاد تثبيت السلم من الداخل وتركه معلقًا، بينما تسللوا عبر الطريق المؤدي إلى سراديب الموتى.

زمجر موراي، وهم ينزلون درجات السرداب ويقفون في تجويف يُشبه البئر أمام الأبواب السوداء المخيفة، قائلًا: «إنها مهمة مقززة.» كان بالتأكيد مكانًا غريبًا. حتى في الظلام، كان بإمكانهم رؤيةُ الألواح المتهالكة على الأعمدة التي نمت عليها الطحالب، وهي تفوح برائحة التحلل والتعفن. وانبعثت رائحة متعفنة غريبة حول تلك البوابة القاتمة، وبينما كانوا ينتظرون بارات وهو يضع قطرات من الزيت على المفتاح الكبير المنسوخ، حركت الرياح الأبواب السوداء الكبيرة حتى بدا كأن أحدًا في الداخل كان يتلمسها خِلسة بحثًا عن وسيلة للهروب.

وأخيرًا، وضع بارات المفتاح، وفتح المزلاج بقرقعة جوفاء، وتأرجح الباب الكئيب إلى الداخل مُحدثًا صريرًا تردد صداه مطولًا داخل القبر.

فصاح موراي وهو يتنفس الهواء العفن باشمئزاز: «يا لها من رائحة مقززة، أشعل الضوء يا بارات، من أجل خاطر الله!»

قال بارات: «انتظر حتى أغلق الباب وأسد فتحة المفتاح.» وسمع موراي بانفعال مزعج صوت دفع الباب الثقيل وغلق المفتاح من الداخل. ثم أخرج بارات فانوسًا صغيرًا، وبعد أن أشعل الشمعة، ألقى بضوئه على رف ضخم وعلى الأطراف المربعة لصف النعوش.

قال بالمر: «إنه التابوت الرابع من النهاية، على ما أعتقد، لكن من الأفضل أن أصعد وأُدقق النظر.»

وأثناء صعوده، سأل موراي:

«كم ستأخذ يا بارات؟»

أجابه: «ثلاثًا فقط؛ اثنتَين من باودر بلو وواحدةً من ريد هوثورن. لا فائدة من أخذ أكثر مما تفاوضنا عليه. هل عثرت عليه يا بالمر؟»

أجاب بالمر: «نعم، كل شيء على ما يُرام. كن مستعدًّا لتلقِّيه عندما أدفعه إليك.» وانحنى لالتقاط مقبض الطرف، وجذب التابوت إلى خارج حافة الرف. فأمسكه رفاقه، وبصعوبة وضعوه على الأرض. ثم أخرج بارات من جيبه مفكَّ مسامير حديثًا، وبدأ بمهارة في فك المسامير.

ثم قال وهو يفك الأخير، بينما أخرج كلٌّ من رفاقه عتلة من جيبه: «والآن؛ استعدوا لنرفع الغطاء معًا.»

فوضع كلٌّ منهم عتلته في الموضع المناسب؛ وعد بارات: «واحد، اثنان، ثلاثة.» وبينما كان ينطق بكلمة «ثلاثة»، صدر صوت قرقعة، ومال الغطاء ثم انزلق، وتراجع الرجال الأربعة إلى الوراء مصدِرين شهقات مندهشة. فانتزع بارات الفانوس وألقى بضوئه داخل التابوت، وانطلقت من الرجال الأربعة في الوقت نفسه صيحاتٌ مكتومة من الذهول.

ساد الصمت لفترة قصيرة، وقف خلالها المتآمرون بلا حراك مثل التماثيل، وهم يُحدقون برعب هائل في التابوت. ثم قال بارات:

«أيها الأحمق، بالمر؛ لقد أنزلت التابوت الخطأ!»

التف بالمر حول التابوت ورفع الغطاء أمام ضوء الفانوس، الذي أنار بوضوح لوحة اسم ويليام برونتون الوهمي، والعنوان المكتوب بالقطران الذي أدهش متعهد دفن الموتى.

قال بالمر: «إنه التابوت الخاص بنا، ليس هناك شك في ذلك.»

صاح بيكر بغضب: «ليس هناك شك! إذن أخبرني كيف دخلَت تلك المرأة العجوز فيه، وماذا حدث للغنيمة؟»

قال بارات، وهو يُحدق في التابوت عابسًا، ويضع منديله على أنفه: «هذا ما يجب أن نعرفه، لقد تدخل شخص ما في شئوننا وسطا على غنيمتنا. شخص ما حصل على غنيمتنا وترك لنا جثة مقززة.»

قال موراي: «أنت محق يا بارات.» «مقززة حقًّا. انظر هنا.» وتقدم بحذر إلى التابوت وأشار إلى ثقب ممزق في حلق الجثة المثيرة للاشمئزاز بداخله.

وافقه بارات الرأي قائلًا: «نعم إنه أمر واضح لا لبس فيه؛ لقد قُتِلت تلك المرأة العجوز. لا بد أن تابوتنا كان مفيدًا جدًّا لشخص واقع في ورطة كبيرة، فتخلص منها ووضعنا نحن أنفسنا في ورطة أكبر. لذا كلما أسرعنا في وضع غطاء التابوت مرة أخرى والهروب من هنا، كان ذلك أفضل كي ننجوَ بحياتنا.»

كانت وجاهة هذه الملاحظات واضحة. ومِن ثَم أعادت الأيدي الراغبة والمرتعشة الغطاءَ إلى مكانه. وثبتت المسامير بسرعة في فتحاتها، وأُعيد التابوت إلى الرف. ومرة أخرى تحرك المزلاج، وفُتِح الباب الكئيب بنفس الصوت المزعج ثم أُغلِق إلى الأبد على مأساة الراحل ويليام برونتون. وبعد دقيقتَين، سار أربعة رجال مكتئبين عبر المدق المظلم على طريق ملتوٍ نحو المحطة، ولم يتحدث أيٌّ منهم لفترة. لكن السيد جيمي بيكر هو من كسر الصمت حين صاح بنبرة ساخطة:

«حسنًا، أنتم مجموعة من التعساء! فقط انظروا إلى ما فعلتم. لقد أضَعتم حوالي ثلاثمائة جنيه من المال الحلال، وما الذي حصلتم عليه مقابل ذلك؟ لقد قدمتم مجانًا جنازة لامرأة عجوز غير مرغوب فيها، كما منَحتم أحد رفاقها هدية بقيمة خمسين ألف جنيه. وإلى أين سأصل أنا في نهاية المطاف!»

قال بارات مزمجرًا: «أنت لن تصل إلى أي مكان على الإطلاق؛ بل ستُغادر، مع بقيتنا، ويجب أن تكون شاكرًا للغاية أننا نجونا وانتهى الأمر على هذا النحو!»

الجزء الرابع

بعد نحو شهر من تلك الواقعة، نشرت صحيفة «مورلاند تليجراف» بالخط العريض الخبر التالي:

اكتشاف غريب لكنوز هارلاند

> أخيرًا كُشِف غموض اللغز الذي يكتنف عملية السرقة الصادمة لبعض قطع مجموعة السيد هارلاند من الخزف الصيني التي لا تُقدَّر بثمن؛ ليُسفِر الكشف عن لغز أكبر. إذ حدث في صباح أمس أن ذهب رئيس كنيسة ستوك، في هندرد أوف هو، إلى شاطئ بلايث ساند للاستحمام، ونظر حوله لمعاينة آثار العاصفة الأخيرة، ولاحظ بدهشة رقاب عدد من الجرار الزرقاء تبرز خارج الرمال. وعندما التقط واحدة منها، اكتشف على الفور أنها جرة خزفية رائعة الجمال، وشرع

بحذر شديد في استخراج بقية الجرار. ونظرًا لأن لديه بعضَ المعرفة بالخزف، تعرف على القطع على الفور على أنها مِزهريَّات وجِرار من الخزَف الصيني من النوع المعروف باسم باودر بلو وهوثورن؛ ولأنه كان قد قرأ ما نشرته الصحف عن عملية السرقة الأخيرة، نقلها بعناية إلى منزله ثم اتصل بالشرطة. وقد تعرف السيد هارلاند على تلك المفقودات وأوضح أنها تخصه، وينبغي تهنئته على حقيقة أن هذا الاكتشاف قد حدث بواسطة شخص مثقف وواعٍ.

لقد قرأ الخبر أعلاه قراء مختلفون بمشاعر مختلفة. فبالنسبة إلى المتآمرين الأربعة، وللجمهور بشكل عام، أصبح الغموض أكثر عمقًا. بينما وجد فيه رجل واحد؛ الختام الأخير لفصل مؤلم من حياته. حيث وضع ذلك الرجل الصحيفة جانبًا — وهو بحَّار بسيط ذو شعر أبيض — ثم أغلق عينَيه، وتذكر الأحداث المأساوية في ليلة عاصفة قبل حوالي سبعة أشهر. فرأى نفسه على مركبه الصغير، وهو يشق مياه المصب المظلم ومعه زوجته المضطربة المخمورة. رآها، وقد انتابتها نوبة غضب جامح، فهُرِعت إلى المقصورة لتُحضر مسدس الخدمة القديم الذي احتفظ به هناك بحماقة. ورآها تُحاول الخروج بصعوبة من الكوة الصغيرة، وهي تُثرثر وتُهدد. كما رأى الوميض وسمع صوت الطلقة الهادر وفي اللحظة نفسها سقطت ممددة على سطح المركب، وتذكَّر رعبه الذي أصابه بالتيبس وهو يقف مشدوهًا أمام جثتها. وبعدئذٍ، حدث ذلك التدخل الرائع للعناية الإلهية! بارتطام غامض ونقرٍ على جانب المركب من التابوت العائم، الذي جاء بغرابة في وقته المناسب تمامًا؛ ثم تلك الدهشة الكبيرة، بعد أن رفعه بعناء مؤلم إلى سطح المركب وفك الغطاء، حيث لم تكشف سكينه، التي مزقت العلبة الرصاصية، عن أي جثة، بل مجرد مجموعة من الجرار الفخارية! كما تذكر عملية التبديل المروع، والطرطشة الهائلة للماء بينما يرتطم التابوت به مرة أخرى وتتقاذفه الأمواج؛ ثم الرسو السري على شاطئ بلايث ساند؛ ودفن الجرار الخزفية بعناية عند علامة المياه العالية. والخبر المزيف، رغم أنه صحيح من الناحية الجدلية، الذي عممه في اليوم التالي بأن امرأته العجوز قد انزلقت وغرقت في البحر وسط الظلام. لقد تذكر كل تلك الأحداث بوضوح؛ مع تنهيدة يشوبها قليلٌ من الأسى، ثم فتح عينَيه، وطوى الصحيفة، وأغلق هذا الفصل إلى الأبد.

وكيل بيرسيفال بلاند

الجزء الأول

كان السيد بيرسيفال بلاند مجرمًا من نوع غير معتاد إلى حدٍّ ما؛ إذ كان لديه في المقام الأول قدرٌ لا بأس به حقًّا من الفطرة السليمة. ولو أن لديه المزيد منها، لما أصبح مجرمًا على الإطلاق. ومِن ثَم، أصبح لديه ما يكفي من الوعي لإدراك أن عواقب الأفعال غير القانونية تتراكم مع تَكرارها؛ وفهم أن موقف المجرم يجب أن يُصبح، على المدى البعيد، غير مقبول؛ كما فهم أن عليه اتخاذَ ما يعتبره احتياطاتٍ مناسبةً لمنع حدوث الكارثة المحتومة.

ولكن على الرغم من هذه السمات المميزة للشخصية والاحتياطات المذكورة سابقًا، وجد السيد بلاند نفسه في موقف صعب إلى حد ما وقد يزداد صعوبة بمرور الوقت. ونحن لا تُهمنا أسباب هذا التوتر غيرِ المريح الذي أصابه، ويُمكن التوقف عن التفكير فيها لو ذكرنا أنه إذا وزَّع المرء أوراق بنك إنجلترا المزيفة بشكل مثابر على مكاتب الصرافة عبر القارة الأوروبية، فسيأتي يوم تصفية الحساب عندما تُقدم هذه الأوراق النقدية للسيدة العجوز الخبيرة التي تعيش في شارع ثريدنيدل.

أخذ السيد بلاند يُفكر بتوتر في العاصفة التي تُوشك أن تهب عليه، بينما كان يُلقي نظرة خاطفة على «المعروضات المتنوِّعة» في صالة مزادات السادة بليمبتون. حيث إنه مشارك دائم في المزادات، وهذا أمر طبيعي؛ لأن المجرم هو مقامرٌ في الأساس. كما يتَّسم المجرم والمقامر بصفةٍ واحدة مشتركة؛ إذ يأمُل كلٌّ منهما في الحصول على شيء ذي قيمة دون دفع سعر السوق العادل مقابلَ ذلك.

وهكذا استعرض بيرسيفال التحفَ المتربة، وفي الوقت نفسه، استمر يُفكر في الصعوبات التي يُواجهها. وقد كانت الأسئلة الحيوية التي تُطارد فكرَه هي: متى تنفجر

العاصفة؟ وهل ستعصف بميناء اللجوء الذي كان يبذل جهدًا كبيرًا في بنائه؟ والآن؛ دعونا نستكشف أمر ميناء اللجوء هذا.

كان عبارة عن شقة هادئة في حي باترسي المبهِج تحمل لوحةً كُتب عليها اسم السيد روبرت ليندساي؛ وكان المستأجر معروفًا لدى البوَّاب والخادمة التي تُنظف الشقة، كرجل نبيل أشقرَ يعمل في مجال حجز تذاكر السياحة كوَكيل سفر، ومِن ثَم فهو يغيب عن المنزل كثيرًا. وتتشابه ملامح السيد روبرت ليندساي مع السيد بيرسيفال بلاند تشابُهًا واضحًا؛ وهو أمر غيرُ مفاجئ نظرًا لكونهما أبناءَ عمومة (أو، على أي حال، لقد قالا إنهما كذلك؛ وقد نفترض أنهما على حق). لكنهما لم يكونا متشابِهَين إلى حد كبير. حيث إن شعر السيد ليندساي أشقر؛ بينما شعر السيد بلاند أسود. لدى السيد بلاند شامة تحت عينه اليسرى. وليس لدى السيد ليندساي شامة تحت عينه، لكنه يحمل واحدةً في صندوق صغير في جيب الصديري.

في مرات نادرة إلى حدٍّ ما، زار ابنا العمومة أحدُهما الآخر؛ لكن حظهما كان سيئًا للغاية، إذ لم يُصادف أنْ وجَد أيٌّ منهما الآخر في منزله. والشيء الأكثر غرابة هو أنه كلما أمضى السيد بلاند أمسية في مسكنه فوق متجر الزيوت في بلومزبيري، تُصبح شقة السيد ليندساي خالية؛ وعندما يكون السيد ليندساي في شقته، فمن المؤكد أن مسكن السيد بلاند يُصبح خاليًا في الوقت نفسه. كانت مصادفةً غريبة، إذا لُوحِظت. لكن أبدًا؛ لم يُلاحظها أحد.

ومع ذلك، إذا كان بيرسيفال لا يتقابل مع ابن عمه، فهو لم يكن يتعامل معه وفقًا للمثل القائل: «البعيد عن العين، بعيد عن القلب.» بل على العكس تمامًا؛ لقد كان اهتمامه برفاهية ابن عمه كبيرًا لدرجة أنه وضع وصية تُعيِّنه منفذًا للوصية وكذلك الوريثَ الوحيد، كما أمَّن على حياته (حياة بيرسيفال) بمبلغ لا يقل عن ثلاثة آلاف جنيه؛ وقد وضع تلك الوصية، بالإضافة إلى بوليصة التأمين والأوراق المالية الاستثمارية وغيرها من الوثائق الضرورية، في عُهدة محامٍ محترم للغاية. ومنحه كل ذلك فضلًا كبيرًا وكان مدعاة لفخره؛ إذ ليس كل امرئ على استعداد لتحمل هذا الكم من المتاعب من أجل مجرد ابن عم.

واصل السيد بلاند تجواله، وهو يتحسَّس معروضاتِ المزاد المتنوعةَ بحكم العادة، وهو يُفكر في الأزمة القادمة التي ستُواجه أعماله الخاصة، وفي التدابير التي وضعها لابن عمه روبرت. أما بالنسبة إلى تلك التدابير، فقد كانت ممتازة إلى حدٍّ بعيد، لكنها تفتقر إلى الدقة والكمال التام. لقد كان هناك احتماليةُ «امتداد»، على سبيل المثال؛ لنقل أربع عشرة سنةً

من الأشغال الشاقة. وبوليصة التأمين لم تُغطِّ هذا. وفي غضون ذلك، ما الذي سيحدث لروبرت المحترم؟

في ذلك الوقت جُرح إبهامه جرحًا شديدًا إلى حد ما في مخرطة قطع لولبية، وأدار، وهو شاردُ الذهن، مقبضَ بيانولا صغيرةٍ إلى أن طلب منه أحد الموظفين بأدب أن يكفَّ عن ذلك، وبعد هذا وجد مجموعة من الصناديق تحتوي، وفقًا للكتالوج، على «مجموعة من الأدوات الجراحية مملوكة لطبيب ممارس متوفًّى حديثًا.» ووفقًا لمظهر الأدوات، يجب أن يكون الممارس قد بدأ الممارسة في شبابه المبكر وتُوفِّي في سنٍّ كبيرة جدًّا.

لقد كانت مجموعة أدوات مقززة، لا قيمة لها مطلقًا باستثناء أنها شاهدة على المثابرة المذهلة في حياة أسلافنا؛ لكن بيرسيفال راح يتحسسها وفقًا لعاداته، وضغط على مقبض حقنة نُحاسية معقَّدة، فألقى قطرة من سائل أخضر على قميص رجل عبري متأنِّق (حيث طلب منه «توجيه تلك الحقنة اللعينة بعيدًا عنه وأن يحترس أكثر من ذلك في المرة القادمة»، وقد دلَّت طريقته في الكلام على أنه ألثغُ؛ إذ استبدل حرف الثاء بحرف السين)، ثم فتح الحقائب الجلدية المتعفنة، ونقر على المباضع النابضة، وتحسس حواف السكاكين الغريبة والمعوجَّة. ثم وجد صندوقًا ضخمًا أسود اللون، وعندما رفع غطاءه، استنشق رائحة عتيقة تُشبه رائحة السمك واستعرض مجموعة من العظام كانت مصفرَّة، ومدهنة ومبقعة في الأماكن التي بها عفن. وصفها الكتالوج بأنها «مجموعة كاملة من العظام البشرية لدراسة علم تراكيب العظام»، لكنها لم تكن «مجموعة خاصة بالطلاب» عادية؛ لأن عظام اليدَين والقدمَين، بدلًا من أن يتم ربطها معًا بخيوط من أحشاء القطط، كانت محتفظة بأربطتها البشرية وكانت ذات لون بنيٍّ كريه.

قال العبري محتجًا وبلثغة واضحة: «اسمع أيها السيد؛ عليك أن تُغلق هذا الصندوق، إن رائحته كريهة للغاية.»

لكن بدا أن محتويات الصندوق الأسود قد أعجبت بيرسيفال للغاية. حيث نظر إلى تلك البقايا الدهنية الميتة، إلى اليدَين والقدمَين البنيتَين المتعفنتَين والجمجمة التي كانت تُطل بشكل مخيف من ثنايا القماش الذي يُغلفها؛ فوجدها تنفث شيئًا أكثر من تلك الرائحة الكريهة والعفن. فقد أوحت إليه بفكرة — غامضة وعامة في البداية، ولكنها تتبلور بسرعة إلى شكل متميز — بدت كأنها تتسلَّل من الصندوق الأسود إلى عقله؛ فكرة بدت بطريقة ما أنها تربط نفسها مع ابن عمه المحترم روبرت.

وقف بلا حَراك لما يزيد عن دقيقة واحدة، كمن غرق في أحلام اليقظة، بينما يُمسك الغطاء في يده وعينُه الحالمة مثبتة على نصف الجمجمة. ثم أيقظته ضجة في القاعة. حيث

كان المزاد على وشك البدء. فجلس المزايدون وغيرهم من رواد المزاد على مقاعد حول طاولة خضراء طويلة؛ حيث استعرض الحاضرون أول المعروضات وفتحوا نسخهم من الكتالوج الذي يُوضح تفاصيلها كما لو كانوا على وشك غناء لحن تمهيدي؛ وصعد رجل ذو شارب ممدودٍ ومثبت بمادة شمعية ويُشبه بشكل مذهل جلالة الملك الراحل، نابليون الثالث، إلى المنصة وطلب من الجميع الانتباه عبر طرقة تمهيدية بمطرقته.

كم هي غريبة بعض آثار الضمير المذنب! وبأي وعي ذاتي عبثي نقرأ في أذهان الآخرين نوايانا غير المعلنة، عندما تكون تلك النوايا غير مشروعة! لو أراد بيرسيفال بلاند مجموعة من العظام البشرية لأي غرض مشروع — مثل الدراسة التشريحية — لكان قد اشتراها علانية ودون حرج. لكن الآن، وجد نفسه يُفكر بجدية حول ما إذا كان لا ينبغي له تقديم مزايدة لشراء بعض الأدوات الجراحية، فقط من أجل المظاهر؛ ولم يكن هناك سوى القليل من الوقت لاتخاذ قراره — لأن أدوات الممارس المتوفَّى جاءت أولًا في الكتالوج — وقد كانت بالفعل أدوات متميزة وتضمُّ مجموعة من أكواب الحجامة ومفتاح خلع الأسنان وأداة غير معروفة الاستخدام شيطانية المظهر، لذا يجب عليه حسمُ أمره قبل النداء على تلك الأدوات المشئومة.

وبعد فترة وُضِع الصندوق الأسود على المنضدة، ليُصبح مادة للسخرية الفاحشة بين المزايدين، وقرأ بائع المزاد بيانات المعروضات قائلًا: «مجموعة المزايدة رقم ١٧؛ مجموعة كاملة من العظام البشرية الخاصة بعلم دراسة العظام. مجموعة عينات مفيدة وقيمة للغاية، أيها السادة.»

نظر حوله إلى المجلس بفخامة، متجاهلًا الاستفسارات المتنوعة حول هُوية المتوفَّى وقرار هيئة الطب الشرعي، واقترح أخيرًا خمسة شلنات.

قال بيرسيفال: «ستة».

فتح أحد الموظفين الصندوق، وهو يهتف بالكلمة الغامضة «لودلمن!» (التي تعني «هذه هي المجموعة المطروحة للمزايدة، أيها السادة») ثم وضعها تحت الأنف المنتفخ للعبري المتأنق؛ الذي قال إنها «قد اقتربت منه للغاية وستُلوثه» ودفعها بعيدًا.

قال بائع المزاد بخيبة أمل: «بِيعَت مقابل ستة شلنات.» وبما أنه لم يُزايد أحد على هذا السعر، فقد ضرب المنصة بمطرقته وسلم الصندوق لبيرسيفال نظير هذا المبلغ المتواضع.

بعد حشر كئوس الحجامة، ومفتاح خلع الأسنان والأداة المجهولة في الصندوق، حصل بيرسيفال من أحد الموظفين على حبل طويل، ربط به الغطاء جيدًا. ثم حمل كنزه إلى

الشارع، واستأجر عربة بأربع عجلات، وأمر السائق بالتوجه إلى محطة تشارينج كروس. وفي المحطة حجز الصندوق في غرفة إيداع المتعلقات (باسم سيمبسون) وتركه لبضع ساعات؛ وعند انتهاء مدة الحجز عاد مع حمَّال مختلف، ونقل الصندوق في عربة تجرها الخيول إلى مسكنه فوق متجر الزيوت في بلومزبيري. وهناك، حمله بنفسه، دون أن يُلاحظه أحد، وصعد على السلم، ووضعه في دولاب كبير، وأغلق الباب ووضع المفتاح في جيبه.

وهكذا أُسدل الستار على الفصل الأول. ثم افتتح الفصل الثاني بعد يومَين فقط (إذا أردنا أن نستمر في نفس التشبيه حتى نصل إلى النهاية المريرة) حيث تولى مهمة عامل خشبة المسرح ضابط شرطة بلجيكي خرج لتوِّه من المدخل الرئيسي لبنك إنجلترا. ويُمكننا القول إن السبب الذي دفع بيرسيفال بلاند إلى الاقتراب من نطاق مبنى بنك إنجلترا، الذي هو نطاق غير آمن بالنسبة إلى مجرم مثله؛ هو سبب يصعب تخيله، إلا إذا كان السبب هو هذا الافتتان الغريب الذي يبدو بحكم العادة أنه يجذب المجرم إلى الأماكن المرتبطة بجريمته. على أي حال؛ كان بيرسيفال هناك على بُعد عشر خطوات من المدخل عندما خرج الضابط منه، وقد عرَف كلٌّ منهما الآخر على الفور. وعلى الفور أيضًا اتخذ بيرسيفال قرارًا بعبور الطريق.

وهو ليس طريقًا هادئًا يُمكن عبوره بسهولة. فالخيول التي تجر العربات القديمة قد تتعطف وتصهل محذرةً عابر الطريق المتهور. لكن الأمر يختلف بالنسبة إلى السائق في هذه الأيام، الذي ينظر أمامه بثبات دون أن يُحذرك ويتركك تبتعد عن طريق الطاغوت أو لا تبتعد فهذا أمر لا يُهمه. إنه يعرف تمامًا هيئة المحلَّفين التي ستُعطيه «البراءة». ولكن في هذه اللحظة، كان موكب الطواغيت متوقِّفًا. لكن بيرسيفال رأى الضابط يستدير ليبتعد فاندفع عبر مقدمات المركبات حتى وهي تبدأ في التحرك. وتبعه الضابط الأجنبي، ولكن في تلك اللحظة انطلق الموكب بأكمله. حيث رعدت الحافلة العامة أمامه؛ بينما حاصرَته أخرى بلا هوادة. فتردَّد وتراجع. وعندئذٍ اندفعت سيارة أجرة من الخلف ونطحته بشدة، فجعلته يتمدد على الطريق، ثم سارع بالعودة إلى الرصيف بأقصى سرعة ممكنة.

بينما قفز بيرسيفال بخفة، في هذه الأثناء، على مسند قدم أول حافلة عامة وهي تستجمع سرعتها. وبعد ثوانٍ أصبح آمنًا في مانشن هاوس، وبعد بضع ثوانٍ أخرى، وصل شارع الملكة فيكتوريا. كان الخطر قد انتهى عمليًّا، ومع ذلك اتخذ الاحتياطات اللازمة للنزول في سانت بول، وعبور شارع نيوجيت، ثم استقلال حافلة أخرى متجهة إلى الغرب.

في تلك الليلة جلس في مسكنه يتدارس هذه الواقعة. لقد كان قاب قوسَين أو أدنى من حافة الخطر، ويجب ألا يحدث مثل هذا الشيء مرة أخرى. في الواقع، نظرًا لأن القانون

كان بلا شك على وشك أن يأخذ مجراه، فقد حان الوقت لبعض خططه الصغيرة أن تأخذ مجراها أيضًا. فقط، كانت هناك صعوبة. صعوبة خطيرة. وبينما كان بيرسيفال يُفكر في هذه الصعوبة، عبس وجهه وأخذ يُدندن بصوت خفيض.

«إذن لقد حان وقت الاختفاء،

خذ غطسًا، واذهب للعمق.»

قطع أغنيته نقر على الباب. كانت مالكة منزله، السيدة براتل. وهي امرأة مهذبة في العادة، وكانت مهذبة بشكل خاص في هذه اللحظة؛ إذ جاءت لتطلب منه طلبًا صغيرًا.

قالت السيدة براتل: «بخصوص ليلة عيد الميلاد يا سيد بلاند؛ لقد فكَّرت أنا وزوجي في قضاء الأمسية مع شقيقه في هورنسي، كما سنسمح للخادمة بالعودة إلى منزل والدتها طوال الليل، إذا لم يُسبب لك ذلك إرباكًا.»

قال بيرسيفال: «لن يُسبب لي إرباكًا على الإطلاق يا سيدة براتل.»

تابعت السيدة براتل: «لا داعي لانتظار عودتنا، كما تعرف، إذا تركت الباب الجانبي بدون قفل المزلاج. فنحن لن نعود إلى المنزل قبل الساعة الثانية أو الثالثة؛ لكننا سندخل بهدوء حتى لا نُزعجك.»

أجاب بيرسيفال بضحكة لطيفة: «لن تُزعجوني، فأنا لا أثمل بشكل عام، ولكن «عيد الميلاد يأتي مرة واحدة في السنة.» وعندما أستلقي على السرير لأنام في ليلة عيد الميلاد، فسوف تحتاجون لبذل مزيدٍ من الجهد لإيقاظي مرة أخرى.»

ابتسمت السيدة براتل ببهجة وقالت: «ولكن ألن تشعر بالوحدة، وأنت بمفردك في المنزل؟»

صاح بيرسيفال: «الوحدة! مع مدفأة متقدة، وكتاب مرح، وعلبة سيجار فاخر، وزجاجة شراب جيد. آه، وزجاجة ثانية إذا لزم الأمر. لن أشعر بالوحدة بالتأكيد.»

هزت السيدة براتل رأسها، وقالت: «آه، يا لك من رجل عازب سعيد! حسنًا، حسنًا. إنه لأمر جيد أن تكون مستقلًّا.» ابتسمت وهي تقول هذا التعليق العميق وخرجت من الغرفة ونزلت على السلم.

عندما تلاشت خطواتها بعيدًا، قفز بيرسيفال من كرسيِّه وبدأ يذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا بحماس. حيث لمعت عيناه وعلَت الابتسامةُ وجهه. ثم توقف أمام المدفأة وضحك بصوت عالٍ وهو يُحدق في الجمر.

ومِن ثَم قال: «مرح للغاية! غني للغاية! أنيق! أنيق جدًّا! ها! ها!» وهنا استأنف أغنيته المقطوعة: «عندما تكون السماء صافية، عندما تكون السماء صافية، اصعد بهدوء، اصعد

بهدوء، اصعد بهدوء من الأسفل!» التي يُمكن اعتبارها ختامَ المشهد الأول من الفصل الثاني.

خلال الأيام القليلة التي سبقت عيد الميلاد، لم يخرج بيرسيفال إلا مرات قليلة؛ ومع ذلك كان مشغولًا جدًّا. حيث ذهب للتسوق خفية، وغامر بالخروج حتى تشارينج كروس رود؛ وكانت مشترياته متنوعة بشكل متعمَّد. فهي تبدو تشكيلة غريبة إلى حدٍّ ما، بين إناء لصنع العصيدة، ونسخة مستعملة من كتاب «تشريح جرايز»، وفراء أرنب، وكمية كبيرة من الصمغ، وما يزيد عن عشرة أرطال من اللحم البقري من موزة الساق؛ وكان من حسن حظه أن الطقس بارد جدًّا، وإلا فإن غرفة نومه، التي وضعت فيها هذه الأطعمة القابلة للتلف بدون ظروف تخزين مناسبة، كانت ستنبعث منها روائحُ تفضح ما بداخلها.

ولكن في الأمسيات الطويلة كان عمله لافتًا للانتباه للغاية. وبعد ذلك، بدأ الدولاب الكبير ذو القفل الممتاز، الذي ثبَّته بنفسه، يمتلئ بنتاج عمله. ففي تلك الأمسيات، كان يضع كمية كبيرة من صمغ سكوتش الجيد في إناء العصيدة ويتركه على نار هادئة، ويسحب الصندوق الأسود للطبيب المتوفَّى من مكان اختبائه، ويضع كتاب «تشريح جرايز» ذا الصفحات المتهالكة أمامه على الطاولة.

لقد كان عملًا شاقًّا بالرغم من ذلك؛ ومهمة أصعب مما توقع. كانت العظام اليمنى واليسرى متشابهة بشكل مربك، وكان من الصعب جدًّا أن تتلاءم العظام الملتصقة معًا. ومع ذلك، وحيث إن لوحات كتاب «جراي» كبيرة وواضحة جدًّا، فإن الأمر يتطلب فقط بذل الجهد الكافي.

كانت طريقة عمله بسيطة وعملية. بعد أن يُخرج عظمة من الصندوق، كان يُقارنها بالرسوم التوضيحية في الكتاب حتى يتعرف عليها بما لا يدع مجالًا للشك، ثم يربط عليها ملصقًا ورقيًّا باسمها والجانب الذي تنتمي إليه، هل هو اليمين أم اليسار. ثم يبحث عن العظمة المجاورة، ويُركب الاثنَين معًا، ويُثبتهما بطبقة مناسبة من الصمغ ويضعهما في حاجز المدفأة حتى تجفَّا. كانت طريقة بدائية وفظيعة للتجميع من شأنها أن تجعل حتى أمينَ المتحف المخضرم يرتجف. ولكن يبدو أنها تُحقق هدف بيرسيفال — أيًّا كان ذلك الهدف — لأن «العظام» المفككة أصبحت مجمعة تدريجيًّا كأعضاء يُمكن التعرف عليها مثل الذراعَين والساقَين، والفقرات — التي كانت، لحسن الحظ، معلقة بترتيبها الصحيح على سلك سميك — وتجمعت لتُكوِّن عمودًا فقريًّا متماسكًا، وحتى الضلوع، التي كانت أصعب مهمة على الإطلاق، استطاع تجميعها لتُكوِّن القفص الصدري. كان التجميع رديئًا.

حيث لصقت العظام بنقاط من الصمغ ومع ذلك كان من الممكن أن تتفكك بلمسة واحدة. ولكن، كما قلنا، بدا بيرسيفال راضيًا، ولأنه كان الشخص الوحيد المعنيَّ بالأمر، لم يكن هناك ما يُقال.

وجاء يوم عيد الميلاد. وتناول بيرسيفال الغداء مع آل براتل في الساعة الثانية، ثم غمره النُّعاس بعده، ثم استيقظ لتناول الشاي، وبعد ذلك، حملت السيدة براتل، وهي ترتدي ثيابًا أرجوانية فاخرة، صينية الشاي لتُعيدها إلى المطبخ، ومِن ثَم بسَط على الطاولة المواد اللازمة ليستكمل عمله في الليل. وبعد ربع ساعة، فتح النافذة ورأى صاحب المتجر وزوجته يُهرَعان بعيدًا في الشارع المضاء بلمبات الغاز باتجاه أقرب محطة للحافلة العامة.

وعندئذٍ بدأ السيد بيرسيفال بلاند أمسيته الترفيهية. وقد كان ترفيهًا مميزًا للغاية، حتى بالنسبة إلى عازب وحيد، تُرك وحده في منزل خلال ليلة عيد الميلاد. في البداية، خلع ملابسه وارتدى بدلة جديدة. ثم أخرج من الدولاب «مجموعة العظام» المعاد تشكيلها، ووضع الأعضاء المختلفة على الطاولة، وعاد إلى غرفة النوم، ثم ظهر مرة أخرى مع طرد كبير تفوح رائحته كان قد استخرجه من صندوق. وبداخله مشترياته المتراكمة من قطع لحم البقر.

وباستخدام سكين كبيرة، شحذَها بعناية قبل العمل، قطَّع اللحم البقري إلى شرائح رفيعة وكبيرة، ثم شرع في لفها حول العظام المختلفة التي شكلت «الهيكل العظمي الكامل»؛ فأصبحت العظام مغطاة باللحم ولكنها لم تزدد جاذبية بأي حال من الأحوال. وبعد أن انتهى من «كسوة العظام الجافة»، جمع البقايا، لتُوضَع مؤقتًا داخل الصندوق. لقد كان تصرفًا غريبًا، لكنَّ التصرف التاليَ كان أكثرَ غرابة.

أخذ بيرسيفال الأعضاء التي كساها باللحم واحدًا تلو الآخر، وبدأ بعناية فائقة في وضعها داخل الملابس التي كان يرتديها قبل البدلة الجديدة. لقد كان عملًا بالغ التعقيد؛ لأن المفاصل الملصقة كانت هشة مثل الزجاج. وبحذر شديد، أدخل الأرجل بشكل منفصل، أولًا في الملابس الداخلية ثم في البنطلون، ثم ركَّب أقدام الهيكل العظمي وأدخلها في الجوارب القديمة ووضعها بحرصٍ بالغ داخل الحذاء. وبالحرصِ نفسه وضع الذراعَين في الأكمام المختلفة من خلال فتحات الذراع في الصديري؛ ثم جاءت أصعب مهمة على الإطلاق، وهي ملاءمة الملابس على الجذع. لأن الجمجمة والأضلاع المثبتة على العمود الفقري بواسطة نقاط من الصمغ، كانت ستسقط عند أي اهتزاز؛ ومع ذلك، كان لا بد من شد الملابس فوق الجذع بعد أن وضعت الأذرع داخل الأكمام. لكن بيرسيفال نجح في ذلك أخيرًا من خلال

إراحة «الهيكل العظمي المعاد تجميعه» على كرسيٍّ كبير مبطَّن ذي ذراعَين ثم إدخاله في الملابس ببطء شديد.

يتبقى الآن فقط وضعُ اللمسة الأخيرة؛ التي تمت عن طريق قطع جلد الأرنب بالشكل المطلوب ولصقه على الجمجمة بطبقة رقيقة من الصمغ القوي؛ وعندما انتهى من تجهيز الجمجمة بهذا الشعر المستعار المؤقت البدائي، كان مظهرها مروعًا لدرجة أنها تسببت في إزعاج أعصاب بيرسيفال الذي كان شخصية عملية جدًّا. على أي حال، لم تكن هذه مناسبة لمراعاة المشاعر. قد تكون الجمجمة وعليها هذا الشعر المستعار البدائي أو فروة الرأس المزيفة شيئًا مزعجًا للغاية؛ ولكن كذلك كان ضابط الشرطة البلجيكي.

بعد الانتهاء من عملية «التجميع»، أحضر بيرسيفال إبريق الماء من غرفة نومه، ونزل إلى المتجر الذي ترك بابه مفتوحًا، وجرب صنابير البراميل المختلفة حتى وصل إلى ذلك الذي يحتوي على الكحول الميثيلي؛ حيث ملأ إبريقه وعاد إلى غرفة النوم. وسكب الكحول في الحوض، ووضع منشفة حول رقبته وملأ إسفنجة بالكحول وشرع بقوة في غسل شعره وحاجبَيه بالكحول؛ وبينما أصبح الكحول الموجود في الحوض، بالتدريج داكنًا وعكرًا، كذلك أصبح شعره وحاجبيه أفتح في اللون إلى أن اكتسبوا، بعد فركهم بقوة بمنشفة، لونًا ذهبيًّا أو رمليًّا لا يُمكن تمييزه عن لون شعر ابن عمه روبرت. حتى الشامة الموجودة تحت عينه كانت عرضة لظروف التغيير، لأنه عندما بللها جيدًا بالكحول، تمكَّن بشفرة سكين رفيع من تقشيرها بدقة كما لو كانت ملصقة بصمغ العلكة. وبعد أن فعل ذلك، وضعها في صندوق صغير كان يحمله في جيب الصديري.

كانت الإجراءات التي تلت ذلك واضحة الغرض تمامًا. أولًا حمل حوض الكحول إلى غرفة الجلوس وسكب محتوياته عمدًا على الأرض بجانب الكرسي ذي الذراعَين. وبعد أن أعاد الحوض إلى غرفة النوم، نزل مرة أخرى إلى المتجر، حيث اختار دلوَين مجلفنَين من المخزون، وملأهما بزيت البارافين من أحد البراميل الكبيرة وحملهما إلى الطابق العلوي. ثم سكب الزيت من أحدهما على الكرسي ذي الذراعَين وعلى الهيكل المنفر الموضوع عليه؛ أما الدلو الآخر فقد سكبه ببساطة على السجادة، ثم نزل إلى المتجر للحصول على كميات أخرى.

وعندما تكرَّر هذا الإجراء مرةً أو مرتَين، أصبحت الأرضية والأثاث بأكملها مشبعة، وملأت رائحة البارافين هواء الغرفة لدرجة أن بيرسيفال اعتقد أنه من الحكمة إطفاءُ الغاز. وعند العودة إلى المتجر، سكب دلوًا من الزيت فوق كومة من حُزَم الحطب، وآخر

فوق طاولة البيع والأرضية، وثالثًا فوق الأشياء المتفرقة على الجدران والمتدلية من السقف. وعند النظر إلى السقف، يُمكن الآن رؤية عدد من البقع الدهنية التي نشع فيها الزيت من أرضية الطابق العلوي، التي بدأ بعضها في التنقيط على أرضية المتجر.

لقد أتم الآن استعداداته النهائية؛ لذا أخذ حُزمة من ثقاب «العجلة»، وصنع كومة صغيرة مقابل كومة الحطب. وفي وسط الثقاب، وضع كرة من الخيط مشبعة بالبارافين؛ وفي الفتحة المركزية للكرة، وضع نصف دستة من شموع عيد الميلاد الصغيرة. وهكذا أصبح هذا اللغم جاهزًا الآن للتفجير. بعد ذلك زود نفسه بكمية من الثقاب، وبضع كرات من الخيط المشبع بالبارافين ونحو عشر شموع صغيرة، وصعد إلى غرفة الجلوس، التي كانت أعلى المتجر مباشرة. هنا، وعلى وهج نار المدفأة، صنع كومة أو اثنتَين من الثقاب حول وتحت الكرسي ذي الذراعَين، ووضع كرات الخيط على الأكوام وعلق حُزمتَين أو ثلاثًا في كل كرة. فأصبح كلُّ شيء جاهزًا الآن. ثم دخل إلى غرفة النوم وأخذ من الدولاب معطفًا احتياطيًا وقبعة جديدة ومظلة جديدة، لأنه يجب أن يترك قبعاته القديمة ومعطفه ومظلته في الغرفة. ثم لبس المعطف والقبعة وعاد إلى غرفة الجلوس وهو يحمل المظلة في يده.

وأمام الكرسيِّ ذي الذراعَين وقف لحظة، مترددًا، وسرَت في أوصاله رجفةٌ من الرعب. فما سيفعله كان شيئًا فظيعًا؛ شيء لا يُمكن لأحد أن يتوقع عواقبه. ثم ألقى، خِلسةً، نظرةً على الهيكل الفظيع الذي جلس على الكرسي، ورأسُه الرهيب مائلٌ بالكامل وأطرافه المتيبسة ممددة في تشوُّه متنافر بشع. لم تكن سوى دمية، مجرد فزاعة؛ لكن مع ذلك، في ضوء النار الخافت، بدا الوجه المروع تحت الشعر المستعار الرهيب وكأنه يتأرجح بذكاء، ليُراقبه بخبث خفي من تجويفَي عينَيه الغامضتَين، فنظر بعيدًا وقد تعرق جلده، بينما سرت في بدنه قُشَعريرة من الرعب شبه الخرافي.

لكن هذا لن ينفع أبدًا. لقد أوشك الليل على الانقضاء، استهلكته هذه الأعمال الشاقة؛ وقد قاربت الساعة الحادية عشرة، وحان وقت رحيله. لأنه إذا عاد آل براتل مبكرًا قبل موعدهم فسينكشف أمره. فاستجمع شتات نفسه جاهدًا، وأشعل عود ثقاب وأضاء الشموع الصغيرة واحدة تلو الأخرى. حيث، في غضون ربع الساعة أو نحو ذلك، ستحترق وتنتقل نارها إلى كرات الخيط، وبعد ذلك ... سار بسرعة خارجًا من الغرفة؛ ولكن، عند الباب، توقَّف للحظةٍ لينظرَ إلى الوراء إلى الهيكل المروع الذي يجلس متيبسًا على الكرسي والشموعُ مضاءة عند قدمَيه، مثل شيطان كريه يُتقرَّب إليه ويُسترضَى بنيران النذور. وقد ألقت ألسِنةُ اللهب المتراقصةُ بظلالها الخافتة على وجهه ما جعله يبدو كأنه يبتسم في استهزاء بكل

حرصه وعنايته. لذا استدار بيرسيفال وركض مرتجفًا على السلم، وفتح نافذة السلم وهو يُغادر. ثم ركض إلى المتجر، وأضاء الشموع هناك وركض مرة أخرى، وأغلق الباب من ورائه.

وبينما يُحاصره الشعور بالذنب تسلل عبر القاعة، وفتح الباب لبضع بوصات واسترق النظر. فهبت رياح جليدية مصحوبة بنثرات خفيفة من الثلج الجاف. ومَن ثَم فتح مظلته، وفتح الباب على مِصراعَيه، لينظر عبر الشارع الفارغ، وبعد ذلك خرج، وأغلق الباب بهدوء، ثم سار مبتعدًا فوق الرصيف المغطى بالثلج.

الجزء الثاني (رواه الطبيب كريستوفر جيرفيز)

تنصُّ إحدى قواعد ممارسة الطب الجنائي التي وضعها زميلي، جون ثورندايك، على أن المحقق يجب أن يكون دائمًا على حذر من تأثير الإيحاء. إذ يجب تجنبُ جميع الأحكام المسبقة والأفكار المسبقة، وكذلك عند تلقِّي المعلومات من طرف خارجي، يجب غربلة الحقائق الفعلية التي لا يُمكن إنكارها بعناية بعيدًا عن الاستنتاجات التي تُصاحبها عادةً. ومِن ثَم؛ قدَّم التحقيق الذي قمنا به في حادث حريق متجر الزيت الخاص بالسيد براتل مثالًا ممتازًا لضرورة تنفيذ هذه القاعدة.

حيث طلب منا السيد ستوكر؛ وهو الموظف المسئول بشركة جريفين للتأمين، أن نُحقق في القضية بعد أيام قليلة من عيد الميلاد. لقد جاء إلى مكتبنا، ظاهريًّا ليتمنَّى لنا عامًا جديدًا سعيدًا، لكن التوقف المتحفظ أثناء محادثته مع ثورندايك كشف عن غرض آخر للزيارة.

إذ سأل السيد ستوكر: «هل قرأت قصة الحريق الذي اندلع في بلومزبيري؟»

«متجر الزيوت؟ نعم. لكنني لم ألحظ أي تفاصيل باستثناء أن رجلًا على ما يبدو قد احترق حتى الموت، وأن الحادث قد وقع في الخامس والعشرين من ديسمبر.»

قال السيد ستوكر: «نعم، أعرف، ويبدو الأمر قاسيًا، لكن لا يسع المرءَ إلا أن ينظر بعين الشك إلى الحرائق التي تحدث في أيام استحقاق سداد الأقساط هذه. والتاريخ ليس الأمرَ الوحيد المشكوك فيه؛ حيث أخبرني ضابط بقوات الإطفاء، الذي عاين الأنقاض، أن هناك بعض المظاهر التي تُشير إلى أن الحريق قد اندلع في مكانَين مختلفَين؛ المتجر، وغرفة الطابق الأول فوقه. ولكن ضَع في اعتبارك أنه يُخمن ولا يُؤكد. فالمكان مدمَّر تمامًا لدرجة أنه لا يُمكن الاستدلال منه على الكثير من المعلومات؛ لكن هذا هو انطباعه. وخطر لي أنه إذا ألقيت أنت نظرة على الأنقاض، فقد تكتشف عينُك الفاحصة شيئًا قد أغفله.»

قال ثورندايك: «إنه أمر ليس محتملًا جدًّا؛ فكل رجل لديه خبرة في مجال مهنته. حيث يفحص ضابط الإطفاء المنزل المحترق بعيون خبيرة، وأنا ليس لديَّ نفس خبرته. ولن يُصبح لشهادتي وزنٌ كبير إذا كنت ستطعن على المطالبة.»

أجاب السيد ستوكر: «ربما الأمر كذلك، ونحن لسنا متحمسين للطعن ما لم يكن هناك احتيالٌ واضح. والإحراق المتعمد هو أمر خطير.»

علَّق ثورندايك قائلًا: «إنه قتل متعمَّد في هذه القضية.»

قال ستوكر: «أنا أعلم، وهذا يُذكِّرني بأن الرجل الذي احترق تصادف أنه مؤمَّن على حياته في شركتنا أيضًا. لذلك نحن نتحمل خَسارة مضاعفة.»

فسأله ثورندايك: «كم تبلغ قيمة بوليصة التأمين على حياته؟»

«لقد أمَّن القتيل، بيرسيفال بلاند، على حياته مقابل ثلاثة آلاف جنيه إسترليني.»

ازداد اهتمام ثورندايك بالقضية بعد هذه المعلومة الأخيرة التي تركت لديه انطباعًا أكثر من المعلومات السابقة.

قال: «إذا كنت تُريد مني أن أُحقق في القضية من أجلك، فمن الأفضل أن تُزودني بجميع الأوراق المرتبطة بها، وفي ذلك استمارات التقديم.»

ابتسم السيد ستوكر قائلًا: «اعتقدت أنك ستقول ذلك — فأنا أعرفك منذ زمن بعيد، كما تعلم — لذا وضعت الأوراق في جيبي قبل مجيئي إلى هنا.»

ثم وضع الوثائق على الطاولة وسأل: «هل هناك أي شيء تُريد معرفته عن القضية؟»

أجاب ثورندايك: «نعم، أريد أن أعرف كل ما يُمكنك أن تُخبرني به.»

قال ستوكر: «إن ما لديَّ من معلومات قليل للغاية؛ ولكني سأُخبرك بها.»

«إن اسم صاحب متجر الزيوت هو براتل، والرجل المتوفَّى، بلاند، كان يستأجر غرفة في بيته. ويبدو أن بلاند كان رجلًا ثابتًا تمامًا ورصينًا بشكل عام ولا يثمل؛ ولكنه أعلن عن نيته في الاستمتاع بليلة عيد الميلاد المبهجة ومنح نفسه القليل من التدليل الإضافي. وقد شُوهِد لآخرِ مرة من قبل السيدة براتل في حوالي الساعة السادسة والنصف، جالسًا بجوار المدفأة، مع زجاجتَين غير مفتوحتَين من الشراب على الطاولة وصندوق سيجار. وكان في يده كتاب وبجوار كرسيِّه صحيفتان أو ثلاثٌ ملقاة على الأرض. وبعد ذلك بوقت قصير، خرج السيد والسيدة براتل في زيارة إلى هورنسي، وتركاه وحده في المنزل.»

سأله ثورندايك: «ألم يكن هناك خادمة؟»

«لقد حصلَت الخادمة على إجازة من العمل للذَّهاب إلى منزل والدتها. وبالمناسبة، إن ذلك يدعو إلى قليلٍ من الريبة. ومع ذلك، لِنَعُد لآل براتل، الذين أمضَوا المساء في هورنسي

ولم يعودوا إلى المنزل إلا بعد الثالثة صباحًا، وفي ذلك الوقت أصبح منزلهم عبارة عن كومة من الأنقاض المحترقة. وتظن السيدة براتل أن بلاند قد أفرط في الشرب حتى داهمه النوم، وألقى إحدى الصحف داخل حاجز المدفأة، وربما أمسكت بها جمرةٌ فبدأت الحريق. وهو تفسير ربما يكون حقيقيًّا وربما لا. فبالطبع، يُمكن لرجل عادي أن يفقد السيطرة مع زجاجتَين من الشراب.»

سأله ثورندايك: «في أي وقت شبَّ الحريق؟»

«لقد لُوحِظ في الساعة الحادية عشرة والنصف أن اللهب ينبعث من إحدى المداخن، وتم إطلاق الإنذار على الفور. فوصلت سيارة الإطفاء الأولى بعد عشر دقائق، ولكن بحلول ذلك الوقت، كان المكان يهدر مثل الفرن. ووجد رجال الإطفاء منافذ المياه وقد جمدتها الثلوج بشدة، مما تسبب في بعض التأخير، وفي الواقع؛ قبل أن تتمكن معدات الإطفاء من العمل، أسقطت النيران السقف، وأصبح المكان مجرد كتلة من اللهب. أنت تُدرك سهولة اشتعال ودمار متجر الزيوت، إذا اقتربت منه شرارة لهب صغيرة.»

«وعثروا على جثة السيد بلاند في الأنقاض، أليس كذلك؟»

صاح السيد ستوكر: «الجثة! لم يتبقَّ الكثير منها! فقط عدد قليل من العظام المتفحمة، التي استخرجوها من الرماد في اليوم التالي.»

«ومسألة تحديد هوية الجثة؟»

«سوف نترك ذلك للطبيب الشرعي. لكن في الحقيقة ليس هناك أدنى شك. أولًا، لم يكن هناك أيُّ شخص آخر في المنزل، وقد عُثِر على البقايا مختلطة بزنبركات وعجلات الكرسي الذي كان بلاند جالسًا عليه عندما شُوهِد لآخر مرة. علاوة على ذلك، عثر على العظام، وسكين جيب، ومجموعة مفاتيح ومجموعة من أزرار الصديري المعدنية، حددتها السيدة براتل جميعًا على أنها تخص بلاند. وكانت قد لاحظت الأزرار المزخرفة على الصديري عندما تمنت له ليلة سعيدة.»

قال ثورندايك: «بالمناسبة، هل كان بلاند يقرأ على ضوء مصباح زيت؟»

أجاب ستوكر: «لا، ولكن توجد بالغرفة ثريا ذات فرعَين تعمل باستخدام الغاز وهي مزوَّدة بغطاء من البورسلين على فرع واحد، وكان هذا الفرع مُضاء عندما غادرت السيدة براتل.»

التقط ثورندايك نموذج التقديم وهو يُفكِّر، وبعد إلقاء نظرة خاطفة عليه، قال: «إن النموذج يُشير إلى أن بلاند كان غيرَ متزوج. هل تعرف لماذا أمَّن على حياته بهذا المبلغ الضخم؟»

«لا؛ لقد افترضنا أن للأمر صلةً بقرض حصل عليه، كما علمت من المحامي الذي أخطرنا بوفاته، أن ممتلكات بلاند بأكملها تُرِكَت لابن عمه، السيد ليندساي، على ما أعتقد. لذا فالاحتمال هو أن ابن العم قد أقرضه المال. لكن ما يُثير اهتمامنا ليس المطالبة ببوليصة التأمين على الحياة. إذ يجب أن ندفعها على أي حال. إن المطالبة بقيمة التعويض عن الحريق هي ما نُريدك أن تُحقق فيها.»

قال ثورندايك: «حسنًا، سوف أذهب لموقع الحريق وألقي نظرة على الأنقاض، وأرى ما إذا كان بإمكاني اكتشاف أي دليل مادي على الاحتيال.»

قال السيد ستوكر، وهو ينهض مستعدًّا للمغادرة: «ولكن رجاء يجب أن نكون ملتزمين للغاية. إذ لا يعني إجراؤك للتحقيق أننا ربما نعارض المطالبة على أي حال.»

وعندما غادر، تفحصت الأوراق أنا وزميلي، وغامرت بالملاحظة قائلًا: «يبدو لي أن ستوكر لا يُقدِّر تمامًا احتمالات هذه القضية.»

قال ثورندايك موافقًا: «بالفعل.» ثم أضاف مبتسمًا: «لكن، بالطبع، إن مهمة شركة التأمين هي أن تدفع قيمة المطالبة، وليس التملُّص لأي سبب لا يدل على احتيال واضح. ونحن كمتخصصين أيضًا، يجب أن نحذر من التشكُّك الزائد عن الحد. وأفترض أنه، بالنسبة إلى طبيب الأنف، لا يكاد يوجد شيء اسمه أنف بحالة صحية سليمة تمامًا — إلا إذا كان أنفه هو — وكذلك طبيب الكُلَى ميال جدًّا إلى الاعتقاد بأن هناك دائمًا حصواتٍ في الكلى. ولكن في نهاية الأمر، يجب ألا ننسى أن هناك حوادثَ طبيعية تقع بالفعل.»

فقلت: «هذا صحيح، ولكن، من ناحية أخرى، فإن عمل طبيب الأنف هو مع الأنف المصاب بأمراض، ونحن في عملنا نتفحَّص غالبًا القضايا الغامضة والمريبة.»

ضحك ثورندايك وقال: «جاء دانيال للحكم، لكنك محقٌّ تمامًا يا صديقي الخبير. إن وظيفتنا هي العثور على الثغرات. لذا دعنا نحزم الوثائق ونتجه إلى بلومزبيري. ويُمكننا مناقشة القضية في طريقنا إلى هناك.»

مشينا بخُطًى متمهلة، حيث لم نكن في عجلة من أمرنا، ثم إن القليل من التفكير المبدئي سيُفيدنا بالتأكيد. وبعد فترة، وبينما لم يُبدِ ثورندايك أي ملاحظة، أعدت فتح الموضوع.

وسألته: «كيف ترى هذه القضية؟»

فأجابني: «كما تراها أنت، على ما أظن. فظروفها تستدعي التحقيق، ولا يُمكنني إيجاد صلة بينها وبين صاحب المتجر؛ كي نشكَّ في تورطه بالاحتيال. فصحيحٌ أن الحريق

وقع في يوم استحقاق سداد الأقساط. ولكن لا يوجد ما يدل على أن التأمين سيفعل أكثر من تغطية خَسارة المخزون والمنقولات وأرباح التجارة. لكن الظروف الأخرى موحية أكثر بكثير. فهناك منزل احترق ورجل قُتِل. وذلك الرجل القتيل كان مؤمَّنًا عليه بثلاثة آلاف جنيه، وبالتالي، فإنَّ شخصًا ما سيكسب بوفاته هذا المبلغ. ومِن ثَم؛ فالظروف كلها تصبُّ في صالح فكرة القتل؛ إذ كان الرجل وحده في البيت عندما مات، ويبدو أن الدمار الكامل للجسد ومحيطه يجعل التحقيق مستحيلًا. لذا يُمكن فقط استنتاجُ سبب الوفاة؛ ولا يُمكن إثباته، كما قد اختفَت تمامًا كل الأدلة الواضحة على حدوث جريمة ما. وأعتقد أن هناك شكًّا بديهيًّا قويًّا يُشير إلى وقوع جريمة قتل. وفي ظل هذه الظروف المعروفة، يُعَد ارتكاب جريمة قتل أمرًا سهلًا، وفي مأمنٍ من الانكشاف، وهناك دافع كافٍ.

ومن ناحية أخرى، فإن الانتحار ليس احتمالًا مستحيلًا. فربما يكون الرجل قد أشعل النار في المنزل ثم قتل نفسه بالسم أو بأيٍّ طريقة أخرى. ولكن من المستبعَد أن يقتل الرجل نفسه لمصلحة شخص آخَر؛ إذ من المعتاد أن يقتل رجلًا آخر لمصلحته الشخصية.

وفي النهاية، هناك احتمال أن يكون الحريق وموت الرجل نتيجةً لحادث عارض؛ وهو ما ينفيه رأي ضابط الإطفاء بأن الحريق قد اندلع في مكانَين. وإذا كان هذا الرأي صحيحًا، فإنه يُثبت من وجهة نظري افتراضًا قويًّا بحدوث جريمة قتل بواسطة شخص ربما تمكَّن من اقتحام المنزل.»

عند هذه النقطة من النقاش كنا قد وصلنا إلى المنزل المحترق، الذي يقع عند زاوية شارعَين صغيرَين. حيث سمح لنا أحد رجال الإطفاء المسئولين، عندما أظهرنا أوراق تفويضنا، بالدخول من خلال باب مؤقَّت ونزلنا على سُلَّم إلى القبو، حيث وجدنا عددًا من الرجال يسيرون بحذر شديد، وقد غاصت أحذيتهم في الرماد الأبيض، بين ركام من الخشب المتفحم، والزجاج المصهور، والخزف الصيني المشوه والمكسور، والأشياء المعدنية التي يُمكن التعرف على بعضها بينما طمست معالم بعضها الآخر.

قال رجل الإطفاء: «هذا هو الطبيب الشرعي ومعه أعضاء هيئة المحلَّفين، تعاليا لمشاهدة مكان الكارثة.» ثم عرَّفنا على الطبيب الذي انحنى لتحيتنا وواصل تحقيقاته.

قال رجل إطفاء آخر: «هذه هي زنبركات الكرسي التي كان المتوفَّى يجلس عليه. لقد وجدنا الجثة — أو على وجه الدقة العظام — مُلقاة بينهم تحت كومة من الرماد الساخن؛ ووجدنا أزرار ملابسه وأشياءَ أخرى من جيوبه بين الرماد أيضًا. ستراها في المشرحة مع بقايا الجثة.»

قال أحد أعضاء هيئة المحلفين: «لا بد أنه كان حريقًا مروِّعًا؛ فقط انظر إلى هذا يا سيدي.» وسلم إلى ثورندايك ما بدا وكأنه جزءٌ من تركيبات الغاز، التي صُهِر الجزء الأكبر منها إلى كتل عديمة الشكل والباقي مغطًّى بالبورسلين المصهور.

قال رجل الإطفاء: «هذه، كانت ثريا تعمل بالغاز في غرفة الطابق الأول، حيث كان السيد بلاند جالسًا. آه! لقد انصهر مِفتاحها يا سيدي؛ ولا يُمكن تحريكه تمامًا.»

حمل ثورندايك الكتلة النحاسية الملتوية باتجاهي في صمت، وألقى نظرة خاطفة على الجدران السوداء، وعلق قائلًا: «أعتقد أنه سيتعين علينا المجيء إلى هنا مرة أخرى مع ضابط القسم، ولكن في غضون ذلك، من الأفضل أن نفحص بقايا الجثة. فمن الممكن أن نستدلَّ على شيء منها.»

ومِن ثَم، تقدم بطلب إلى الطبيب الشرعي للحصول على التصريح اللازم لإجراء الفحص، وبعد أن حصل على الإذن بصعوبة وعلى مضض لفحص البقايا بعد أن «تراها» هيئة المحلفين، بدأ في صعود السلم.

وقال عندما خرَجنا إلى الشارع: «كان صديقنا الطبيب الشرعي يرغب في رفض منحنا الإذن، لكنه يعلم أنَّ من حقي أن أُصِر عليه وأنني سأفعل بالتأكيد.»

فقلت: «لقد تبينت هذا من طريقته، لكن ما الذي يفعله هنا؟ هذه ليست منطقة عمله.»

«لا، إنه يعمل بالنيابة عن بيتسفورد، الذي اعتذر للتو بسبب مرضه؛ وهو بديل سيئ للغاية. الطبيب الشرعي غير المتخصص هو عبث على أي حال، والطبيب الشرعي الذي يعادي مهنة الطب هو فضيحة عامة. وبالمناسبة، فإن مفتاح الغاز هذا يُمثل مشكلة غريبة. هل لاحظت أنه تم إيقاف تشغيله؟»

«نعم.»

«وبالتالي، كان المتوفَّى جالسًا في الظلام عندما اندلع الحريق. لا أرى للأمر تأثيرًا، لكنه بالتأكيد غريب إلى حدٍّ ما. ها قد وصلنا إلى المشرحة. ولكن من الأفضل أن ننتظر ونترك هيئة المحلفين تدخل أولًا.»

ولم تمر سوى دقائق معدودة؛ حتى ظهر «الاثنا عشر رجلًا صالحًا وصحيحًا» مع حشد صغير من المتسولين. فانتظرنا حتى دخلوا أولًا، ثم تبعناهم. كانت المشرحة عبارة عن غرفة كبيرة الحجم، مضاءة جيدًا بسقف زجاجي، وفي وسطها طاولة طويلة تُوضَع عليها حقيبة الجثث التي تحتوي على الرفات. وكانت هناك أيضًا ورقة وُضِعَت عليها مجموعة

من أزرار حديدية سوداء اللون، ومجموعة من المفاتيح وسكين جيب بمقبض فولاذي، وساعة بعلبة فولاذية على سلسلة ذهبية ملفوفة منصهرة جزئيًّا، ومفتاح صغير لزجاجات الشراب. حيث لفتَ الطبيب الشرعي انتباه هيئة المحلفين إلى هذه الأشياء، ثم تحفَّظ عليها، حتى يُمكن التعرفُ عليها من قبل الشهود. وفي هذه الأثناء، اجتمع أعضاء الهيئة حول حقيبة الجثث وحدَّقوا وهم يرتجفون في محتوياتها البشعة.

قال الطبيب الشرعي: «أنا آسف أيها السادة، لاضطراري إلى تعريضكم لهذا الموقف المؤلم. لكن الواجب واجب. يجب أن نأمُل، كما أعتقد، أن يكون هذا المخلوق المسكين لم يُعانِ من الألم على الرغم من تلك الميتة الرهيبة.»

عند هذه النقطة، ألقى ثورندايك، الذي كان قد اقترب من الطاولة، نظرة طويلة وثابتة على حقيبة الجثث؛ وعلى الفور بدا وجهُه الجامد كالمعتاد وكأنه يتجمَّد؛ وقد تلاشت كلُّ التعبيرات منه، تاركةً إياه ثابتًا بلا حَراك أو تواصُل مثل وجه تمثال فرعوني من الجرانيت. وأنا أعرف تلك الأعراض التي تعتريه من قبل، وبدأت أُفكر في دلالتها الحاليَّة.

ثم سأل: «هل عثرت على أي دليل طبي؟»

كرَّر الطبيب الشرعي الكلمة بازدراء: «دليل طبي! بالتأكيد لا يا سيدي! أنا لا أُهدر المال العام من خلال توظيف ما يُسمَّى بالخبراء لإخبار هيئة المحلَّفين بما يُمكن أن يراه كلٌّ منهم بنفسه بوضوح.» ثم أضاف، متجهًا إلى رئيس الهيئة: «أتصور أنك لست بحاجة إلى طبيب خبير كي يشرح لك كيف لقي هذا الرجل المسكين مصرعه؟»

فأجاب رئيس الهيئة، وهو يُلقي نظرة خاطفة بارتياب على الجمجمة، مع ابتسامة شاحبة وواهنة بأنه «ليس بحاجة إلى ذلك.»

تابع الطبيب الشرعي، مع تلويح دراماتيكي من يده باتجاه التابوت البسيط: «وأنت يا سيدي، هل تفترض أننا سنجد صعوبةً في تحديد كيف لقي هذا الرجل مصرعه؟»

أجاب ثورندايك، دون تحريك عضلة واحدة، أو في الواقع، بدا كأنه ليس لديه أي عضلات لتحريكها، وقال: «أنا أتخيل؛ أتخيل أنك لن تجد صعوبة على الإطلاق.»

قال الطبيب الشرعي: «وأنا كذلك.»

فرد ثورندايك بابتسامة خافتة غامضة: «إذن نحن، لمرة واحدة، على توافق كامل.»

عندما انصرف الطبيب الشرعي مع هيئة المحلَّفين، وتركوا زميلي وأنا وحدنا في المشرحة، قال ثورندايك: «أفترض أن هذا النوع من المهازل سيتكرَّر بشكل دوري طالما استمر إجراء هذه التحقيقات الطبية عالية التخصص من قبل أشخاص غير متخصصين.»

لم أجب، لأنني ألقيت نظرة طويلة على حقيبة الجثث، ثم أصبت بدهشة عارمة.

ثم صحت قائلًا: «لكن يا عزيزي ثورندايك! إني أتعجب؛ ما معنى هذا؟ هل علينا أن نفترض أن امرأة يُمكن أن تنتحل صفة رجل كي يفحصها المسئول الطبي لشركة لندن للتأمين على الحياة؟»

هز ثورندايك رأسه وهو يقول: «لا أعتقد ذلك. إن صديقنا السيد بلاند، ربما كان امرأة بيضاء متنكرة في هيئة رجل أبيض، لكنه بالتأكيد لا يُمكن أن يكون امرأة زنجية.»

قلت متعجبًا: «زنجية! يا إلهي! إنها كذلك بالفعل، أنا لم أنظر إلى الجمجمة جيدًا. لكن هذا فقط يجعل القضية أكثر غموضًا. لأنه، كما تتذكر، كانت الجثة ترتدي ملابسَ بلاند بالتأكيد.»

قال ثورندايك بشكل جاف: «نعم، لا يوجد شك في ذلك. وربما لاحظت، كما فعلت أنا، أن أزرار الصديري، وغلاف الساعة، ومقبض السكين، وغيرها من الأشياء التي تُحدد هوية الجثة؛ كلها مقاومة للحريق، كما لو كانت قد اختيرت بعناية لهذا السبب بالتحديد.»

صحت قائلًا: «لكن يا له من أمر مروع! يبدو أن ذلك المتوحش قد خرج وأغوى امرأة زنجية مسكينة واستدرجها إلى المنزل، وقتلها بدم بارد ثم وضع جثتها داخل ملابسه عن عمد! إنه أمر مخيف تمامًا!»

هز ثورندايك رأسه مرة أخرى وقال: «لم يكن الأمر بهذا السوء يا جيرفيز، على الرغم من أنني يجب أن أعترف بأنني أشعر بإغراء شديد لترك فرَضيتك هذه قائمة. سيكون من الممتع للغاية محاكمةُ السيد بلاند بتهمة قتل امرأة زنجية مجهولة، ولندعه يشرح الحقائق بنفسه. لكن سمعتنا ستكون على المحك. انظر إلى العظام مرة أخرى وبشكل أكثر تفحصًا قليلًا. من المحتمل جدًّا أنك بحثت عن جنس الجثة أولًا؛ ثم بحثت عن سماتها العرقية. والآن، خذ فحصك نحو مرحلة أكثر دقة.»

فقلت أنا: «هناك ملاحظة حول طول القامة، لكنها ليست مهمة؛ لأن هذه ليست عظامَ بلاند. النقطة الأخرى الوحيدة التي لاحظتها هي أن النار على ما يبدو قد أحرقت عظام الجسم بشكل غير متساوٍ.»

قال ثورندايك موافقًا: «نعم، وهذه هي النقطة. إذ إن بعض الأجزاء محترقة أكثرَ من غيرها؛ والأجزاء التي احترقت أكثر هي أجزاء كان يجب أن تكون أقل احتراقًا. انظر إلى العمود الفقري، على سبيل المثال. إن الفقرات بيضاء مثل الطباشير. وهي مجرد كتل من رماد العظام. ولكن من بين جميع أجزاء الهيكل العظمي، لا تُوجَد عظام محميَّة

تمامًا من الحريق مثل العمود الفقري، نظرًا لوجود عضلات ظهر كبيرة في الخلف وكتلة الأحشاء بالكامل في المقدمة. ثم انظر إلى الجمجمة. إن مظهرها غيرُ متوافق تمامًا مع الحقائق المقترَحة. فعظام الوجه غير مكسوَّة باللحم وهي متكلسة كما أنَّ محجرَي العينَين لا يحتويان على أي أثر للعينَين أو التراكيب الهيكلية الأخرى؛ ومع ذلك، هناك كتلة متفحمة لما يُمكن أن يكون وقد لا يكون فروةَ رأس ملتصقةً بتاج الجمجمة. لكن فروة الرأس، باعتبارها الأكثرَ تعرضًا وانكشافًا والأكثرَ نحافة من حيث التغطيةُ، ستكون أولَ ما يُدمَّر، في حين أن آخِرَ ما يُدمَّر هو التراكيب الهيكلية حول الفكَّين وقاعدتهما، التي كما ترى، لم يتبقَّ منها أي أثر.»

وهنا رفع الجمجمة بعناية من حقيبة الجثث، ونظر إلى داخلها من خلال الفتحة الكبيرة في القاعدة؛ ثم ناولها لي.

وقال: «انظر إلى الداخل، من خلال الفتحة الكبيرة — سترى بشكل أفضلَ إذا كنت تُمسك المدارات باتجاه الضوء — ولاحِظ التناقض الشديد مع الظروف المفترضة. لقد اختفى المخ والأغشية دون ترك أي أثر. كما أن الجزء الداخلي من الجمجمة نظيف كأنه قد تعرض للنقع. لكن هذا أمر مستحيل. إن المخ ليس فقط محميًّا من النار؛ لكنه محميٌّ أيضًا من ملامسة الهواء. ولكن بدون تعرضه للأكسجين، من الممكن أن يُصبح مكربَنًا، ولكنه يستحيل أن يتلاشى تمامًا. لا يا جيرفيز، هذا مستحيل.»

فأعدَّت الجمجمة إلى الحقيبة ونظرت إليه بدهشة؛ ثم سألته: «وما هو تفسيرك للأمر؟»

«إن تفسيري هو أن هذه لم تكن جثة على الإطلاق، ولكنها مجرد هيكل عظمي جاف.»

فقلت معترضًا: «لكن، ماذا عن تلك الكتل التي تبدو وكأنها عضلات متفحمة ملتصقة بالعظام؟»

أجاب: «نعم، لقد لاحظتها. إنها، كما قلت، تشبه كتل العضلات المتفحمة. لكن ليس لها شكل أو بِنية هيكلية مماثلة لعضلات الإنسان. فأنا لا أستطيع تحديد عضلة واحدة أو مجموعة عضلية؛ ولا يُوجَد أثر لأي من الأوتار. علاوة على ذلك، فإن توزيعها خاطئ. على سبيل المثال، هل يُمكنك أن تُخبرني ما هي هذه العضلة؟»

وأشار إلى كتلة سميكة متفحمة على السطح الداخلي للساق اليسرى أو عظْمة الساق. «إن هذا الجزء من العظم — كما يعلم أغلب لاعبي الهوكي — ليس له غطاء عضلي على الإطلاق. إنه يقع مباشرة تحت الجلد، ويُطلِق عليه العامة مصطلحَ قصبة الساق.»

فقلت: «أعتقد أنك على صواب يا ثورندايك، إن هذه الكتلة العضلية الموضوعة في المكان الخطأ تُثبت وقوع عملية احتيال. لكنها حقًّا مراوغة ذكية للغاية. لا بد أن ذلك الرجل بلاند محتال عبقري.»

قال ثورندايك: «نعم؛ لكنه شرير عديم الضمير أيضًا. لقد كان من الممكن أن يحرق نصف الشارع ويقتل عددًا كبيرًا من الأشخاص. لكن عليه أن يدفع ثمن فعلته الشنعاء.»

«ماذا ستفعل الآن؟ هل ستُخطر الطبيب الشرعي؟»

«لا، إن هذا ليس من شأني. أعتقد أن علينا أن نتحقق من استنتاجاتنا ثم نُبلغ موكلنا وكذلك الشرطة. يجب أن نقيس حجم الجمجمة قدر الإمكان بدون أدوات قياس، لكنها، لحسن الحظ، نموذجيَّة تمامًا؛ إذ إن عظام الأنف قصيرة وعريضة ومسطحة، مع «أخدود سيميان» والأسنان الضخمة القوية، المتآكلة بفعل الطعام القاسي والجاف، كلها سمات مميزة وواضحة. ثم رفع الجمجمة مرة أخرى، وأجرى بعض القياسات باستخدام شريط زنبركي، بينما كتبت أنا أطوال العظام الطويلة الرئيسية والعرض بين الفخذَين.»

ثم قال وهو يضع الجمجمة: «إن مؤشر الجمجمة والأنف ٥٥، ومؤشر الجمجمة حوالي ٧٢، وهي أرقام نموذجية تمامًا؛ كما أرى أن ملاحظاتك تُظهر الطول المعتاد غير المتناسب للذراع ومنحنى عظمة الساق المميز، وهكذا قد أصبحنا متأكدين تمامًا. فمن حسن الحظ أن العينة نموذجية للغاية. وبالنسبة إلى العين الخبيرة، فإن الأنواع العرقية لها ملامح واضحة لا لبس فيها بمجرد الفحص. لكن ليس الجميع يتمتعون بهذه العين الخبيرة. يُمكنك فقط التعبير عن قناعتك الشخصية ودعمها بالقياسات.

والآن سنذهب ونبحث عن ستوكر، ونُبلغه أن شركته قد وفرت ثلاثة آلاف جنيه من خلال توظيفنا. وبعد ذلك سيُصبح الأمر كشفًا لعالم جديد كما في رواية ويستوارد هو؛ وذلك بالنسبة إلى رجال الشرطة في سكوتلاند يارد، الذين، بالتأكيد، سيُعِدون مفاجأة صغيرة غير سارة للسيد بيرسيفال بلاند.»

في اليوم التالي كان الصحفيون غاية في السعادة؛ حيث خصصت كلُّ الصحف الصباحية عمودًا كاملًا لسرد تفصيلي بشكل غير عادي للتحقيق الذي أُجري على الراحل بيرسيفال بلاند — الذي، على ما يبدو، لقي مصرعه نتيجة حادث مروع — وتقرير حَرفي لأقوال الطبيب الشرعي البليغة حول خطر البقاء منفردًا بجانب النار وأنت مخمور، وآثار الخمر التي تذهب العقل. بينما احتوى العمود المجاور على وصف تفصيلي مماثل لظهور المتوفَّى أمام محققي الشرطة في بو ستريت للرد على التهم المعقَّدة بخصوص الحرق العمد والاحتيال والتزوير؛ وجمع عمود ثالث بين الخبرَين مع تعليقات مرحة.

إن السيد بيرسيفال بلاند، ذا الاسم المستعار روبرت ليندساي، يُقيم الآن في سجن مرتفعات دارتمور ذي النسيم العليل، حيث يأسف بلا شك، في أوقات فراغه الوفيرة، على براعته التي وُجِّهت في الاتجاه الخاطئ. لكن جهده لم يذهب سدًى؛ حيث قدمت هذه الحادثة للنائب العام توضيحًا رائعًا لخطر تعيين أطباء شرعيين غير متخصصين؛ وبالنسبة إليَّ؛ قدمت تحذيرًا لا يُنسى من آثار الإيحاء.

ضمير المحامي

أظن أنني لو كنت رجلًا حساسًا لما كتبت هذه الوقائع؛ أو، على أي حال، لما فكرت في عرضها للفحص من قبل الغرباء. لأنه لا أحد يُبالي بأن يُعتبَر كاذبًا؛ كما يُفضل الكثيرون إخفاء حقيقة صعبة التصديق بدلًا من المجازفة بإعلانها. ومع ذلك، فأنا لست واحدًا من هؤلاء الأشخاص ذوي الحساسية المفرطة. وأنا أعمل محاميًا منذ سنوات عديدة، وإذا لم تُقدم هذه الحقيقة أي ضمان على صدقي الذي لا شك فيه، فإنها على الأقل تُقدم دليلًا افتراضيًّا على وجود قشرة أخلاقية قوية إلى حد ما. قد لا يُصدقني أحد؛ لكن الشك الواضح لن يُزعجني أو يُخجلني.

لقد بَدأَت علاقتي بالأحداث المدهشة التي أنا على وشك تسجيلها، في لحظة دخولي إلى متجر السيد روبن سولومون في مجمع متاجر بائعي الكتب. وقد أزال مجلس المقاطعة التقدمي ذلك المجمع منذ سنوات، وقد ينظر دافعو الضرائب الحزانى من خلال الأسوار ويرون أزهارًا برية باهظة الثمن تتفتح — ولكنها لا تدفع ضرائب — على موقع ذلك المجمع المزال. لكن في تلك الأيام كان لا يزال قائمًا، كمكان ممتع يجذب عشاق الكتب ويُسعد الفنانين المتمدنين؛ وكان متجر السيد سولومون لا يزال يُسعد العين المحبة للكتب بأوراق ضخمة ذات أحرف سوداء، ومجلدات عتيقة ذات كعوب صدئة، وكتيبات إلزفيرس الصغيرة.

وقد وجدت السيد سولومون وحيدًا في الجزء الخلفي من المتجر يُزيل الغبار عن مجموعة من الرفوف بفرشاة من الريش، ولاحظت على الفور تغيرًا في طريقته المعتادة المرحة والرائعة؛ حيث بدا بائع الكتب المحترم في حالة معنوية منخفضة بلا ريب.

فقلت بمرح: «صباح الخير يا سيد سولومون، أتمنى أن تكون بخير في هذا الطقس الجميل.»

فأجاب بطريقة فظة: «لا، لست بخير.»

«حقًّا! يُؤسفني سماع ذلك. ما الأمر؟»

وضع فرشاة الريش ونظر إليَّ بحزن.

ثم قال: «مضطرب.»

كررت الكلمة متسائلًا: «مضطرب؟»

أجاب: «نعم يا سيدي.» وبعد ذلك، عندما حدقت فيه بدهشة، أضاف على سبيل التوضيح: «في رأسي.»

فاندهشت للغاية. لأن سولومون رجل مثقف — بل يُمكنني أن أقول إنه رجل عالم — ولم يكن معتادًا على استخدام هذا الأسلوب. لكن، بالطبع، لم آخُذه على محمل الجِد. عادة لا يتم تشخيص الاضطراب العقلي من قِبَل المجنون نفسه.

قلت: «إن معنوياتك منخفضة للغاية هذا الصباح يا سيد سولومون.»

قال: «إن معنوياتي في الحضيض! إذا لم تنفجر رأسي، فسوف … ولكن مهلًا! هذا أمر لا يُهمك يا سيد ميتشل. لقد أتيت لرؤية تلك الكتب التي أرسلت لك عنها. لقد وضعتها في طرد، حيث اعتقدتُ أنك سترغب في أخذها معك للمنزل لإلقاء نظرة عليها في وقت فراغك. وهي خمسة كتب …»

ثم توقف فجأة عن الكلام، ولدهشتي، بدأ في التراجع إلى مؤخرة المتجر بأسلوب فريد ومتسلل، ملتصقًا بالجدار كما لو كان يتخطى بعض العوائق الضخمة، ويُراقب بشكل مريب النطاق المقابل من رفوف الكتب. وعندما وصل إلى منتصف المتجر، استدار وخرج من المتجر وكأنما يهرب من شيء؛ وبعد أن تتبعته إلى الشارع، وجدته يفحص بجدية كتبَ بائع كتبٍ آخر على بُعد ثلاثة متاجر.

فاستأنفت الحوار: «لقد كنت تقول يا سيد سولومون …»

«نعم، بخصوص هذا الطرد من الكتب. إنه على الرف فوق المدفأة. واسمك مكتوب عليه. ربما لا تُمانع في الدخول لأخذه. فالمتجر خانقٌ إلى حد ما في الوقت الحالي.»

كان هذا بالتأكيد تصرفًا غريبًا للغاية، وعلى عكس السلوك المعتاد من سولومون، الذي كان بشكل عام شديد التأدب. كنت في حيرة كبيرة. ولكن، بما أنني كنت مضغوطًا إلى حدٍّ ما من حيث الوقتُ، دخلت المتجر، ووجدت طردي وأخذته وانطلقت بعد تبادل بضع كلمات سريعة مع بائع الكتب.

وحيث إنني كنت مضطرًّا إلى المرور على مكتب محامٍ آخر، انتهزت الفرصة وذهبت مسرعًا إلى مكتبي لكي أترك الطرد هناك؛ وبما أن الكتب كانت ذات قيمة ولم تكن ملكي في الوقت الحالي، فقد وضعتها في الجزء العلوي من مكتبي، ووفقًا لعادتي الثابتة، أغلقت الباب بالمفتاح. ثم ذهبت لمتابعة شئوني.

ذهبت من مكتب صديقي إلى محكمة الاستئناف، حيث كنت أترافع في قضية هناك في ذلك اليوم. ثم تناولت الغداء مع مستشار الملكة الذي كنت على موعد معه، وعندما رُفِعت المحكمة، ذهبت معه إلى المنزل لتناول العشاء والتحدث في القضية.

بقيت معه لما بعد الساعة الحادية عشرة. وعندما خرجت من منزله في بيبر بيلدنجز، رأيت ثلاثة أشخاص — رجلَين وامرأةً — يتجولون ببطء حول مبنى كراون أوفيس رو، وينظرون حولهم كما لو كانوا يُشاهدون المعالم السياحية. ويبدو أن أحد الرجلَين، والذي كان يحمل حقيبة آلة كمان، كان يتصرف كرجل استعراض، وعندما اقتربت منهم، ميزت أنه صديق لي، فهو طالب قانون يُدعى ليلاند. كنت سأُحييه بلفتةٍ من القبعة وأواصل طريقي، لكنه دعاني للتوقف.

«مرحبًا يا ميتشل، هل يُمكنك أن تُخبرنا أين عاش لامب مع أخته؟ ألم يكن مبنى كراون أوفيس رو؟»

«لا، لقد وُلِد في مبنى كراون أوفيس رو، لكن المقر الذي عاش فيه هو وماري لامب كان في مبنى ميتر كورت بيلدنجز.»

قال ليلاند، مخاطبًا السيدة: «إذن، عليك أن تأتي لترى المكان في وضح النهار. فالبوابة مغلقة الآن. يجب أن نجعل السيد ميتشل يُرينا المكان العتيق يومًا ما؛ إنه يعرف كل حجر فيه والذين عاشوا في كل منزل منذ زمن فرسان الهيكل وما بعده. لن تُمانع يا ميتشل، أليس كذلك؟ إن الآنسة بونينجتون شغوفة بشأن المجمعات التاريخية.»

قلت: «يُسعدني ذلك.»

قالت الآنسة بونينجتون: «إنه مكان عتيق ومميز، به طمأنينة وروحانية. كم أحبُّ أن أعيش هنا! لكني أعتقد أنه لا تُوجد حواء في هذه الجنة.»

أجبت: «بالفعل؛ إنها مخصصة لآدم والثعبان؛ وخاصة الثعبان.»

ضحكت الآنسة بونينجتون، وكانت ضحكتها كأنغام الموسيقى التي تُبهج النفس. وفي الواقع، لقد أثارت إعجابي كسيدة شابة فاتنة للغاية؛ ذات وجه جميل وحديث رقيق، على الرغم من اعتدادها بنفسها.

ومِن ثَم قلت وأنا أُلقي نظرة سريعة على حقيبة الآلة الموسيقية في يده: «لم أكن أعلم أنك تعزف الكمان يا ليلاند.»

أجابني: «أنا لا أفعل، إنها تخص الآنسة بونينجتون. أنا أعزف على آلة التشيلو، والسيد بونينجتون يعزف مقطوعة لباخ، ولقد عقدنا اجتماعًا صغيرًا في منزلي.»

وهكذا تجاذبنا أطراف الحديث بينما كنا نسير بهدوء في الممشى غير الممهَّد. ويبدو أن تعييني دليلًا سياحيًّا مستقبليًّا كان بمثابة مقدمة غير رسمية، وعندما وصلنا إلى زاوية مبنى فيج تري كورت، توقفنا قليلًا لنتحدث معًا لبعض الوقت قبل أن ننصرف.

قالت الآنسة بونينجتون فجأة: «يا له من رجل عجوز استثنائي! إنه ينظر إلينا بفضول.»

فاستدرنا جميعًا إلى حيث تنظر، لكن الرجل العجوز كان قد مر وابتعد في ظلمة الطريق الضيق ولم نرَ منه سوى ظل ضخم.

قال ليلاند: «إنه ضخم الحجم؛ يبدو مثل سلحفاة تمشي منتصبة.»

قالت الآنسة بونينجتون: «نعم، لكن هل رأيت كيف كان يرتدي ملابس غريبة؟ لقد بدا كأنه يرتدي قبعة مرفوعة الحواف وجواربَ حماية مثل أسقف. هل من الممكن أنه قاضٍ، هل تعتقد ذلك؟»

ضحكت من فكرة أن أحد قضاة صاحبة الجلالة يخرج مرتديًا قبعة مرفوعة الحواف وجوارب حماية، وفسرت ذلك بلطف بأنه وهم بصري.

قال ليلاند: «حسنًا، ستتمكن من التأكد بنفسك قريبًا. لقد ذهب باتجاه منزلك. وأتوقع أنه جاء ليُقدِّم لك موجزًا.»

قلت: «إذن، يجب ألا أُبقيه منتظرًا. وتذكر، أنه عندما تكون مستعدًّا لجولة تاريخية حول المجمع، فأنا في خدمتك.»

صافحت أصدقائي الجدد وكذلك ليلاند وذهبت إلى المبنى رقم ٢١، فيج تري كورت، في الطابق الثاني حيث تقع شقتي. ثم صعدت السلم الحجري ببطء، ورُحت أخمن من هو الزائر المجهول ذو المظهر الغريب، حتى وصلت على مهلٍ إلى مسكني. لكن لم يكن هناك أحد ينتظرني. من الواضح أن ليلاند قد أخطأ في ملاحظة المدخل؛ لأن شقتي كانت الوحدة السكنية الوحيدة في المبنى.

فتحت بمفتاحي باب الشقة الثقيلَ المصنوع من خشب «البلوط»، ودخلت ثم أغلقته، وكنت على وشك خلع معطفي عندما استولى على انتباهي أمر غريب جدًّا.

كان هناك ضوءٌ في غرفة جلوسي.

كان الأمر غريبًا جدًّا ومزعجًا للغاية. فوقفت في الصالة الصغيرة محدقًا في خط الضوء — حيث الباب كان مواربًا قليلًا — وأنا أتساءل عمَّا إذا كان من الممكن أن يكون لصًّا، على الرغم من أن السطو لم يكن وارد الحدوث عمليًّا في المجمع، وأصغيت السمع باهتمام. لم يكن هناك صوت حركة، أو في الواقع، أي صوت باستثناء صرير خافت مستمر، يُشبه بشكل غريب صريرَ قلم الريشة. فتقدمت على أطراف أصابع قدمَيَّ، وفتحت الباب برفق، ونظرت داخل الغرفة.

وكان ما رأيته مذهلًا إلى حد يصعب وصفه بالكلمات. إذ جلس رجل أظنه غريبًا لا أعرفه على مكتبي المفتوح، وهو يكتب بسرعة بأحد أقلام الريشة التي ما زلت أستخدمها، كمحامٍ محافظ عتيق الطراز. ونظرًا لأن ظهره هو ما يُواجهني، لم أستطع رؤية شيء من ملامحه، باستثناء أنه كان ضخمًا للغاية، وأنه كان يرتدي شعرًا مستعارًا رمادي اللون. وهذه الحقيقة الأخيرة حيَّرتني كثيرا. فليس من المعتاد أن يرتديَ المحامي شعرًا مستعارًا في المنزل عند منتصف الليل، وعلاوة على ذلك، هو لم يكن مرتديًا عباءته. كان أمرًا مثيرًا للاهتمام.

رحت أُراقبه لبعض الوقت في دهشة صامتة، حيث بدا ظله الضخم الخيالي في مواجهة ضوء الشمعة الوحيدة التي أحتفظ بها دائمًا في الشمعدان الفِضِّي العتيق على مكتبي. واستمر يكتب بثبات مع صوت صرير عالٍ من الريشة، وقلب الورقة وأكمل الكتابة في الجانب الآخر، وأخيرًا وقَّع اسمه بزخرفة متقنة، حسبما استنتجت من صوت الصرير المتتابع. ثم وضع القلم في الرف، واستنشق كمية ضئيلة من النشوق.

وفي هذه اللحظة، اعتقدت أنه من المناسب جذب انتباهه، ولهذه الغاية، سعلت برفق، لكنه لم ينتبه. فسعلت مرة أخرى بصوت أعلى قليلًا، لكنه لا زال يبدو غيرَ مدرك لوجودي. ثم فجأة خطر على ذهني احتمال أنني قد دخلت إلى الشقة الخطأ. لا أعرف لماذا فكرت في ذلك، على الرغم من وجود مكتبي الخاص وفوقه الشمعدان الخاص بي، وطرد الكتب موضوع بجوار مرفق الرجل الغريب، وكان هناك كرسيُّ الملكة آن ذو الظهر العالي وقد انسدل عليه ذيل الشعر المستعار الذي يرتديه الرجل. لكن الشك كان قويًّا لدرجة أنني وجدت نفسي بحاجة إلى أن أعود إلى الصالة وأفتح باب الشقة بهدوء كي أُبعد هذا الشك عن نفسي.

لا؛ لم يكن هناك أي خطأ. إذ كان اسمي «السيد جيمس ميتشل» مكتوبًا بوضوح على الباب. وبعد أن تأكدت من ذلك، دخلت مرة أخرى، وأغلقت الباب بصوت عالٍ وسرت عبر الصالة. ولكن الآن وجدت مفاجأة أخرى في انتظاري.

كانت الغرفة مظلمة.

توقفت قليلًا وانتظرت خروج الزائر منها. لكنه لم يفعل؛ ولم يكن هناك صوت لأي حركة تأتي من الداخل. فأشعلت عود ثقاب بعصبية ودخلت مرة أخرى. وبينما كنت أنظر داخل الغرفة أطلقت شهقة ذهول.

كانت الغرفة خالية.

وقفت لبضع ثوانٍ فاغرًا فمي ومحدقًا في الفراغ المظلم حتى أحرق عودُ الثقاب إصبعي؛ فألقيته وأشعلت آخر بسرعة شديدة؛ حيث خطرت في ذهني فجأة فكرة أن هذا الغريب الثقيل ربما يكون مجنونًا، وربما كان في هذه اللحظة مختبئًا تحت المنضدة. ومِن ثَم أشعلت مصباحًا بسرعة كبيرة وتراجعت نحو باب الغرفة. لكن بعد تفحُّص المكان تبينت أنه لا يُوجَد أحد يختبئ. كانت الغرفة خالية بلا شك. ومع ذلك لم يكن هناك مخرج إلا من الباب الذي دخلت منه. كان الأمر غير مفهوم ولا يُصدَّق. حيث لم تكن الغرفة خالية فحسب، ولكن لم يكن هناك ما يُشير إلى أن أحدًا قد دخلها. كان المكتب مغلقًا، وعندما اقتربت منه جرَّبت فتحه، فوجدته مغلقًا بالمفتاح كما تركته قبل أن أُغادر إلى المحكمة.

وغنيٌّ عن القول أنني قد فتشت «الشقة» بأكملها. حيث أضأت مصابيح الغاز في الصالة وغرفة النوم والمكتب والمطبخ الصغير. ونظرت تحت السرير، وفي دولاب الملابس الذي يصعب أن يُخفي طفلًا، ناهيك عن ذلك العملاق شبيه ليفياثان الذي تلاشى بشكل مذهل. وعندما تأكدت بما لا يدع مجالًا للشك أنه لا يوجد أحد في الشقة سواي، عُدت إلى غرفة الجلوس وأخذت أُحدق في المكتب بانزعاج. بالطبع كان من الممكن أن يكون هناك تفسير واحد فقط. وهو أن الرجل الضخم ما هو إلا وهم من نسج خيالي. وأنه لم يكن هناك أي شخص في المكان على الإطلاق.

كان هذا تفسيرًا وجيهًا للغاية، لكنه لم يكن مرضيًا لي بشكل خاص. فالهلوسة أمر محرج. والعقل الذي يتخيل وجود رجل ضخم ليس عقلًا سليمًا. وظرفية الوهم زادت الأمر سوءًا. لأني أستطيع أن أتذكَّر الرجل الضخم تمامًا وهو يجلس بينما ضوء الشمعة ينساب من خلال حافة شعره المستعار؛ وعلى ذكر ذلك الشعر؛ لقد كان غريبًا جدًّا. إذ لم يكن يُشبه شعرًا مستعارًا لمحامٍ على الإطلاق، ولا لقاضٍ، في الواقع لم يكن شعرًا مستعارًا

مصنوعًا من شعر الخيول على الإطلاق، بل كان أكثرَ نعومة وبدا كما لو كان مصنوعًا من شعر بشري حقيقي.

كان التفكير في الموضوع مزعجًا للغاية لدرجة أنني قررتُ استبعاده من ذهني؛ وتحقيقًا لهذه الغاية، شرعت في كتابة خطاب كان عليَّ أن أُرسله إلى محامي إجراءات في الصباح. فجلست على المكتب، وأشعلت الشمعة، وأخذتُ ورقة من درج الأدوات المكتبية وقلمًا من الرف. ومِن ثَم حددت الفقرة الافتتاحية من رسالتي المقترحة، وقبل أن أرفع غطاء دَواة الحبر، جربت سنَّ القلم، كما هي عادتي، على ظفر إبهامي. وعندئذٍ؛ كيف يُمكنني أن أُعبر عن مدى دهشتي عندما ألقيت نظرة خاطفة على ظفري بعد القيام بذلك، إذ رأيت عليه بقعة صغيرة من الحبر الرطب!

لقد صُعِقت. كان هذا، بكل المقاييس، دليلًا ملموسًا؛ وما جعله أكثرَ حسمًا هو أنني، في ذلك الصباح بالذات، وضعت قلمًا جديدًا في الرف وتخلصت من القلم القديم؛ لذلك، فإن هذا القلم، المليء الآن بالحبر الرطب، لم أستخدمه مطلقًا. لقد كان أمرًا يُثير الذهول. فجلست وأمضيت وقتًا طويلًا وأنا أُفكر فيه، وربما كنت لأُفكر فيه لفترة أطول، لكن عندما ألقيت نظرة خاطفة على القلم في يدي، وجدت أنه نظيف تمامًا وغيرُ مستخدم. ولم يكن عليه أيُّ أثر للحبر، لا رطب ولا جاف. بشكل غريزي رفعت ظفر إبهامي ونظرت إليه. فوجدت بقعة الحبر قد تلاشت. أو على الأقل، لم يكن هناك بقعة، وبالطبع لم يحدث أن كانت هناك أيُّ بقعة من الأساس. فالحبر الرطب؛ مثله مثل الرجل الضخم، كان وهمًا. نتاجٌ لحالة من الاضطراب في عقلي.

كان الأمر مزعجًا للغاية، لكن من غير المجدي التفكيرُ فيه والقلق بشأنه. لا شك أن الحالة ستزول، وفي هذه الأثناء كان من الحكمة تجاهلُها والاهتمام بصحتي في هدوء. وهكذا، ركزت تفكيري على رسالتي، وغمست قلمي، وكتبت «سيدي العزيز»، وانخرطت في الكتابة على الفور. تابعت الكتابة بطلاقةِ رجل يلتزم بنقل ما هو موجود بالفعل في ذهنه، وعندما وصلت إلى أسفل الصفحة، قلبتُها، وأنهيت الخطاب بعد سطرَين آخَرين، ووقَّعت باسمي. ثم نهضت وأحضرت دفتر الرسائل من مكبس النسخ.

فتحت الدفتر، وكنت على وشك أخذ الفرشاة من وعاء الماء عندما تصادف أنْ مرَّت عيني على الرسالة التي كتبتُها للتو؛ فصرخت وأنا في قمة الذهول. لأن الاسم الذي وقعته عليها لم يكن اسمي، ولم يكن حتى بخط يدي؛ وإذا كان هناك أي شيء يُمكن أن يجعل الأمر

أكثر إثارة للدهشة، فهو أني قد كتبت اسمًا غريبًا تمامًا بالنسبة إليَّ؛ فاينيس ديسبورو. يا للعجب؛ من هو فاينيس ديسبورو؟ وماذا كان اسمه المزعج يفعل عند خاتمة رسالتي؟

لا مانع لديَّ من الاعتراف بأنني أصبحت الآن منزعجًا للغاية، وأن اليد التي التقطتُ بها الوثيقة الثمينة لم تكن ثابتة على الإطلاق. لقد قُهِرتُ تمامًا لدرجة أنني لم أكن قادرًا على مواجهة المزيد من المفاجآت مثل العثور على أمر آخر في الرسالة على نفس درجة غرابة التوقيع، أو مثل رؤية حبر النسخ الأرجواني يتلاشى أمام عينَي إلى اللون البني الطيفي. لقد استُنفِدَت قدرتي على الذهول. ومع ذلك، فكَّرت بجدية، أنه لا يُمكن أن يكون هناك خرقٌ للسرية إذا قرأت رسالتي الخاصة، وبناءً على ذلك، عُدت للجلوس وبدأت في تمرير عيني، بفضول يخلو من المتعة، على الكتابة الباهتة للتأكد مما كتبت. فقرأت الرسالة باهتمام شديد؛ وهذا هو ما ورد فيها بذاكرة واضحة. وهو على النحو التالي:

١٦، فيلد كورت، جرايز إن
١١ أبريل ١٧٨٥

سيدتي، لقد تلقيتُ بسرور تام رسالتك الموقرة بتاريخ ٢٠ من الشهر المنصرم. فضلًا اسمحي لي باحترام أن أعترف بتباسطك اللطيف في أسلوبك تجاه الشخص الذي تسبب في الكثير من الأذى والذي يُقدم تعويضًا الآن بعد أن أوشك على الموت. كان من الأفضل، حسبما أتصور، بما أن وصيَّك يجب ألا يكون على معرفة بلقائنا مطلقًا، ألا يراك أحدٌ تدخلين إلى مكتبي. وقد أخبرتِني بأنك ستصلين إلى لندن مساءَ يوم ٢٢ من الشهر الحالي، وستُصبحين بعيدة عن رقابة وصيك في عصر اليوم التالي. ولما كان الأمر كذلك، أود أن أُعطيَكِ الإرشادات التالية: سيري من مكان إقامتك في ساراسين حتى فليت ستريت على الجانب الجنوبي، ومِن ثَم عبر قوس تيمبل بار المتاخم لبنك السيد تشايلد. تحت هذا القوس، سأنتظرك عند الساعة الثالثة في الموعد المحدد، وبما أن القوس لا تحتوي إلا على ممر مضيق، وحيث إني (بسبب طبيعة جسدي ومرض الاستسقاء الذي ابتلاني به الله) سأشغل الجزء الأكبر منه فستُضطَرين إلى المرور بالقرب مني جدًّا بحيث يُمكنني بسهولة وضعُ الكتاب بين يدَيكِ دون أن يُلاحظ أحد.

احرصي على إخفاء الكتاب بعناية (وهو كتيب صغير)، وعندما تُصبحين وحدك تمامًا وغير مراقبة، استخدمي سكينًا رفيعة حادة حول الخط الذي حددته داخل الغلاف حتى تقطعي البطانة بشكل جيد.

لن أقول المزيد، باستثناء أنني قد تركت ممتلكاتي بالكامل عن طريق الوصية لأخيك جوناثان، وإنني أتوسل إليك أن تُخبريني عندما تُنفذين إرشاداتي وتحتفظي بالكتاب بأمان في عهدتك.

أنا يا سيدتي
خادمك المتواضع المطيع
فاينيس ديسبورو
إلى السيدة سوزان بييربوينت

وضعتُ الرسالة جانبًا، وأخذت أخطو ذهابًا وإيابًا في الغرفة. هنا، على الأقل لم يكن هناك وهم. يبدو أن التفاصيل الظرفية وأسماء الأشخاص، المجهولة تمامًا بالنسبة إليَّ، تجعل الوهم غير وارد تمامًا. وكان أكثر ما أزعجني هو الحبر، فالتغيير الذي حدث فيه ليس له أي تفسير معقول. والآن بعد أن فكرت في الأمر، بدا أن الورقة نفسها خضعَت لنوعٍ من التحول؛ تحوُّل قد لاحظته دون وعي وتجاوزتُه في الوقت الحالي. وكي أتأكد من أن هذا هو الحال بالفعل، ذهبت إلى المكتب وتناولت الرسالة مرة أخرى. ثم وقفت كصورة محفورة بينما الورقة في يدي وعيني مثبتة على الكلمات الافتتاحية:

عزيزي السيد،
بيستيه في جارفي،
١٩، فيج تري كورت، إينر تيمبل، ١٨ مايو ١٩٠١.
بالإشارة إلى محادثتنا في ١٦ من الشهر الحالي …

قلبت الصفحة ونظرت إلى توقيعي «جيمس ميتشل» الذي كان حبره لا يزال رطبًا وأرجوانيًّا. لذا كانت رسالة فاينيس ديسبورو، مثل بقعة الحبر والرجل الضخم، مجرد وهم.

لكن يا له من وهم! حتى عندما ألقيت نظرة خاطفة على رسالتي الخاصة، التي صِيغَت في عبارات اليوم الخاليةِ من السمات، فإن الفترات الأكثر اكتمالًا من الرسالة العتيقة كانت حاضرة ومثالية الكلمات في ذاكرتي. كان هناك شيء خارج عن المألوف هنا. فإما أن جهةً خارجية قد تمكَّنَت بطريقة ما من الدخول إلى عقلي، أو أنني (على حد تعبير السيد سولومون) «مضطرب في رأسي». ولم يكن أيٌّ من البدائل خيارًا مقبولًا للتفكير فيه.

وضعت رسالتي في ظرف، وكتبتُ عليه العنوان ولكني تركته مفتوحًا حتى أتمكَّن من فحص الرسالة في الصباح والتأكد من أنها لم تمرَّ بأي تحولات جديدة. ثم ذهبتُ إلى الفراش لأستلقيَ مستيقظًا لمدة ساعة كاملة أُفكر في فاينيس ديسبورو والسيدة سوزان بييربوينت وأتساءل عما إذا كان هناك وجودٌ لهؤلاء الأشخاص أم أنهم مجرد نتاج لعقل مضطرب.

كان من بين معارفي في المجمع في هذه الفترة، كما ذكرتُ سابقًا، طالب قانون يُدعى فرانك ليلاند. وكنت أُقدره كثيرًا. في المقام الأول، كان شابًّا رائعًا وسيمًا، وأنا متحيز للأشخاص ذوي المظهر الحسن. ثم إنه كان يتمتع بصحة ومعنويات مرتفعة، وهي صفات أُقدرها أيضًا؛ لأن الرجل السعيد يُحسِن لبني جنسه. فمثلما يُمكن للمرء أن يطلب المعرفة من الحكماء، كذلك، فإن التواصل مع السعداء، يرفع الروح المعنوية للإنسان؛ وهي حقيقة تستحق أن يأخذها بعين الاعتبار من هم في منتصف العمر.

في ليلة الأحد التالية، قابلت ليلاند، وهو يخرج مع المصلين الآخرين من كنيسة المجمع، ويؤسفني أن أقول إنه كان يتثاءب بشكل غير طبيعي.

فسألته: «لماذا تذهب إلى الكنيسة إذا كان ذلك يجعلك تتثاءب؟»

أجاب: «درس مجاني في الخطابة؛ إن القس الكفء هو أفضلُ مَن يُعلمك الخطابة. فالممثل لا يصلح نموذجًا؛ إذ إنه مبالغ للغاية. والمحامي مُمل للغاية. لكن القس هو الوسيلة المناسبة؛ فأسلوبه راقٍ لا تُعيقه المادة. والآن هل ستذهب إلى المنزل؟»

«نعم، كنت ذاهبًا إلى المنزل؛ إلى فيج تري كورت، على وجه الدقة.»

فدعاه ليلاند قائلًا: «لماذا لا تأتي وتُدخن معي سيجارًا؟»

«لِمَ لا؟ عمومًا لم أكن أتوق إلى العزلة التي من المحتمل أن تُزعجها ذكريات الراحل (أو الذي لم يرحل أبدًا) فاينيس ديسبورو وشكوك الخلل العقلي.»

قال ليلاند: «لقد اشتريت للتوِّ كتاب «ببيس» للمؤلف ويتلي.» وبهذا حُسِم الأمر. بعد دقيقة، كنا في شقته الفخمة في تانفيلد كورت مع كومة من كتبه المشتراة حديثًا على المنضدة.

ومِن ثَم فحصنا تلك الكنوز واحدًا تلو الآخر، وانغمسنا فيها وأخذنا عيناتٍ من المقاطع، وانتقدنا الرسوم التوضيحية وقيَّمنا الأغلفة، حتى وصلنا في أسفل الكومة إلى كتاب «الملكية العقارية» للمؤلف جوديف.

فقلت: «أنا سعيد لأنك لا تُهمل دراساتك.» بينما كنت منهمكًا في مطالعة المجلد المعقد، لكنني لم أُحاول أخْذَ عينات من محتوياته.

قال ليلاند: «أوه، إنه ليس الحماس المهني، لكن لديَّ مسألة شخصية ذاتُ صلة بقانون الملكية في الوقت الحاليِّ. لهذا السبب اشتريت كتاب المؤلف جوديف؛ ولكن الآن بما أنك هنا، فلماذا لا آخذ رأي محامٍ مخضرم في حلِّ المسألة بدلًا من عناء استخراجه من الكتاب بنفسي.»

«وأنا طوع بَنانك؛ فهذا على الأرجح سيُوفر الوقت. ناولني علبة التبغ واعرض عليَّ مسألتك.»

ناولَني العلبة وصندوق السيجار. ثم قال: «السؤال هو: ما هو موقف الرجل الذي يُهدد بحرمان ابنه الوحيد من الميراث؟»

فأجبته: «حسنًا، من واقع تَجرِبتي المحدودة كهاوٍ للمسرح، يكون موقفه عادةً عند منتصف سجادة الموقد، فارجًا ساقَيه، ويداه تحت ذيل معطفه.»

ابتسم ليلاند بمرح. قال: «أعني موقفه القانوني؛ أيُمكنه فعل ذلك؟»

«هذا سؤال غامض للغاية يطرحه محامٍ مبتدئ. ويعتمد الردُّ على الطريقة التي يحوز بها الممتلكات. فإذا حاز الرجل ممتلكاته حيازةً مطلقة، فإنه يستطيع التصرف فيها بشكل مطلق؛ وإذا كان يحوزها وفق شروط، فلن يستطيع التصرف فيها إلا وفق تلك الشروط. ولكن لماذا تُريد أن تعرف؟»

«لأن والدي المحترم أعرب عن نيته في فعل ذلك بي، إذا أقدمت على أمرٍ هو لا يُوافق عليه ...»

«حقًّا! هل من غير اللائق أن أسأل ما هو ذلك الأمر؟»

«أوه، الشيء المعتاد. هو غير موافق على مشروع زواجي.»

«أتقصد أن والدك غير موافق على الفتاة؟»

«لا، فهو لم يرَها من قبل. لكنه يعترض على والدها. سأُوضح لك الأمر؛ إن والدي رجل ريفي قديم الطراز وهو شديد الفخر بعائلته لدرجة الجنون. الله أعلم لماذا. لكن يبدو أنه كانت هناك أجيالٌ لا حصر لها من الرجال الريفيين الذين يحملون اسم عائلتنا، ولسبب ما، فهو فخور بهذه الحقيقة، ويعتبرنا مِلحَ الأرض. أما والد الفتاة فهو موسيقيٌّ، يعزف على البيانو ويُعلم الموسيقى. كما أنه ليس مليونيرًا. لكن البيانو هو المشكلة الحقيقية؛ فوالدي يقول إنه لن يقبل بزواج ابنه من ابنة مشغل بيانولا ملعون. ها قد أوضحت لك المشكلة.»

قلت له: «ليس بالدقة الكافية.»

«إن والدي رجل عجوز وقح عندما ينزعج، لكن ما يقوله محض هراء محيِّر، فالموسيقيُّ مهنته نبيلة، وبالنسبة إلى البيانو، فهو سيد الآلات الموسيقية مثلما أن زيوس هو

سيد سادة الأوليمب. فكِّر في كل الرجال العظماء الذين عزفوا على البيانو؛ هناك موتسارت وباخ وهاندل بنفسه ...»

قلتُ مقاطعًا: «وجوني مورجان.» لكن مع ابتسامة ليلاند الباهتة، استنتجتُ أنه لم يسمع الأغنية القديمة من قبل، ولذلك فاته المغزى من المزحة.

واختتم ليلاند حديثه قائلًا: «حسنًا، إن النتيجة النهائية هي أن والدي يرفض منحي موافقته. ويقول إنه إذا تزوجت من ابنة الموسيقي؛ يُمكنني أن أتدرَّب عند والدها، وسوف يُورثني شلنًا إسترلينيًّا واحدًا، وثمن شراء قرد.»

فسألته: «لماذا قرد؟»

«أوه، يبدو أنه يظن أن القرد هو مساعد لا غنى عنه لعازف البيانو. إنه ليس موسيقيًّا، كما تعلم.»

«ألا تعتقد أنه سوف يتنازل عن عناده إذا حاولتَ إقناعه بحكمة؟»

«لا، لا أعتقد. إنه عنيد مثل البغل. والأسوأ من ذلك أنه وضعني في مأزق حاليًّا؛ حيث شرح نواياه في رسالة إلى والد زوجتي المفترضة. والنتيجة هي أنني في الوقت الحاليِّ خاطبٌ مرفوض.»

«ولكن إذا رفضك والدها بالفعل، فإن تحديد موقفك القانوني لا طائل من ورائه.»

قال ليلاند: «أوه، كلا بالطبع، يا إلهي! أتظن أنني سأرضى بهذا الرفض؟ لا أنت مخطئ. أُؤكد لك يا ميتشل، أنني سوف أتزوج كيت بونينجتون.» ورفع ليلاند ذقنه مثلما يفعل والده عندما تظهر عليه علامات العناد.

«لقد استنتجت ذلك من طريقتك عندما قابلتكم في تلك الأمسية؛ ولا يُمكنني التظاهر بعدم تأييد رأيك بعدما رأيت الآنسة بونينجتون. لكنك تقول إن العلاقات بينكما مقطوعة في الوقت الحاضر.»

قال ليلاند: «أوه، لا، ليست كذلك، فما زلنا أصدقاء جيدين تمامًا. فأنا أتلقَّى دروسًا في العزف على البيانو من بابا بونينجتون.»

«هذا لؤمٌ منك. لكن استمر.»

«حسنًا، إن بونينجتون يرغب تمامًا، بشكل عام، في زواجي من ابنته، والآنسة كيت موافقة أيضًا — بشكل عام — لكنَّ كلَيهما يرفض أن يكون سببًا لحرماني من الميراث.»

ومِن ثَم أضفت: «وبالطبع، لا يُمكنك كرجل متزوج أن تُؤسس بيتًا بالاعتماد على شلن إسترليني واحد وسعر القرد.»

«بالضبط. لكن إذا كان والدي لا يستطيع أن يحرمني من الميراث، أعتقد أنه يُمكن ترتيب الأمور؛ إذ يُمكنني، على سبيل المثال، أن أقترض ما يكفي من المال لأبدأ مشروعًا تِجاريًّا. ولهذا السبب أريد معرفة كل المعلومات الممكنة عن سلطات الأب في موضوع الميراث.»

«وهو ما يُعيدنا إلى السؤال الأصلي؛ هل يحوز والدك ممتلكاته حيازةً مطلقة أم مشروطة؟»

قال ليلاند: «لا أعلم مطلقًا، وأفترض أنني يجب أن أُحاول معرفة حقيقة ذلك الأمر. لكن ما أعرفه هو أنه يبدو أن هناك شكًّا قويًّا في وجود مشكلة في سند الملكية.»

«حقًّا! يبدو هذا غيرَ سار، لكنه أيضًا غامض إلى حد ما.»

قال ليلاند: «الأمر غامض للغاية، ولكن من الأفضل أن أُخبرك بما أعرفه عن تلك المشكلة، وهي معلومات قليلة للغاية. ترتبط القصة بأحد أجدادي واسمه أنتوني ليلاند، الذي عاش في زمن جورج الثاني. ويبدو أن أنتوني قد تورَّط في تمرد اليعاقبة، وعندما انتهى ذلك التمرُّد بعد عام ١٧٤٥، هرب إلى خارج البلاد. وكان الرجل الذي احتفظ بممتلكات عائلة ليلاند بعد ذلك مؤيدًا ومخلصًا لسلطة البرلمان، لذلك، أفترض أن أنتوني اعتقد أنه إذا ظل بعيدًا عن الأنظار، فسوف يتم نسيان حماقته بحلول الوقت الذي كان من المقرَّر فيه أن يرث الممتلكات. ولكن، في واقع الأمر، لم يَرِثها مطلقًا. لقد عاش في لوفان ببلجيكا، وتُوفي هناك قبل أن يَحين موعد استحقاقه للميراث. ويبدو أنه في لوفان، قد أنشأ مشروعًا تِجاريًّا بالشَّراكة مع رجل يُدعى بونينجتون.»

صحت قائلًا: «بونينجتون!»

ضحك ليلاند وهو يقول: «نعم بونينجتون. هذا هو جوهر المزحة، وهذا ما أعتقد أنه يجعل والدي يشعر بالمرارة. وستعرف لماذا، حالًا.

حسنًا، في وقت وفاته، كان أنتوني أرملًا ولديه طفلان؛ ابنة تُدعَى سوزان، تبلغ من العمر عشر سنوات، وتعيش في إنجلترا مع خالتها، وابنٌ يُدعَى جوناثان، وُلِد في لوفان، يبلغ من العمر عامَين فقط. وقد جعل بونينجتون وصيًّا على الابن وكذلك الابنة؛ ولكن يبدو أنه قام أيضًا ببعض الترتيبات مع محامي الأسرة؛ لأن هذا الرجل — الذي نسيت اسمه — زار لوفان لبضعة أيام قبل وفاة أنتوني، وأجرى مقابلة معه، ومن المعروف أيضًا أن ذلك المحاميَ قد عمل لاحقًا وكيلًا لابن أنتوني.

وبعد ستة أشهر من وفاة أنتوني، سُرِقت الممتلكات، وتمكَّن بونينجتون، بمساعدة المحامي، من وضع جوناثان ليلاند تحت سيطرته، وإدارة الشئون التي آلت إليه (إلى بونينجتون) أثناء طفولة جوناثان. حسنًا، كان كل شيء يسير بسلاسة حتى تلك اللحظة. فقد وُضِع جوناثان تحت السيطرة على النحو الواجب، وبمرور الوقت دخل الطفل في مرحلة الرجولة أو، على الأقل، إلى مرحلة البلوغ، لأنه لم يكن أكثرَ من نصف رجل.»

فسألته: «ماذا تقصد بذلك؟»

«حسنًا، في المقام الأول؛ لأنه كان قزَمًا، وثانيًا، توقفت ذراعه اليسرى وساقه عن النمو على ما يبدو منذ طفولته. هناك لوحة له في المنزل تُظهر عفريتًا صغيرًا بشعًا بوجه غير متناسب وعكاز كبير. يبدو أنه كان شخصًا ضئيلًا مزعجًا، ومرعبًا للحي كله على نحو دائم، وكانت لديه عادةٌ ممتعة لإيقاظ الخدم بطرف عكازه. لقد كان شيطانًا صغيرًا خبيثًا وسيِّئَ الطباع اعتاد أن يضرب زوجته ويُهاجم أخته، وعمومًا عاث فسادًا في المنزل. وكان الشخص الوحيد الذي يُمكن أن يتعامل معه هو بونينجتون؛ لكن يبدو أن والتر ابن بونينجتون، الذي كان في نفس عمره، كان يُثير حقد جوناثان؛ ولذلك عندما بلغ سن الرشد، طرد والتر سيئَ الحظ ليُكافح ويعول نفسه.»

فسألته: «كيف عرَفت كل هذا؟»

«لقد احتفظَت شقيقته سوزان بنوع من المذكرات والسجلات العائلية، وهي موجودة لدينا في المنزل مع عدد من الرسائل القديمة. لقد تزوجَت في سنٍّ صغيرة، لكنها أصبحت أرملة بعد عامَين، وعادت لتعيش في كنف أخيها. ويبدو أنها مرَّت بوقت مبهج.»

سألت: «ولكن ماذا عن مشكلة سند الملكية؟»

«سأُخبرك حالًا. يبدو أنه في يوم من الأيام، تلقت السيدة سوزان خطابًا غريبًا جدًّا من المحامي — لا أستطيع تذكر اسمه، لكن لا يهم — يُوضح لها فيه أن هناك بعضَ الخداع حول سند الملكية، وأنه هو وبونينجتون قلقان بشأن إمكانية حدوث احتيال، أيًّا كان نوعه. لقد رأيت الرسالة، ووجدتها غامضة؛ لكنه استمر في القول إنه أودعَ هذه الحقائق في مكان آمن داخل كتاب للمؤلف هوراس أو فيرجيل أو كاتب لاتيني آخر — نسيت اسمه — في حوزته، وأنه يُريد تسليم الكتاب إليها لاستخدامه كدليل بعد وفاته. وتم تظهير هذه الرسالة من قبل السيدة سوزان كما يلي: أنها كتبت إلى السيد — أيًّا كان اسمه — تقترح المجيء إلى لندن والاتصال به، لكنه لم يرد أبدًا، أو أنه قد رد عليها، وهذا ما أعتقده، وتم

اعتراض رسالته من قبل الوصي (كما أُسميه) السيد بونينجتون. وهكذا ينتهي الأمر. إذن هناك شيء غريب، لكننا لا نعرف ما هو. نحن نعلم فقط أن بونينجتون كان متورطًا فيه. وهذا ما يجعل والدي غاضبًا للغاية. إنه يُعاني بشكل مخيف من وهم أن سند ملكيته مشكوك في صحته، كما أنه يكره اسم بونينجتون بشدة.»

فقلت: «لكن، أعتقد أن هذا ليس سوى احتمال تشابه في الاسم؟»

قال ليلاند: «أتظن ذلك؟ يا إلهي! بالقطع أنت مخطئ؛ لأن والد كيت هو الحفيد المباشر لوالتر الذي تعرض لسوء المعاملة كثيرًا. نحن نعلم ذلك؛ لأن العائلات ظلت دائمًا على اتصال بشكل أو بآخر. إن العداوة هي هواية والدي الشخصية.»

قلت بعد تفكير عميق: «حسنًا يا ليلاند، يبدو لي أن عليك تقليدَ حكمة الراحلة سوزان، فلتنحنِ للريح ولا تقف أمامها متيبسًا. إنك بالتأكيد لا تُريد أن تُثير أمر سند ملكية أملاكك.»

ظهر عنادٌ واضح على وجه ليلاند ورثه عن أجداده، بينما يقول: «أنا متأكد أنك على حق، ولكن على الرغم من ذلك، أود أن أعرف ما الذي قاله ذلك المحامي العتيق. وبالمناسبة، ماذا تظن أنه كان يقصد بقوله أن «يُودِع الحقائق» في كتاب مطبوع؟»

«من يدري؟ ربما يكون قد كتب بيانًا على حاشية الكتاب، أو، على الأرجح، أرفقَ ترميزًا مرتبطًا بالنص. ومع ذلك، كما قلت لك، من الأفضل تركُ سند الملكية على حاله وتجرِبةُ أساليبَ أكثر إقناعًا مع والدك. على سبيل المثال؛ رتِّب مقابلة بينه وبين الآنسة بونينجتون. من المحتمل جدًّا أن يقتنع بأنها الفتاة المناسبة لك.»

ابتهج وجه ليلاند عند تقديري للفتاة التي اختارها، وصرف النظر عن المسألة القانونية، ومِن ثَم قال: «بالحديث عن كيت، لقد وعدَتنا باصطحابها هي ووالدها في جولة تعريفية حول المجمع. متى يُمكنني أن أدعوهما؟ ولكن، كما تعلم، فإن يوم الأحد ليس مناسبًا لعازف البيانو فهو يعزف في الكنيسة.»

فكرت في ارتباطاتي خلال هذا الأسبوع، ثم أجبت: «الأربعاء سيكون مناسبًا لي. دعهما يأتيا مبكرًا، وبعد الانتهاء من الجولة وتتبُّع الروابط التاريخية منذ آدم إلى الآن، سأدعوكم جميعًا لتناول الشاي في منزلي. ما رأيك في ذلك؟»

اعتقد ليلاند أن ذلك الترتيب مناسب للغاية، ووافق عليه، شريطة أن يُوافق أصدقاؤه.

هل أنا بحاجةٍ إلى التردُّد في الاعتراف بأن شقتي في فيج تري كورت قد امتلأت، في هذا الوقت، بحيوية غير معتادة؟ أو في توضيح كيف أنَّ الحقيبة الصغيرة التي أحضرتها إلى المنزل يوم الأربعاء كانت ممتلئة بالمخبوزات؟ أو كيف هُرِّبَت كعكة مثلجة إلى المجمع في

صندوق شعر مستعار؟ أو كيف صُقِل إبريق الشاي الفِضي القديم سرًّا بمنديل من الحرير؛ وخرجت «تحف» متنوعة من الخزانة لتزيين مائدة الشاي؟ ولِمَ لا؟ فأنا لست سوى عازب عتيق الطراز تُصبح زيارات الفتيات الحسناوات لعرينه كزيارات الملائكة. والملائكة لا بد أن يُستقبَلوا استقبالًا يليق بهم. ويجب أن أقول إن الجميلة كيت بونينجتون، قد نالت إعجابي على الفور، وإن قصة صديقي ليلاند الرومانسية قد أثارت تعاطفي الحار. وربما كانت هذه القصة الرومانسية ستكون قصتي لولا ... ومع ذلك، تلك مسألة أخرى.

التقينا بالزوار عند المدخل الرئيسي واصطحبناهم عبر مباني المجمع العتيقة. حيث تحدثنا عن حروب الورود وفرسان الهيكل والليلة الثانية عشرة. كما ناقشنا ظلال جونسون وجولد سميث وبورك وشيريدان. وفي ميتر كورت بيلدنجز، رأينا تشارلز المسكين وماري لامب يذهبان وهما يبكيان، يدًا بيد، إلى مستشفى المجانين، وانتظرناهما «يأتيان مرة أخرى بفرح». كما ألقينا الفُتات للعصافير بجوار النافورة وتحدثنا عن مارتن تشزلويت وروث بينش (وهنا اعتقدت أن كيت الجميلة تبدو وكأنها روحٌ شاعرية)، وتفحَّصنا الكنيسة ولسعادة السيد بونينجتون استمعنا إلى عزف الأب سميث على البيانو. كان كل شيء ممتع للغاية. فالسماء مشمسة، وأشجار الدلب ذهبية، وعندما اتجهنا نحو فيج تري كورت، كانت الروح والجاذبية ممتنَّين للغاية.

تحت تأثير الشاي، استعَدْنا الذكريات التاريخية والأدبية. وبعد ذلك، تفقَّد ليلاند، الذي كان من عشاق الكتب، رفوف كتبي، وهو يحمل كوب الشاي في يده، ليتصفَّح كتبي بيد واحدة ويُخيفني على سلامة طقم بورسلين ويدجوود الثمين. ثم استدار فجأة، وكاد يُوقع الكوب.

وقال: «لقد رأيت سولومون هذا الصباح، بائع الكتب، أعني، ليس الرجل الآخر. وقد سألني عنك. وقال إنه أرسل لك بعض الكتب لتراها.»

صحتُ قائلًا: «ليُباركْني الرب! نعم بالفعل، ولكني لم أفتح الطرد مطلقًا.»

قال ليلاند: «دعنا نفتحه الآن ونرى محتوياته.»

أخرجت الطرد، وقطعت الخيط، وعرَضت الكنوز: «الكتاب المقدس الترياق»، دراسة قديمة عن الخيمياء والسحر، واثنَين من الأعمال التاريخية الحديثة، وكتابًا ممتلئًا ومغلفًا بورق برشمان فاخر من القطع الصغير.

صاحت الآنسة بونينجتون وهي تنقضُّ على الكتاب، لتسليتنا الواضحة: «يا له من كتاب صغير حبيب! إنه أنيق جدًّا وصغير ولطيف. أوه، لماذا لا يستطيع الناس طباعة وتغليف كتب كهذه الآن؟»

مر سؤالها دون إجابة؛ لأن ليلاند كان بالفعل قد تعمق في «الكتاب المقدس الترياق» — وهو كتاب لم يكن لديَّ بالتأكيد نيةٌ للاحتفاظ به — وشرح خصائصه للسيد بونينجتون. وبعد الكتاب المقدس استعرضنا كتاب السحر الذي ناقشنا فيه المعتقدات الغريبة لأجدادنا. وفجأة نظر السيد بالكتاب الصغير بكلتا يدَيها، وقد وضعته على حجرها. بينما عيناها مفتوحتان على بونينجتون إلى ابنته وسأل: «ما الأمر يا كيت؟»

وعندئذٍ، نظرت إليها من فوق الكتاب. كانت الآنسة بونينجتون تجلس ثابتة ومتصلبة وهي تُمسك مصراعَيهما ومثبتتان، على ما يبدو، على الحائط المقابل.

كرَّر والدها السؤال: «ما الأمر يا كيت؟» لكنها ظلت غير واعية للسؤال، فانحنى إلى الأمام ولمس يدها برفق؛ وعندئذٍ انتفضت بعنف وحدَّقت حولها مثل النائم الذي أُوقِظ فجأة.

وصاحت: «يا له من شيء غير عادي!»

فسألها السيد بونينجتون: «ما هو الشيء غير العادي يا عزيزتي؟»

فأجابت متسائلة: «هل من الممكن أن تحلم دون أن تنام؟»

أجاب والدها: «إذا كنت تحلمين ولم تنامي، فلا بد أن الأمر ممكن؛ أليس كذلك؟»

قالت: «إنه أمر مذهل، لا بد أنه كان حلمًا، ومع ذلك بدا حقيقيًّا جدًّا، وحيويًّا للغاية.»

«ماذا كان يا عزيزتي؟ ماذا كان؟ ها؟ ها؟» وبنفاد صبر انحنى السيد بونينجتون إلى الأمام ونقر على أصابعها.

«تحلَّ بالصبر وسأُخبرك. لقد بدأ الحلم فجأة. فاختفى هذا المكان، ووجدت نفسي في شارع؛ شارع مزدحم مليء بالناس في ثياب غريبة مثل تلك التي نراها في النقوش القديمة. ولم يكن هناك رصيف؛ فقط صفٌّ من الأعمدة بين الطريق وممر المشاة الذي كنت أسير عليه. كانت المتاجرُ بها نوافذ صغيرة مضحكة مثل المحلات في قرية ريفية، وكان لكل منها لافتةٌ معلقةٌ فوق النافذة أو الباب. ومشيت بسرعة، بينما لديَّ شعورٌ بالذَّهاب إلى مكانٍ ما لغرض محدَّد، وعلى الفور، عندما ظهرت بوابة مقوَّسة، بدا أنني كنت أتوقع ذلك. تلك البوابة — يبدو أنني، حتى الآن، أعرفها جيدًا؛ ربما لأني قد رأيتها في صورة ما — كان لها ثلاثُ أقواس، واحدة كبيرة فوق الطريق، واثنتان صغيرتان للمشاة، ونافذة كبيرة فوق القوس الوسطى. وعندما اقتربت من البوابة للمرور من خلالها رأيت رجلًا يقف تحت القوس اليُسرى كما لو كان ينتظر شخصًا ما. كان عجوزًا ضخمًا شاحبًا جدًّا والآن بعد

أن بدأت أُفكر فيه، فإنه يُذكرني بذلك الرجل العجوز الذي مرَّ بنا تلك الليلة في فيج تري كورت. مشيت نحوه بشعور غريب للغاية بأنني أتوقع أن أجده هناك، وعندما مررت من خلال القوس، اضطُرِرت إلى الاقتراب منه بشدة لأنه شغَل جزءًا كبيرًا من مساحة الممر، ثم وضع شيئًا في يدي. وأتذكر أنني أخذتُ ما أعطاني كما لو كنت أتوقعه؛ وبعد ذلك أيقظتَني أنت.»

سألها السيد بونينجتون: «ألا يُمكنك أن تتذكري ما أعطاكِ إياه؟»

«لديَّ نوع من الإحساس أنه كان كتابًا؛ لكنني أظن أن ذلك فقط لأنني كنتُ أحمل هذا الكتاب عندما استيقظت.» ومن ثَم وضعَتْه على المنضدة.

وبينما كانت كيت بونينجتون تروي قصتها، استمعتُ بدهشة متزايدة، وعندما انتهت، وقعتُ في حلم يقظة حيث بدت لي الاستجوابات المتلهفة لوالدها وفرانك ليلاند كأصوات تنبعث من مسافة لا نهائية. واستيقظت فقط عندما أخذ ليلاند الكتاب الصغير بلا مبالاة من فوق المنضدة، ونظر فيه وهو يُخاطبني.

«تذكر يا ميتشل، لقد أخبرتك عن كتاب نقل فيه هذا المحامي العتيق حقائقَ معينة. كنت أظن أنه كتاب للمؤلف هوراس أو فيرجيل. لكنه لم يكن كذلك، لقد كان للمؤلف سالوست. هذا الكتيب ذكرني.»

ومِن ثَم وجه غلاف الكتاب الصغير نحوي، فقرأت عنوانه «أوبرا سالوستي».

نظرت إلى الكتاب في خَواءٍ لبضع لحظات. ثم بتوقع متلهف أخذتُه من يده وفتحته. وبطريقة ما، لم يكن الأمر غريبًا على الإطلاق، ولكنه طبيعي تمامًا ومنظم، أن وجدت نفسي أبحث في بطانة الكتاب، وأجد فيها كلامًا مكتوبًا بالحبر البني الباهت بخط يدٍ أعرفه، «فاينيس ديسبورو، ١٧٥٦.»

أقول إن الأمر بدا طبيعيًّا تمامًا، لكن لا بد أني، مع ذلك، دُهِشت حقًّا لأنني أدركت في هذه اللحظة أن أصدقائي الثلاثة كانوا ينظرون إليَّ بفضول غير مألوف.

ثم سألني ليلاند: «ما الأمر يا ميتشل؟ تبدو كما لو كنت قد رأيت شبحًا أيضًا.»

فأجبته: «ربما رأيت بالفعل.» وعُدت إلى فحص الكتاب الصغير الغامض. لم تحمل الورقة في بداية الكتاب أيَّ كتابة أخرى بخلاف الاسم والتاريخ، ولكن عندما نظرت إلى الغلاف الخلفي، أدركتُ في الحال — ومرة أخرى بدا الأمر طبيعيًّا ومعقولًا تمامًا — وجودَ خط رفيع شاحب من الحبر البني حول الهامش، وهو ما اكتشفَته عيني المعتادة على قراءة الكتب العتيقة على الفور على أنه ورقة نهاية زائفة. وبدون كلمة، أخرجتُ مُديتي الصغيرة،

وفتحتها، ووضعت الكتاب الصغير على المنضدة. وعندما وضعت سنَّ النصل الحاد على الخط الباهت، قفز ليلاند صائحًا:

«يا إلهي! ماذا ستفعل الآن يا رجل؟» لم أجد أي رد، لكنني مرَّرت النصل بثبات على طول الخط حتى قطعت الجوانب الأربعة، وفصَلت لوحةً صغيرة من ورقة النهاية. ورفعتها، ثم قلبت الكتاب، وأخرجت ورقتَين صغيرتَين من الورق المصفرِّ الرقيق للغاية، على كلٍّ منهما كتابة دقيقة جدًّا باللون البني الباهت.

صاح ليلاند: «يا إلهي! أوراق نقدية مخفية، يا للعجب!» والتقط إحدى الأوراق الصغيرة، ونظر إليها، ثم وقف يُحدق في وجهي، كمن ضربَته صاعقة.

قال بصوت منخفض: «يا إلهي! هل ترى هذا يا ميتشل؟»

ناولني الورقة الصغيرة، فرأيت أنه كان ينظر إلى الجزء الخلفي من الوثيقة، الذي كُتِب عليه بخط اليد بالحجم العادي:

> بيان أنتوني ليلاند، جنت، الذي تلقَّيته من يده في ١٦ أغسطس ١٧٥٣، في ظرف مغلق ومختوم فتحته بعد ذلك.
>
> فاينيس ديسبورو

فقلت: «هذه وثيقة سرية يا ليلاند، إنها تخصك، وقد تحتوي على أسرار عائلية مهمة.»

ردَّ قائلًا: «دعك من الأسرار! لا تُوجد أسرار بيننا. اقرأها. دعونا نسمع ما قاله أنتوني ليلاند عام ١٧٥٣.»

ثارَت غرائزي القانونية على الاقتراح، رغم أن الفضول التهَمَني. لكن ليلاند كان مصرًّا، وبعد عدة احتجاجات غيرِ مجدية، ارتديت نظارتي وأخذت أُحاول فكَّ الرموز متناهية الصغر.

> **لوفان**
> **٣ أغسطس ١٧٥٣**
>
> طفلتي العزيزة، أكتب هذه الكلمات (بقلم ريشة غراب)، مستلقيًا علىالسرير حيث سأُحمَل قريبًا إلى قبر خارج وطني، واثقًا في أنه من خلال المساعدة المسيحية لبعض الغرباء، ستصل رسالتي ليدك بسلام. أنا أُحتَضر في أرض

غريبة، بلا صديق بالقرب مني، ولا أحد من أبناء وطني باستثناء شريكي، جيمس بونينجتون؛ الذي سأضع ابني الصغير، أخاك جوناثان، تحت وصايته لكنني أفعل هذا مع الكثير من الشك؛ لأنني لا أثق بالسيد بونينجتون، فهو رجلٌ ماكر ودنيوي؛ وقد كان حريصًا ومتلهفًا على نيل الوصاية، مما يجعلني لا أثق به أبدًا. ولكي أكون واضحًا، أنا أخشى من أنه قد يُمارس بعض الاحتيال، لأنك يجب أن تعرفي أن بونينجتون هذا أرمل (ماتت زوجته بنفس المرض الذي أودى بحياة والدتك العزيزة)، ولديه ابنٌ صغير يَكْبَر أخاكِ بشهر أو شهرَين؛ بائس تعيس معوق الجسد، توقفت ذراعه ورجله عن النمو منذ ولادته، وقد أغدق عليه والده بالتدليل، رغم أنني لا ألومه على ذلك، ولكنني أخشى أن يضع هذا الطفل البائس في مكان أخيك. وهو ما يُمكن أن يفعله بسهولة لأنه وصيٌّ على أخيك، ولا أحد هنا يعرف الطفلَين كي يستطيع التمييز بينهما. ربما أكون قد أخطأت في الحكم عليه؛ ولعل الله يُخيب ظني فيه ويجعله رجلًا صالحًا صائنًا لأمانة الوصاية. ومع ذلك، من أجل السلامة، أقول لكِ هذه الحقيقة؛ إن أخاكِ طفل مفعَم بالحيوية، حسن الشكل وجميل مثل أمه. وإن لديه شامةً على خدِّه الأيسر، وتُوجد على صدره الأيمن وحمةٌ حمراء اللون، في حجم عملة معدنية. بهذه العلامات يُمكنكِ التعرفُ على الطفل. لأن ابن بونينجتون شاحب وأسود، وكما قلت، مشوَّه منذ الولادة.

إذا حدثت عملية الاحتيال هذه التي أخشاها، ووصلت إليك هذه الرسالة بأمان، احتفظي بها حتى تبلغي سن الرشد؛ ثم استشيري رجلًا حكيمًا وصادقًا.

أستودعُكِ أيتها الطفلة العزيزة لدى الله الرحيم، وإلى اللقاء.

من أبيك المحب

أنتوني ليلاند

إلى ابنتي سوزان ليلاند

١١ أغسطس. إن السيد ديسبورو، المحامي،

موجود الآن في لوفان، وسيزورني غدًا،

كي أُسلمه هذه الرسالة؛ ليُوصلها إليك

ساد صمت عميق لفترة بعد أن أنهيت القراءة. ثم سأل ليلاند:

«ماذا تحوي الورقة الأخرى يا ميتشل؟»

التقطتُ الورقة، ونظرت فيها، ثم أجبت: «إنه بيان ديسبورو. هل أقرؤه؟»

قال ليلاند: «بالتأكيد»، وبِناءً عليه قرأت بصوت عالٍ:

أنا، فاينيس ديسبورو، المحامي، ومحلي المختار في ١٦ فيلد كورت، جرايز إن، أُؤكد وأُعلن ما يلي:

إنني تلقيت البيان المرفق من أنتوني ليلاند، في جنت، داخل ظرف مغلق ومختوم: ومِن ثَم فتحت الظرف وحجبت الرسالة عن سوزان ليلاند التي وعدَت بتسليمها إليها: وقد تآمرت بعد ذلك مع جيمس بونينجتون كي يحل ابنه والتر محل جوناثان ابن أنتوني المذكور أعلاه. وقد تواطأَت وساعدَت المذكور والتر كي يستحوذ على التركة العقارية والشخصية التي كان يحق للمذكور جوناثان أن يرثها؛ وأن المذكور والتر لا يزال ينتحل اسم وصفة جوناثان ليلاند، وأن المذكور جوناثان كان ولا يزال بشكل غير قانوني ونتيجة لعملية احتيال يعتقد بأنَّ اسمه والتر بونينجتون وأنه ابن المذكور جيمس بونينجتون.

تحرَّر هذا البيان بيدي في ٢٩ مارس ١٧٨٥.

فاينيس ديسبورو

وُقِّعت الوثيقة في حضوري

ويليام هوريل، ٦ هاند كورت، هولبورن، كاتب

وضعتُ الورقة ونظرت إلى أصدقائي الثلاثة، لكن لم يتحدث أحدٌ منا لبعض الوقت. كان ليلاند أولَ من كسر حاجز الصمت. حيث شكلَت كلماته الأولى السؤالَ الحتمي.

«كيف عرَفت أن تلك الأوراق موجودة في ذلك الكتاب يا ميتشل؟»

لم تكن هناك فرصة للسرية أو التكتم. من غير المحتمل ألا يكون جمهوري متشككًا. في بضع كلمات، حكيت قصة زائر منتصف الليل والرسالة الغامضة. وعندما هدأ التعجب قليلًا، جاء السؤال الآخر الذي لا مفرَّ منه.

«في ضوء هذَين البيانَين يا ميتشل، ما رأيك في الموقف الحالي؟ يبدو أن والدي يُمثل دور الأبله.»

قلت: «الموقف هو أنك فرانك بونينجتون وأن الآنسة كيت هنا هي كيت ليلاند.»

«وهل ستكون هذه الأوراق دليلًا دامغًا في المحكمة؟»

فأجبت: «ربما. لكن يجب أن أُشير إلى أنه بعد مرور مائة وخمسين عامًا، قد يكون من الصعب للغاية طردُ الحائز من الملكية. والدك لديه القدرة على خوض هذه المعركة، وسوف يُقاتل حتى آخرِ نفَس.»

قال ليلاند: «الآن أنت مخطئ تمامًا، إذ إن والدي عنيد مثل الشيطان، لكنه رجل أمين، وكريم أيضًا. إذا عرضت عليه تلك الأوراق وأعطيته كل الحقائق، فسأتعهد بأنه سينسحب، مع كل متعلقاته، بدون الحاجة إلى أي إجراء قانوني على الإطلاق.»

هنا قام السيد بونينجتون ومد يده للحصول على الأوراق وهو يقول: «إذا كان الأمر كذلك، أعتقد أنه من الأفضل أن نضع هذَين البيانَين في شبكة المدفأة، ونُحرِقهما بعود ثقاب.» وكاد أن يفعل ذلك، لكنني، مع عادة اعتناء المحامي بحفظ الوثائق، سحبتهما مسرعًا بعيدًا عن متناوله، ووضعتهما في محفظتي، وشبكت أزرار معطفي.

قال ليلاند: «صحيح تمامًا يا ميتشل؛ أنا متأكد من أنك تتفق معي في أنه يجب تحقيق العدالة.»

«نعم. أتفق معك بشكل قاطع. لكن يجب أن أُصِر على أن يتم ذلك بطريقة معقولة.»

«على سبيل المثال ...»

«حسنًا، أفهم أن السيد بونينجتون، كما سأظل أُسميه، ليس لديه ابن لكن لديه بنت واحدة فقط. الآن افترض أنه دخل في دعوى ضد والدك، ونجح في الإطاحة به؛ ما هي النتيجة؟ ستُصبح كيت بونينجتون هي الآنسة كيت ليلاند. ولكن بالتأكيد، يا ولدي العزيز، يُمكن الوصول إلى نفس النتيجة من خلال عملية أقصرَ بكثير وأقلَّ تكلفة.»

حدَّق ليلاند في وجهي لبضع لحظات ثم ابتسم ابتسامة تنم عن التقدير وقال: «بحق الله يا ميتشل، يجب أن تُعيَّن في منصب اللورد كبير القضاة. بالطبع، هذه هي الخطة.» ثم وجَّه نظره إلى الآنسة كيت (التي تحوَّل لون بشرتها فجأة إلى لون زهرة البيوني)، وأضاف: «بمعنًى آخر، أنه إذا تعطفَت الآنسة ليلاند ووافقت على الزواج من شيطان فقير مفلس مثل فرانك بونينجتون؛ فسنصل إلى النتيجة المرجوة.»

وهكذا حاز هذا الحلُّ الوجيه للمسألة على رضاهما المتبادَلِ ورضا الجميع؛ لأن «الوالد» أكَّد قدرة ابنه على فَهم سمات شخصية والده بشكل صحيح من خلال «تنازل سريع» في مثل خفة حركة الأبوسوم. وهكذا، عبر إجراء قصير وغير مكلِّف، أصبحت كيت بونينجتون هي كيت ليلاند — وقد حدث ذلك في اليوم نفسه الذي أصبحت فيه مستشارًا للملكة — ومِن ثَم، بعد قرن ونصف القرن، أعاد فاينيس ديسبورو الأمور إلى نصابها الصحيح.

حظ بارناباس مدج

إن بارناباس مدج هو رجل تفوق رجاحةُ عقله مكانته في الحياة؛ وهي لا ينبغي بالضرورة أن تُقارَن برجاحة عقل أرسطو أو هربرت سبنسر. وبالنسبة إلى مكانته، فهو مجرد عامل بناء يعمل حسب الطلب وليس كوظيفة ثابتة لوقت كامل. وبالطبع، هناك نوع من عمال البناء ونوع آخرُ من عمال البناء؛ وبارناباس من النوع الذكي، وهو ليس النوعَ الأكثر شيوعًا بكل تأكيد.

ومع ذلك، حتى هذه اللحظة لم تكن مواهبه العقلية قد دفعته بشكل ملموس على طريق الثراء. من المحتمل أن الحظ كان يُعانده، أو ربما كانت قرية بيكونزفيلد تُتيح نطاقًا محدودًا من الفرص التي يُمكن أن تُبرز إمكانيات عقله الفلسفي. على أي حال، عندما قابلناه للمرة الأولى في يوم حارٍّ من شهر يونيو، وجدناه مشغولًا بمهمة متدنية وهي هدم كوخ آيلٍ للسقوط في منطقة منعزلة على أطراف القرية.

كان يومًا شديد الحرارة. بينما يقف بارناباس على قمة الجدار، ينقر على الأحجار القديمة الصلبة وهو عابس، والعرق يتصبب على وجهه وذراعَيه، بل يُبلل مقبض معولِه. ومما زاد الطين بلة، أن العجوز جو جاميت كان يضع كوماتٍ كبيرةً من الأسماك الفاسدة لاستخدامها كسماد في الحقل المجاور. وكان من المقرَّر أن تُنثَر الأسماك الميتة قريبًا بالتساوي على الأرض، ليس — كما قد يفترض القارئ الذي ليس لديه دراية بطرق الزراعة — بغرضِ إنتاج محصولٍ من أسماك الماكريل، ولكن لغرض تسميد وإثراء التربة؛ ولكن في الوقت الحاضر، كان هناك إثراءٌ للروائح الكريهة، لأن الأسماك، التي وُضِعت في أكوام متناظرة، ترقد تحت أشعة الشمس الحارقة، و«تضيع حلاوتها في الهواء الساخن».

صاح بارناباس وهو يُوجِّه مِعولَه بشراسة نحو كتلة مترابطة من الطوب القديم الصُّلب: «بو! إن تلك الأسماك كريهة الرائحة. وبالحديث عن أوبئة مصر العشَرة التي

عاقب بها اللهُ فرعون! فإن رائحة الضفادع الكريهة لا تُعَد كريهة إذا ما قُورِنَت برائحة تلك الأسماك. وها هو ذلك الخنزير العجوز يأتي مع حمولة أخرى.»

ألقى نظرة حزينة على العربة التي تقترب، واستهدف بُقعة أسفل الجدار، وضرَبها بقوة من فرط سخطه. لكنه واجه هنا مِلاطًا من نوعية مختلفة نوعًا ما. ودفن المعول نفسه في كتلة متداعية، وبينما كان ينتزع المقبض، انفصلَت كتلة كبيرة من الأحجار عن الحائط وسقطت على الأرض.

قال بارناباس: «مرحى!» وقد يستدعي الأمر التهليل بالفعل؛ لأن الأحجار المتساقطةَ كشفَت عن فجوة صغيرة مكعَّبة في الجدار؛ وبداخلها، كما يرى من خلال مدِّ رأسه للأمام، جَرَّة خزفية مغطَّاة. وكان هذا مثيرًا جدًّا للاهتمام. لكن وقت حدوثه غير مناسب؛ لأن جاميت العجوز كان قد اقترب إلى مسافة نحو مائة ياردة فقط وكان يبتسم بلطف مشئوم.

فانحنى بارناباس إلى أسفل وبدأ على عجل في إصلاح آثار ضربة معوله القويةِ الأخيرة، وتركيب الأحجار المزاحة في أماكنها بقدر المستطاع في الوقت القصير المتاح قبل وصول العجوز. ثم صعد إلى مكانه السابق وبدأ العمل بجهد على جزء آخر من الجدار موجِّهًا ظهره نحو العربة التي تقترب. لكن هذا التحفُّظ في الأسلوب لم يُفلِح؛ لأن جو جاميت، بعد أن وصل أمام الكوخ، أوقف عربته، وابتسم كاشفًا عن مجموعة متنوعة من الأسنان التالفة، وحيًّا الرجل بصوت ريفي رنان.

قائلًا: «كيف حالك يا بارني!»

التفتَ بارناباس، بينما يضع منديلًا أحمر اللون على أنفه.

وقال لاهثًا: «أتعلم يا جو! ما عليك سوى المضيِّ قُدمًا في صناعة العطور الخاصة بك. إنه أمر يجعلني أشعر بالدُّوار.»

ضحك جاميت العجوز وبصق بمهارة من خلال فتحة مناسبة بين أسنانه. وقال: «يجب ألا تكون رقيقًا هكذا، إنها رائحة الريف الصحية اللطيفة، كما أُسميها. وهي مغذِّية أيضًا. فما هو مفيدٌ للأرض مفيد لمن يعيشون على الأرض أيضًا.» واتخذ موقفًا هادئًا في المدخل المهدَّم واستأنف كلامه متأملًا: «لديك عمل شاق هنا يا بارني. إن البنَّائين القدامى كانوا يبنون بيوتًا متينة بالفعل. فقد كانوا يستخدمون النوع الصحيح من المواد. ولكن هناك رقعة هناك لا تبدو بنفس المتانة. عجبًا، يُمكنني هدمها باستخدام يدي!»

واستمر ينظر بعين غائمة على قطعة الجدار التي أعاد بارناباس تشكيلها للتو وهمَّ بالتوجه نحوها داخل الكوخ.

فصاح بارناباس قائلًا: «توقف، لا تدخل، إن المكان ليس آمنًا.» ولتوضيح هذا، قام ببراعة بإزاحة عدد قليل من الأحجار فوق العتبة، مما تسبَّب في قفز جاميت العجوز إلى الخارج عبر المدخل بخفة حركة مدهشة للغاية.

قال العجوز بسخط: «ألا ترى أني واقف هنا؟»

قال بارناباس ساخرًا: «لا أرى شيئًا، لا أستطيع إلا أن أشم. هل تُمانع في نقل زهورك المعطرة بعيدًا قليلًا؟»

ألقى جاميت العجوز ردًّا غير مفهوم، وأمسك عابسًا بلِجام حصانه، ثم ابتعد في اتجاه طريق العربات الذي يُؤدي إلى داخل الحقل. راقبه بارناباس بصبرٍ نافِد، وعندما دخلت العربة إلى الحقل، نظر إلى أعلى وأسفل الطريق ليطمئنَّ إلى عدم وجود أي مقاطعة أخرى تُهدده، وهبط مرة أخرى.

ومِن ثَم أزال الأحجار بعناية أكبر هذه المرة، بهدف إعادة البناء لاحقًا، إذا لزم الأمر، ودفع رأسه في التجويف الغامض في الجدار، وخلع غطاء الجرة.

وصاح قائلًا: «يا عيني!» حينما وقعت عينه على فم الجرة. ومن الطبيعي تمامًا أن يصيح عجبًا؛ لأن الجرة كانت ممتلئة حتى حافَتِها بالعملات الذهبية المتلألئة.

لبضع ثوانٍ وقف متحجرًا بفرحة لا تُصدَّق. ثم مد يده وهي ترتجف وكَبَش ملء قبضته منها؛ وعندئذٍ تضاعفت فرحته. لقد كان يتوقع أن يجد بعض العملات القديمة غير القابلة للتداول التي تصرخ «كنز دفين»، من كل نوع بالٍ عفا عليه الزمن. لكن الجرة لا تحتوي على شيء من هذا القبيل. كانت العملات الذهبية التي بين يدَيه بشكل عام؛ غيرَ مميزة. لكنه كان يعلم أنها جنيهات ذهبية. نعم، ليس واحدًا، بل عدة مئات.

صاح بارناباس: «المقص الخالد!» ومرة أخرى أُكرر أن الصيحة تُبررها الظروف.

والآن، أمام رجاحة عقل بارناباس مدج، أصبحت الحقائق واضحة على الفور. هنا، على سبيل المثال، ملكية قابلة للتداول بمئات الجنيهات، ثروة تفوق أحلام كانزي المال. وهذه الملكية لم تكن بالمعنى الدقيق للكلمة مِلكه؛ وهذه حقيقة؛ لكن بارناباس كان رجلًا عمَليًّا لا تروقه التفاصيل الدقيقة للقانون. كانت المشكلة الأكثر إلحاحًا هي كيفية تأمين هذه الثروة غير المتوقعة التي وهبها له الله؛ فركز انتباهه وعمل على حلِّها، ومِن ثَم أعاد العملات الذهبية داخل الجرة وأغلقها، وبنى فتحة المخبأ مرة أخرى بعناية.

قبل هذه اللحظة، كان الحظ يُعانده باستمرار. وقد عرَفته كل القرية على أنه رجل فقير؛ وإذا ظهرت في حوزته فجأة ثروة غير مفسَّرة المصدر، فسيُثير الفضول وربما الشك

أيضًا. ومع ذلك، فمن غير المجدي أن تكون غنيًّا إذا تحتَّم عليك أن تعيش في هيئة الفقراء؛ كما أن اكتناز المال حماقةٌ كما بيَّن بوضوح هذا الكنز المنسي. وعلى أي حال، يُمكن التفكير لاحقًا في كيفية إدارة هذه الثروة التي لم يكن يحلم بها. وكانت المشكلة المباشرة هي كيفية نقلها بأمان إلى منزله دون أن ترصده أعينُ المتطفلين. نظرًا لأن عربته، رغم صغر حجمها، لا يُمكن سحبها عبر المدخل إلى داخل الكوخ، لذا يجب نقل الجرة الثمينة إلى الخارج، وربما كان ذلك آمنًا بما يكفي إذا كانت الجرة ملفوفة مسبقًا في كيس. لكن عِظَم الثروة كان يُؤثر على أعصابه لدرجة تجعله يلتزم تمامًا بأقصى إجراءات الحذر والسرِّية غير المعقولة.

في تلك اللحظة كان جاميت العجوز هو العقَبَةَ التي يصعب التغلب عليها. حيث من المستحيل إعادة فتح المخبأ وإخراج الجرة قبل رحيله؛ لأنه رأى الفجوة وقد تهدمت حجارتها، وهو عجوز وضيع وماكر، وقد يشكُّ في الأمر. وهكذا أخذ برناباس الحكيم — بحذرٍ مبالَغ فيه بشكل سخيف؛ لأن الضمير يجعلنا جميعًا جُبناء — ينقر بفتور على الحائط، بينما يُراقب المزارع العجوز بقلق، ويلعن تحركاته البطيئة وتدقيقه السخيف في التفاصيل. لأن جو جاميت، إذا لم تكن حاسةُ الشم لديه شديدة التمييز، فقد كانت عينه شديدة الانتباه ومدققة، وكان من الواضح أنه يُوزع أسماكه البغيضة على أنحاء الحقل بشكل متساوٍ ومنتظم؛ وفي الواقع، لاحظه برناباس بحذر وهو يعدُّ الأكوام الموزعة بالفعل ويعدُّ الخطوات نحو موقع الكومة التالية.

زمجر برناباس بغضب وهو يُراقبه: «يا لك من عجوز غبي حقير! لماذا لا يُلقيها في الحقل وينتهي الأمر؟» وفي وسط شعوره بالسخط وجد نفسه يحسب الأكوام أيضًا، ويحسب كم ستُنتج حمولة العربة. كان هناك في الوقت الحاضر صفان كاملان، كل واحد مكون من إحدى وثلاثين كومة، وكان جاميت العجوز مشغولًا الآن بوضع الكومة السادسة والعشرين في الصف الثالث؛ وهذه هي قوة الإيحاء حيث توقف برناباس مؤقتًا عن عمله ليرى ما إذا كانت المحتويات المتضائلة للعربة ستُوفر الأكوام الخمسة الإضافية التي كانت مطلوبة لإكمال الصف الثالث.

وفي الواقع، انتهت كمية الأسماك الفاسدة عند الكومة التاسعة والعشرين، مما جعل جاميت يشعر بالأسف الواضح، لأنه بعد أن وضعها، أخذ يعدُّ الكومات بدقة بذراعه الممدودة مرة أخرى. وبعد ذلك، أخيرًا، صعد إلى العربة الفارغة وانطلق بعيدًا.

قال برناباس بينما اختفت العربة في نهاية الطريق: «والآن لنأخذ الكنز ونبتعد.» فنزل من على الحائط، ووضع على أهبة الاستعداد كيسًا كان قد أحضره معه، وبدأ في إزالة الأحجار المتهدمة.

ولكن في هذه اللحظة، باغت أذنَيه صوتُ عجلات تقترب من الاتجاه المعاكس لذلك الذي اتخذه جاميت.

صاح وهو يُعيد الأحجار إلى موضعها على عجل: «يا لكم من ملاعين!» ثم تسلَّل إلى نافذة جانبية صغيرة تُطل على الطريق ثم قال: «من هؤلاء الآن؟ عجبًا، إنها الأمُّ موني ورفيقتها الحقيرة. والآن ما الذي يُمكن أن يفعلاه هنا؟»

في تلك اللحظة كانتا تتفحصان المكان بطريقة فضوليَّة ومريبة للغاية، وفي الوقت نفسه كانت السيدة موني تربط حمار عربتها في السياج. وبعد ذلك أخذت كلُّ امرأة كيسًا من العربة ودخلتا في حقل السيد جاميت. فراقبهما بارناباس بذهول مطلق وهما تنقبان أكوام الأسماك بنوايا لا لبس فيها.

صاح بارناباس: «حسنًا، أُراهن أنهما قد حضرا لسرقة الأسماك الفاسدة! فهذه هي الطريقة التي تُديران بها مزرعة خضروات. لكنني لا أفهم لماذا تحسبان الكميات التي تسرقانها؛ ربما لأن تلك العربة لن تتسع للكمية كلِّها.»

ومع ذلك، فقد أصبح هدف هذا الإجراء الغامض واضحًا على الفور؛ لأنه يبدو أن اللصتَين، بعد أن لاحظتا الترتيب المتماثل للسيد جاميت، قررتا عدم الإخلال به؛ ومِن ثَم لفت الانتباه إلى سرقتهما. وبناءً على ذلك، بدأتا العمليات على الكومة رقم تسعة وعشرين، وبعد أن خبَّأتا الأسماك في كيسَيهما، حملتاها إلى العربة، وعادتا بكيسَين آخرَين فارغَين، ثم عاودتا الهجوم على ممتلكات جاميت عند الكومة الأخيرة في الصف التالي.

صاح بارناباس بإعجاب: «هكذا! إنها حيلة رائعةٌ بالنسبة إليكما! حيث تظنان أن جاميت العجوز لن يلحظ اختفاء بعض الأسماك؛ وأكثر من ذلك، هو لن يفعل، إذا لم تأخذا كميات كبيرة.»

كان رأيه الجيد عنها مبررًا في هذا أيضًا، لأن السيدة موني الحريصة اكتفَت بإزالة الأكوام الطرفية الثلاثة، تاركة نمط السيد جاميت المتماثل على ما يبدو دون تغييرٍ ملحوظ، والتقطت حتى أصغر الأجزاء التي تدل على فَعْلتها.

انتظر بارناباس بصبر انسحاب اللصتَين، وعندما اختفت العربة التي يجرُّها الحمار في نهاية الطريق، ألقى نظرة أخرى على المكان ثم أبعد الأحجار عن فجوة الكنز مرة أخرى. وقد كانت الجرة، على الرغم من حجمها الصغير، ثقيلة بشكل غير مألوف، وكان إدخالها إلى الكيس في ظل الظروف العصيبة مسألة صعبة بعض الشيء. وعندما أتم مهمته بأمان وخرج مع جائزته إلى العربة ودفنها هناك تحت كومة من الأدوات وإطارات

النوافذ والعوارض الخشبية وغيرها من حطام الكوخ، تبع ذلك عدةُ دقائق عصيبة، أعاد خلالها بشكل محموم بناء أحجار فجوة الكنز؛ لأنه كان من الجنون تركُها مكشوفةً لعيون القرويِّين الفضولية. لكن لحسن الحظ، لم يمر أحدٌ عبر الطريق أثناء قيامه بذلك، ولم يكن هناك أي شخص في المكان عندما غادر وهو يتلفت حوله شاعرًا بالذنب، ومِن ثَم أخذ عربته وانطلق إلى المنزل مسرعًا مع الحرص على سلامة الجَرة، فبدا كمن يسير في جنازة ريفية. ولسنا في حاجة إلى وصف تلك الرحلة بالتفصيل؛ دعنا نكتفِ بالقول إنه في نهاية الأمر، شعر بارناباس بأنه قد أضحى أكبر سنًّا ووجد نفسه مندهشًا من الازدحام المفاجئ في بيكونزفيلد ومن شعبيته غير المتوقعة حتى الآن. وأخيرًا، أطلق زفرة ارتياح، عندما دخل بعربته إلى الفِناء الخلفي الصغير للكوخ الذي يعيش فيه وحيدًا؛ وبعد لحظات قليلة، حمل كنزه ودخل من الباب الخلفي وأغلق الباب بالمزلاج؛ وهكذا تمت الخطوة الأولى والأكثر أهمية على طريق الثروة.

لا داعي للقول إن الإجراء الأول للسيد مدج كان التحقُّقَ من حجم ثروته؛ ولهذه الغاية حمل الجرة برفق عبر السلم الصغير إلى الغرفة العلوية، حيث أخرج محتوياتها، في كومة لامعة رائعة، على السرير، وبدأ بأصابعه المرتجفة في عد العملات المعدنية وتقسيمها إلى أكوام أصغر على طريقة جاميت المبجل.

كان المجموع لا يقلُّ عن سِتِّمائة وثلاثة عشر جنيهًا ذهبيًّا، وهو مبلغ، أدى التفكيرُ المجرد فيه إلى ظهور أعراض الدُّوار عليه، وبينما يجثو على السرير الضيق، وهو يملأ عينه منتشيًا بالمجموعة التي لا تُصدَّق، بدأ عقلُه مرة أخرى ينشغل بمشكلة النقلة غير المشكوك فيها من الفقر إلى الثراء. لم يكن بارناباس بخيلًا، قد يجد متعةً في مجرد الابتهاج باكتناز الثروات غير المشكوك فيها؛ لكنه كان أيضًا قلقًا جدًّا من الانغماس في الاستمتاع بهذه الثروة الطائلة المفاجئة مما قد يجعل القرويين يتهامسون في أذن شرطي القرية. إنه يحتاج الآن إلى اختلاق تفسير معقول للتغيير في وضعه المالي؛ تفسير ضروري، ليس فقط لمقدار الثروة المفاجئة، ولكن أيضًا لأمر غريب جدًّا لاحظَه أثناء عدِّ العملات الذهبية؛ وهو أن الجنيهات الذهبية جميعها تحمل التاريخ نفسَه. كان هذا، في الواقع، أمرًا غريبًا جدًّا بالفعل، وقد دفع بارناباس للتكهن مندهشًا عما إذا كان تطابق التاريخ ناتجًا عن هوس رجل بخيل، أو ما إذا كان الكنز نتاجًا لسرقة بنك منسية. بالطبع، لم يكن ذلك من شأنه استثناء نتيجته؛ وهي أنه سيحتاج إلى تَوخِّي مزيد من الحذر عند تقديم تلك العائلة الكبيرة من التوائم إلى عالمٍ مترقِّب ناقد.

لقد بحث المشكلة مِرارًا وتَكرارًا، بعد أن أعاد العملات داخل الجرة ووضعها في تجويف داخل مدخنة غرفة النوم، لكنه لم يتوصَّل إلى قرار. وأخذ يُفكر فيها بعمق بينما يغلي الماء داخل الغلاية ويصنع الشاي، لكن دون نتيجة؛ وعندما غادر المنزل وأغلقه جيدًا، في وقت لاحق من المساء، ووجَّه خطواته المعتادة نحو حانة بلاك بول إن، لم يكن قد استقر على خُطة. ومع ذلك، فإن التغيير الجديد في ظروفه لم يكن بدون تأثير طفيف ودقيق. لأنه، خضوعًا لدافع لم يكن يُدركه، نقل ما لا يقل عن خمسة عشر شلنًا إلى جيبه من داخل صندوق البلوط في غرفة نومه، حيث يحتفظ بمدخراته الصغيرة، قبل أن يخرج مباشرة.

لم يكن أولَ من وصل إلى البار في حانة «بلاك بول». على الإطلاق. فقد سبقه بالفعل أكثرُ من اثنَي عشرَ قرويًّا، وكانوا في الوقت الحاليِّ يُسلُّون أنفسهم من خلال رمي السهام على هدف من الفلين مثبَّتٍ على الحائط، ويراهنون على قدرات كلٍّ منهم برهانات صغيرة. وعندما دخل بارناباس، كان جو جاميت العجوز يقوم بالتصويب؛ ولم يكن تصويبًا جيدًا على أي حال؛ لأن السهم أصاب قطعة خشب في زاوية إطار صورة مجاورة.

فقال الريفي العجوز المخادع، بإصرارٍ كبير: «سأُعيد التصويب مرة أخرى، لقد شتتني دخول بارني بشكل مفاجئ.»

وبغضِّ النظر عن احتجاجات رفاقه المحبطين، فقد سحب السهم بصلابة من الإطار، وعاد إلى موقعه، وعلى الفور أصاب الهدف.

ووسط الخلاف الحتمي حول سداد الرهان، وجد بارناباس نفسه متورطًا من قِبَل جاميت المخادع، الذي سعى هكذا إلى صرف انتباه الخاسرين. لكن بارناباس لم يكن مقامرًا، وبقدر مماثل من البراعة، شرَع في الاعتذار عن الأمر.

وقال: «إن يدي ليست ثابتة بما يكفي يا جو، ولم أتعافَ بعدُ من دُوار تلك الأسماك الفاسدة الخاصة بك.»

أصدر جاميت العجوز صوتًا وقحًا من أنفه بازدراء وقال: «أنت الوحيد الذي ينزعج حقًّا بسبب كومات قليلة من الأسماك الطازجة اللطيفة.»

صاح بارناباس: «قليلة! كيف تكون قليلة وقد كان هناك ما يزيد عن ثمانين كومة منها.»

قال جاميت مصححًا: «ما يزيد عن التسعين يا بارني.»

هز بارناباس رأسه وقال: «ما يزيد عن الثمانين، في رأيي.» كان العدد الفعلي قد أفلت منه في الوقت الحاليِّ دون قصد، وجاء ردُّه من خلال عادة العناد المتأصلة في الريف

البريطاني. لكن جاميت عنَّفه بحدة. وقال بشكل قاطع: «أقول لك إنه كان هناك أكثر من تسعين كومة.»

أثار تحديد العدد انتباه السيد مدج، وتذكر الأرقام الفعلية بسرعة، مع طرح الكمية الصغيرة التي سرقتها السيدة موني، فقال بنبرة عنيدة:

«ليست فوق التسعين يا جو، لكنها فوق الثمانين. لقد نظرت إلى الكومات بعناية ولديَّ عين تُجيد العد.»

صاح جاميت بانفعال مكبوت: «انظر هنا! أنت لستَ الوحيد الذي لديه عين تُجيد العد. فأنا خبير أيضًا، وأقول لك إن هناك أكثرَ من تسعين كومة، وسأُراهن على شلن أني على حق.»

ابتسم بارناباس ابتسامة خفية وقال: «أنا لا أُراهن أبدًا يا جو، وأنت تعرف هذا. ولكن، على الرغم من ذلك، لم يكن هناك تسعون كومة.» ثم ذهب للحصول على مشروب يُساعده على استمرار المناقشة، وكذلك للتفكير في الموقف. وعندما عاد بكوب الجِعَة الخاص به، أدرك بعض التوقعات الواضحة في أسلوب معارفه القرويين، التي أوحَت بقوةٍ لعقله بخُطة سرية، وعلى الفور حدد عقله الذكي مسارًا مناسبًا للتصرف.

وقال موجهًا كلامه بشكل عام إلى الجمع المتواجد: «من غير المألوف أن يُصبح الجو حارًّا على نحو مفاجئ هكذا.»

وافقه جاميت قائلًا: «هذا صحيح لكن بالعودة إلى موضوع الأسماك ...»

قال بارناباس: «كفى يا رجل، لقد اكتفيت من ذلك الموضوع. بين ثمانين وتسعين كومة منها ...»

قاطعه جاميت: «أكثر من تسعين.»

رد بارناباس: «ليس أكثر، لكن أقل من تسعين، أنا متأكد، وأنا أستطيع أن أثق في عينَيَّ.»

قال جاميت: «هناك أكثرُ من تسعين.» وبينما كان بارناباس يهز رأسه مرة أخرى، تابع جاميت العجوز بلهفة: «لماذا لا تدعم رأيك بالرِّهان إذا كنت واثقًا بهذا الشكل؟»

قال بارناباس: «لن يكون ذلك عادلًا، أنا لا أُخطئ أبدًا بخصوص الأرقام.»

استقبلت صيحة السخرية من الصحبة المجتمعة هذا التصريح المتفاخر، وحثُّوا بارناباس بجدية كي يُراهن جاميت العجوز على شلن، إلى أن قبل الرهان بعد فترة طويلة وبإظهار الكثير من التردد. ولكن ما إن تم ترتيب الإجراءات التمهيدية، حتى تقدم

بوب تشالمرز، الطحان، وقال إنه سيُراهن بشلن أيضًا، وتبعه الآخرون، واحدًا تلو الآخر، فوجد بارناباس نفسه مطالبًا بسداد ما يُقارب اثنَي عشر شلنًا إذا خسر الرهان؛ الذي تم إيداعه حسب الأصول لدى صاحب الحانة الذي شارك، بدوره، في الرهان، واستثمر شلنًا هو الآخَر. بعد ذلك، تم إيداع الستة والعشرين شلنًا بالكامل من العملات المتنوعة في إبريق توبي فارغ، ثم انطلقت مجموعة اللاعبين معًا لتفقُّد الأسماك الميتة؛ وتركوا البار في رعاية زوجة صاحب الحانة.

قال جاميت العجوز بينما توقف الموكب أمام الحقل، وأخرج المراهنون مناديلهم سرًّا ووضعوها على أنوفهم: «والآن لنكن واضحين بشأن هذا الرهان. أنا أقول إن هناك أكثر من تسعين كومة وأنت تقول إن هناك أقلَّ من تسعين كومة. أليس هذا صحيحًا؟»

قال بارناباس: «إنها أقل من التسعين.» وبهذا دخل الموكب إلى الحقل.

كان الإجراء متأنيًا وشاملًا بشكل متعب. حيث استخدم جذع شجرة الآش الجديدة الخاصة بسام بوليت، التي قطعها في ذلك اليوم تحديدًا، كعصًا للعد، وعندما كان الموكب يتوقف أمام كل كومة كريهة الرائحة كان يتم تسجيلها بحفر شق على العصا. وقد استغرقت العملية وقتًا طويلًا، خاصة أن هناك اتجاهًا لسوء الفَهم المتكرر بشأن الكومة التي يُشير إليها الشق الأخير؛ ولكن بعد مرور وقت طويل، وبعد إجراء أربع بدايات خاطئة وتصحيحها من خلال البدء من جديد، اكتملت الجولةُ بأكملها، وكل ما تبقى هو عد الشقوق. فعهدوا بهذه المهمة لصاحب الحانة، وعندما وصل ذلك المقامر إلى الخط الأخير، ونطق كلمة «ثمانية وثمانين» بتردد، وجَّه عينه اللائمة إلى جو جاميت.

فصاح جوزيف الذي سقط فكه من الذهول: «لقد أخطأتَ يا توم.» رغم أنه اكتشف بالفعل التناقض، لكنه سعى يائسًا للمماطلة. فأخذ العصا من صاحب الحانة، ومرر أصابعه على الشقوق، وتابع، بانتصار خاطئ: «ها هي، لقد قلت لك، إنها واحد وتسعون، واحد وتسعون، لقد عددتها.»

فقال بارناباس: «إذن أنت مخطئ.» وتم تمرير العصا بشكل رسمي على الجميع ليعد كلٌّ منهم الشقوق، مما أدى إلى إصدار حكم بالإجماع بأن العدد هو ثمانيةٌ وثمانون، ومِن ثَم خفَض المراهنون وجوههم نحو الأرض من الإحباط. لكنهم قرَّروا إعادة المرور على كومات تلك المقبرة البحرية ثلاث مرات وعدُّوها ببطء، وفي كل مرة ظهرت نفس النتيجة المحبطة. وفي نهاية الرحلة الثالثة، ساد صمت مميت، لم يكسره سوى بوب تشالمرز بتوبيخ صريح.

حيث صاح عابسًا: «اسمع يا جو جاميت! ما معنى هذا؟ لقد أخبرتنا أنك قد عدَدتها جيدًا بنفسك. أعتقد أن الأمر برُمته ما هو إلا خدعة.»

أجاب جاميت: «لا توجد خدعة ولا شيء من هذا القبيل، لقد كانت إحدى وتسعين كومة؛ أنا حسبتُها قبل أن أُغادر الحقل. لقد سرق شخصٌ ما ثلاث كومات منها.» وهنا نظر متشككًا نحو بارناباس، الذي ردَّ بسخرية من خلال استعداده أن يُفتش جيوبه.

صاح صاحب الحانة متشككًا إلى حدٍّ ما: «إن جدتك هي السارقة يا جو، من هذا الذي سيسرق أسماكًا فاسدة؟»

كان جو جاميت على وشك تقديم رد غاضب، ربما ممتعضًا من إهانة جَدته عبر الملاحظة الأخيرة لصاحب الحانة، عندما تدخَّل بارناباس بلطف مع اقتراح بأن يعودوا إلى الحانة ويصرفوا كل مبلغ المراهنة على المشروبات للجميع؛ وبِناءً عليه ظهرَت علامات البهجة على الجميع، وخاصة صاحب الحانة.

غادر الجمع حانة «بلاك بول» في تلك الليلة في حالة غير مسبوقة من البهجة والفرح، ولكن لم يكن أيٌّ منهم أكثرَ ابتهاجًا من بارناباس مدج؛ لأنه قد وجد حلًّا لمشكلته. إذ من خلال هذه الحادثة الغبية التي وقعت بالصدفة، وجد طريقة لتبرير مظهر الثراء المتواضع؛ التي اعتبرها بحقٍّ ضروريةً لسلامته. وبنشاط وحكمة مميزَين، اتبع الحلَّ الذي اكتشفه عن طريق الصدفة. فقام بقياسٍ حكيم، وفي سرِّية، للساعة الشمسية في شُرفة الكنيسة، مع قياس لأخرى على طاولة البار، مما ساعده على الدعوة إلى رِهان آخر بأسلوب دبلوماسي مناسب؛ كما أن اطلاعه السري على التنبُّؤات الجوية في الصحف بمكتبة القرية جعله يُصبح مصدرَ استعلام عن الأرصاد الجوية، كما أثراه بمقدار ثلاثة أو أربعة أضعاف عبر المراهنة على حالة الطقس. وبعد بضعة إثباتات من هذا القبيل على دقة وصدق توقعاته، بدأ القرويون الحذرون في رفض دعواته إلى المراهنة؛ ولكن على الرغم من أن أنشطته الفعلية في المراهنة قد انتهَت رغمًا عنه، فقد نشأ اعتقاد عام غامض، وعززه هو، بأن حكمه الصائب وحظَّه النافذ سيُزودانه حتمًا بزيادة كبيرة في الدخل.

في هذا الوقت تقريبًا، عثر بارناباس مدج على رِهان حياته الوحيد الحقيقي. وقد حدث الأمر على هذا النحو؛ بينما كان في طريق عودته إلى المنزل عبر ممرٍّ مُشاة بين الحقول، رأى فجأة عربة فخمة، يجرها حصان جميل بالغ النشاط، يرمح بعنف على طريق عربات مجاور. ونظرًا إلى أن العربة كانت فارغة، استنتج بارناباس بطبيعة الحال أن الحصان قد فر جازعًا، ولأنه كان يعلم أن هذا الطريق ينتهي مباشرة بجرف شديد الانحدار لحفرة

حصًى، فقد أدرك أن كارثة على وشك الحدوث. لم يكن السيد مدج يتَّسم برجاحة العقل فحسب؛ بل كان يتسم أيضًا بالشجاعة. لقد قدَّر أن هناك مسافةً بين الحصان الجازع وبين الجرف، ومِن ثَم لا يزال هناك متسَعٌ من الوقت لبذل بعض الجهد من أجل تجنب الكارثة. ومِن ثَم جرى الرجل عبر الحقل، وتربص خلف شجيرة على جانب طريق العربات، منتظرًا اقتراب الحصان حتى أصبح على بُعد حوالي ثلاثين أو أربعين ياردة، وعندئذٍ انطلق نحو الطريق، وقبعته في يده، وراح يُهلل ويصيح ويُلوح بيده كي يجبره على التوقف؛ ونتيجةً لذلك توقَّف الحصان المذهول ليُشاهد هذا المنظر المفاجئ، وقبل أن يتمكَّن من استعادة إدراكه، انقضَّ عليه بارناباس وأمسكه من اللجام. وبعد ثوانٍ قليلة، بينما كان بارناباس لا يزال يُهدئ روح الأسير المضطربةَ بملاطفته، ظهر رجل ضئيل الجسد على طريق العربات، وهو يركض بأقصى سرعة تسمح له بها ساقاه الرفيعتان للغاية والمقوَّستان قليلًا، وعندما اقترب وهو يكاد لا يستطيع التنفس، قدَّم نفسه على أنه صاحب الحصان.

قال بارناباس: «لقد نجا حِصانك بأعجوبة حقًّا، لو استمر في العَدْو لمائة ياردة أخرى، كان سيسقط في حفرة الحصى.»

قال الوافد الجديد: «أنا أعلم، فكرت في تلك الحفرة بمجرد أنْ فر. أنت رجل شجاع، هذا ما أنت عليه بالفعل يا رجل.» وامتدت يده نحو جيب بنطال الفروسية الذي يرتديه.

وهنا، مرة أخرى، نُدرك التأثير الخفي لجرة الذهب الثمينة؛ إذ لو أن هذا الموقف قد حدث قبل شهر مضى، كان بارناباس سيقبل بسرورٍ الجنيهَين الذهبيَّين اللذَين كافأه بهما الغريب. لكنه الآن أصبح رجلًا ذا إمكانيات ويُمكنه الانغماس في رفاهية عزة النفس الباهظة الثمن.

فقال: «لا، شكرًا.» ورفض بشهامةٍ أخذ النقود. واستأنف قائلًا: «أنا سعيد أني قد استطعت أن أُساعدك، وأعتقد أنك كنت ستفعل الشيء نفسَه من أجلي.»

أعاد صاحب الحصان النقود إلى جيبه، مترددًا. وقال، وهو يتولَّى زِمام الحصان من بارناباس: «يجب أن تفخر بنفسك.» وأضاف بشكل مثير للإعجاب: «ومع ذلك، إذا لم تأخذ المكافأة نقدًا، فربما ستأخذها بصورة أخرى؛ فقط، ضع في اعتبارك أن ما سأُخبرك به يجب أن يظل سرًّا بيننا؛ هل تُوافق على ذلك؟»

أعطى بارناباس التأكيد المطلوب، فاستأنف الرجل قائلًا:

«الآن، استمع إلي. أنا مدرب خيول، واسمي بيتس؛ ربما سمعت عني. حسنًا، إن لديَّ مصدرًا لكسب المال وهو سهل منتظم، وسأُدخلك إليه، فقط، يجب ألا تُخبر أحدًا.

أنت تعلم أن كأس الإمبراطورية لسباقات الخيول ستُقام الأسبوعَ المقبل في نيوماركت.» أومأ بارناباس برأسه. أكمل الرجل حديثه: «حسنًا، هناك اثنان من الخيول سيُشاركان في السباقَين الأولَين؛ وهما الملك توم وكولومباين. ستكون هناك احتمالاتٌ كبيرة تُشير إلى خَسارتهما. لكن لديَّ «معلومة مؤكدة» أنهما سيفوزان بالسباقَين. والآن، إذا راهنت على فوزهما، فستكسب أموالًا طائلة. هذه نصيحةٌ قيِّمة، وأقول لك مرة أخرى احتفظ بها لنفسك.»

مع هذا السر ولمسة من القبعة، ابتعد مع الحصان الذي استعاد هدوءه، تاركًا بارناباس يعود إلى ممر المشاة.

إن السيد مدج، كما قلنا، لم يكن مقامرًا، وفكرته عن «المعلومة المؤكدة» لم تكن تمامًا مثل فكرة أيِّ رجل مقامر. لقد شعر بالإطراء لامتلاك هذه المعلومة الخاصة، لكن لم يخطر في باله تحقيقُ أي استفادة منها؛ في الواقع، إن الأمر برمته قد تلاشى من عقله إلى أن تذكره بالصدفة في مناسبة ما. حدث ذلك في مساء اليوم الأول لبداية السباقات، حيث جلس في حانة «بلاك بول» مع واحد أو اثنَين من معارفه. وكانت المناسبة خاصة إلى حدٍّ ما؛ لأنه، بعد أن استدرج أحد القرويين السذج — رغم نصيحة أصدقائه — إلى رِهان، نجح للتوِّ في تحقيق الفوز بطريقته الخاصة، وكان على وشك الحصول على مكسبه، عندما توقفت عربةٌ يجرها حصان عند باب الحانة، ونزل منها رجل سمين، أحمر الوجه، ودخل. كان الوافد الجديد معروفًا جيدًا لرواد «بلاك بول»، حيث لم يكن سوى السيد سانديز، منظم المراهنات الشهير؛ وهو رجل يتسم بالأخلاق الدمثة واللطيفة، لا سيما في هذه المناسبة، حيث كسب، وفقًا لتعبيره، معاملات جيدة في ذلك النهار. وكان ميَّالًا إلى المرح، بعد أن خفَّف عطشه بجرعة مشروب أولية، وابتسم للقرويين السذج المذهولين، ودعاهم مجتمعين ومنفردين لتجرِبة مباراة مع فيكل فورتشن.

وقال، وهو يغرز إبهامًا سمينة في ضلوع بارناباس: «هاي! ما رأيك؟ يجب أن يكون الرجل ذو المظهر الذكيِّ مثلك مستعدًّا للرِّهان على ما يُعجبه. هيا، ماذا يُمكنني أن أفعل لك؟» وهنا أخرج كتيبًا منتفخًا مغطًّى بالجلد ولعق سنَّ قلم رصاص.

وعندئذٍ أُصيب بارناباس بجنون مفاجئ. ومع ذلك، ربما لم يكن مجنونًا كما بدا عليه؛ لأنه في تلك اللحظة، خطرت على عقله فكرة أنه حتى خسارة المال بشكل رائع وكبير، ستُضيف إلى تلك السمعة التي كان يُنميها بعناية.

فسأل بلا مبالاة: «مَن تُرجح الاحتمالات؟» فاقترب القرويون مندهِشين، بينما وضع صاحب الحانة براجمه على المنضدة وانحنى إلى الأمام بفضول. وأخرج السيد سانديز

قائمة بمواعيد السباقات، وبدأ في قراءة البيانات الرقمية التي بدت وكأنها تمتماتُ هذَيان سمسار أسهمٍ مجنون.

استفسر بارناباس: «ماذا عن الحصان الملك توم؟ إنه في أول سباق كما أرى.»

هز منظم المراهنات رأسه وقال: «إنه غير مصنَّف.» وأضاف ناصحًا: «لا تُراهن بنقودك على خيل غير مصنَّف.»

فتابع بارناباس متجاهلًا نصيحة السيد سانديز الحسن النية: «وماذا عن الفرس كولومباين. إنها في السباق الثاني، كما أرى.»

شرب السيد سانديز كأسه جرعة واحدة بنفاد صبر وقال: «فرس غير مصنفة هي الأخرى. من غير المرجح أن تفوز. خذ بنصيحتي، وراهِن بأموالك على حصان مصنَّف.»

ألقى بارناباس نظرة خاطفة على دائرة القرويين الملتفين حوله وهم فاغرو الأفواه، ثم أعلن بغموض: «أنا سوف أراهن على ما يُعجبني، وما يُعجبني هو هذا الحصان وهذه الفرس. ماذا ستُعطيني في الحدث المزدوج؟»

تفاجأ منظم المراهنات لدرجة أنه اضطُرَّ إلى طلب كأس أخرى من المشروب مع الصودا.

ثم زمجر الرجل قائلًا: «حدث مزدوج، لن أفعل ذلك. سيكون ذلك بمثابة نشل ما في جيوبك من نقود، وأنا لا أفعل هذا مع العمال.»

قال بارناباس: «حسنًا، إذًا يجب أن آخذ أموالي إلى منظم مراهنات آخر.»

قال السيد سانديز: «أوه، إذا كنت ستُقدم لشخص ما هدية، فليكن أنا هذا الشخص. سأُعطيك احتمال مائة إلى واحد. هذا لن يُؤذيك. بكم ستُراهن؟ شلن واحد؟»

التفت بارناباس إلى صاحب الحانة المذهول وسأله بنبرة غير رسمية: «توم، هل تُعطيني عشرين جنيهًا؟ سأردُّها لك في غضون نصف الساعة.»

كان هناك صمت تام لمدة ثانيتَين أو ثلاث ثوانٍ. لكن حُمَّى المراهنة ضربَت صاحب الحانة وكذلك بارناباس. وبدون كلمة، ذهب إلى مخبأ سري ثم عاد بعد فترة قصيرة مع أربع ورقات نقدية جديدة من فئة خمسة جنيهات.

قال منظم المراهنات: «حسنًا، إذا كنت قد حسمت أمرك، فلا يوجد شيء آخر يُمكن قوله؛ فقط، أُحذرك، ستخسر أموالك. ألن تُفكر في الأمر بشكل أفضل؟»

قال بارناباس بإصرار: «سأُراهن على ما يُعجبني.» وبموجب هذا سجَّل السيد سانديز المعاملة رسميًّا، موضحًا أنه لا يُمكنه استلام الأموال في مكان عام، ولكن يجب إرسالها إلى مكتبه.

بعد أن ألزم نفسه بهذا المشروع المتهور، مثَّل بارناباس دوره على نحو جيد. وقد تجاهل بهدوءٍ توسلاتِ القرويين المتحمسة بأن عليه أن يحضر السباق شخصيًّا ويرى أنه أُجري بعدالة، وذهب إلى عمله المعتاد كما لو أنَّ رِهان عشرين جنيهًا كان مجرد أمر تافه لا يُنظَر إليه، وصندوق البلوط، الذي أخرج منه كل مدخراته، كان مستودعًا لا ينفد لثروة هائلة لا تُعَد ولا تُحصى. ولكنه كان الشخصَ الوحيد الهادئ في القرية. وعندما ذهب عصرًا إلى حانة «بلاك بول» لانتظار عودة منظم المراهنات، وجد البار مكتظًّا وكذلك الحانة، حيث كان صاحب الحانة يجني أرباح شهر خلال ساعتَين فقط.

في هذه الفترة، تلاشى هجومه القصير على هوس المراهنة، وقد أتى مستعدًّا لزيادة سمعته المتنامية من خلال اللامبالاة الرصينة تجاه الخَسارة التي كان قد تقبَّلها بالفعل على أنها حتمية؛ وبينما وقف حشدٌ من القرويين المتحمسين على الطريق، يترقبون عودة منظم المراهنات بصبرٍ نافدٍ، جلس بارناباس على مقعد وايكوم وراح يقرأ جريدة الصباح في هدوء، وهو ما أثار الدهشة الممزوجة بالاحترام والإعجاب لدى رواد الحانة الآخرين.

وعندما اقتربت الساعة من الخامسة، تصاعدت فجأةً أصواتُ صخب من الخارج. وظهرت مجموعة من الرءوس، بعيون محدقة تملؤها الإثارة، عند النافذة المفتوحة، وحاولت مجموعة من الأصوات اقتحام هدوئه الفلسفي.

«إنه قادم يا بارني! إنه يمر بعمود الاتجاهات الآن! إنه أمام البركة!» ثم بعد فترة وجيزة ولكنها صاخبة، «ها هو!» وسمع بارناباس الهادئ، وهو يقرأ إعلانًا عن خادمة منزل محترمة، صوتَ توقُّف العربة أمام الحانة، وميَّز صوتًا منفعلًا، لكنه مألوف يُنادي من خارج الحانة: «أين هذا الرجل مدج؟ هل هو هنا؟»

وضع بارناباس الجريدة وتثاءب. ثم نهض وتمطى، وخرج إلى حيث وقف السيد سانديز محاطًا بحشد القرويين، ويُمسك دفتر شيكات وقلم حبر. لكنه لم يعد لطيفًا ولا مرحًا. بل على العكس من ذلك، استقبل بارناباس بابتسامة صفراء لاذعة وصفع دفتر الشيكات الخاصَّ به على البقعة النظيفة الوحيدة على المنضدة.

قال: «إذن، ها أنت ذا، يا لك من لعين! هل تعلم أنك أفقدتني كامل أرباحي؟»

تمتم بارناباس باعتذار، وقد أربكه إلى حدٍّ ما السلوكُ غير المعتاد لسانديز اللطيف عادة، ووقف مُشاهدًا، وهو ينظر متحيرًا، بينما كان منظم المراهنات يكتب شيكًا، وهو يُزمجر بتعليقات مهينة.

وقال: «يا لي من تعيس! لقد أفلست على يد قروي ساذج! من الأفضل أن أُحضر ممرضة معي في المرة القادمة. خذ!»

ثم قطع الشيك من الدفتر، ووضعه أمام طرف أنف بارناباس المذهول، الذي بدأ يفهم الأمر ببُطء، فأخذ الشيك وقرأه بصعوبة فوجده بمبلغ ألفَي جنيه ويستحقُّ السداد لصالح السيد بارناباس مدج، فظل يُحدق فيه بذهول مطلق، بينما كانت عجلات عربة منظم المراهنات تتدحرج بعيدًا على الطريق.

من المعروف أن الظروف تُغير الاهتمامات. عندما عاد بارناباس إلى المنزل مع شيك بقيمة ألفَي جنيه في جيبه، أصبحت جرة الذهب التي كانت تحتكر مجال رؤيته العقلية حتى الآن في طي النسيان. لدرجة أنه أخذ يُفكر فيما إذا كان من الأفضل إعلان اكتشاف الكنز وبالتالي يُصحح موقفه القانوني؛ لكن نظرة أخرى على المحتويات المتلألئة للجرَّة حددَت النتيجة الحتمية؛ إذ تغلَّب الطمعُ على الحكمة.

بعد يومَين، انطلق إلى سوق المدينة المجاورة لغرض فتح حساب في البنك الذي رشحه له صاحب حانة «بلاك بول». وقبل أن يبدأ رحلته، كان قد أخرج الجرة مرة أخرى من مخبئها، وهو لا يزال مترددًا، كي يأخذها معه أيضًا. لكن التاريخ الموحَّد على العملات الذهبية حسم تردده؛ فالمصادفة الغريبة ستُلاحَظ حتمًا من قِبَل موظَّفي البنك، وهذا بالتحديد ما لا يرغب فيه بارناباس. فأعاد الجرة إلى مخبئها، لتُصبح بمثابة مخزن يُسحَب منه للنفقات الجارية، ولكن أولًا، أخذ منها عشرة جنيهات، ووضَعها في جيب بنطاله. وهكذا مع وجود ألفَي جنيه في البنك، كان بإمكانه بالتأكيد أن يصرف القليل من الذهب.

لاحظ بارناباس أن ظهوره في البنك مرتديًا بدلة قديمة قد خلق انطباعًا غيرَ مستحسن عنه إلى حد ما، وقرر أن يشتري لنفسه في التو ثيابًا أكثر ملاءمةً لحالته المالية الجديدة.

وفي هذه الأثناء، تسبب السير لمسافة ثمانية أميال من القرية إلى المدينة في إحساسه بالجوع والعطش فقرر تهدئتهما، بغضِّ النظر عن التكلفة، في مطعم «رأس الملك». لكن هناك أيضًا، عرَّضَته ملابسه القديمة للإذلال؛ وعلى الرغم من ذلك، فقد اختار الكثير من الأطباق بهدوء من قائمة الطعام، بينما راقبه نادل متشكك بشكل متغطرس، ثم وضع فاتورة الحساب الضخمة بجانب طبقه قبل أن يُنهي قطعة الجبن الرابعة.

وعلى الرغم من ذلك لم يشعر بارناباس بالاستياء. بل على العكس، فقد منحته الفاتورة وسيلةً للدفاع عن موقفه؛ وهو ما فعله حينما وضع على الفاتورة بلا مبالاة جنيهًا ذهبيًّا من الجنيهات التي منحها له القدر. ومع ذلك، فإن تأثير هذا على النادل لم يكن تمامًا كما كان يأمُل؛ لأن ذلك الوضيع المتغطرس، بينما يبتعد، أخذ يُقلب العملة الذهبية مرارًا وتَكرارًا في راحة يده كما لو كان خبير نقود يفحص عينة من بعض العملات الأثرية العتيقة. ولو كان

بارناباس قد تبعه إلى المكتب، لكان قد رأى أن هذا الحماس النقدي قد تم توصيله بالفعل إلى المدير؛ الذي أخذ يفحص العملة الذهبية بدقة، ويرنها على المنضدة وأخيرًا وزنها على ميزان حساس صغير الحجم.

قال بارناباس للنادل، الذي كان يتجول خفية بالقرب من مقعده، ويُراقبه: «والآن إذن، متى ستُحضر لي باقي الجنيه الذهبي؟»

أجاب النادل: «حاضر يا سيدي، خلال دقيقة واحدة.» بينما ينظر نحو الباب بترقب؛ وفي تلك اللحظة بالذات دخل عبره ثلاثة أشخاص يرتدي أحدهم زي الشرطة المحلية. ثم اقترب الغرباء والنادل بتروٍّ من بارناباس، وقال لهم النادل: «هذا هو!»

نهض بارناباس وقد هرب الدم من عروقه متوجسًا الشر. وفتح أحد الغرباء، الذي بدا وكأنه ضابط يرتدي ثيابًا مدنية، يده وبداخلها الجنيه الذهبي وقال:

«أنا ضابط شرطة؛ وسوف أُلقي القبض عليك بتهمة تداول عملة مزيفة، ومن واجبي أن أُحذرك من أن أي شيء تقوله سوف يُستخدَم دليلًا ضدك.»

تصبَّب بارناباس عرقًا باردًا. وتلعثم قائلًا: «هل تقصد أن تُخبرني أن هذا الجنيه مزيف؟»

أجاب الضابط متخليًا فجأة عن عباراته القانونية: «نعم مزيف؛ «عملة سكة»، وأُريد أن أعرف ما إذا كان لديك المزيد.» ومِن ثَم اقتِيد بارناباس دون مقاومة إلى القسم، حيث فُتِّشَت جيوبه بخبرة، وأُخرِجَت منها الجنيهات التسعة الأخرى ووُضِعت على المكتب.

«نفس المجموعة القديمة!» قال المحقِّق وهو يُمرِّر عينه عليهم بسرعة. «اعتقدت أننا قد رأينا آخر روائع تزوير فريد جيلبرت؛ من أين حصلت على هذه الجنيهات، أيها الشاب؟»

كان بارناباس كما قلنا رجلًا ذكيًّا. ومع أول ظهور للشرطة، أنبأه حدسه بوجود مشكلة تخص الجنيه الذهبي؛ وهو الآن يرى بوضوح أن فرصته الوحيدة تكمن في بيان صريح للحقائق الفعلية. وبناءً على ذلك، حكى بالتفصيل ظروف اكتشاف الكنز، وشجعته على ذلك ابتسامةٌ تتسع ببطء على وجه الضابط.

سأله المحقق: «أين يقع هذا المنزل؟»

«إنه في هاربل لان، بيكونزفيلد. آخر كوخ على الجانب الأيمن.»

ضحك المحقق وقال: «هذا هو المكان، لقد فتشناه بعناية شديدة بعد أن أُلقِي فريدي في سجن نيوماركت، لكننا لم نتمكَّن من العثور على قطعة واحدة. يا لك من داهية يا فريدريك. يحتفظ بكل قوالبه وأدواته في منزله بلندن. ومع ذلك، عليك أن تذهب إلى المحكمة أيها

الشاب؛ لأنه إذا لم تكن قد صنعت هذه العملات المزيفة، فقد سرقتها، واستخدمتَها، على الرغم من أنني أعتقد أن القضاة لن يُعاملوك بقسوة.»

وبالفعل لم يُعامله القضاة بقسوة. بل على العكس من ذلك، كانوا ميَّالين إلى المرح لدرجة عدم اللياقة؛ لأنه عندما اتُّهم بارناباس «بإخفاء كنز معين عن معرفة الملك بشكل غير قانوني»؛ علَت وجوهَ جميع مَن في المحكمة، وفي ذلك وكيل النيابة، أوسعُ الابتسامات؛ وعندما نهض كاتب المحكمة للإشارة إلى القضاة بأن كلمة «كنز» تم تعريفها في القانون على أنها «أي ذهب أو فِضة في شكل عملات أو ألواح أو سبائك مخبَّأة في العصور القديمة»، في حين أن الكنز الحاليَّ مصنوع من المعادن الرخيصة، فأفسحت الابتساماتُ الطريق إلى ضحكات مسموعة، ووافق القضاة المرِحون على الاستفادة من الثغرة القانونية وتبرئة السجين.

في اليوم نفسِه، سلَّم بارناباس الجَرة المشئومة للمحقِّق بصفته «مفوضًا من الملك»، وغامر مبتسمًا بالتعبير عن أمله في ألا يستخدم جلالة الملك ثروته المكتسبة حديثًا بشكل غير لائق.

لقد مرت عدة سنوات منذ أن وقعت هذه الأحداث المثيرة، وهي سنوات برَّرَت الثروة التي منحها القدرُ لبارناباس مدج؛ ومنذ ذلك الحين، لم يُزين اسمُه المبجل عددًا كبيرًا من لوحات إعلانات مشاريع المقاولين فحسب، بل ظهرَ في ذيل شيكات، إذا ما قُورِنَت بشيك السيد سانديز الذي لا يُنسَى، يُصبح الأخير مجردَ خربشة تافهة.


هنداوي